

الأدب العربي في جزر البليار



الدكتور عبد الرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن



الأدب العربي

في جزر البليار

تأليف

الدكتور عبدالرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الكويت

2004

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
سيدي ولد الأمجاد

بإشراف

عبدالعزيز جمعة

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي أحمد جاسم

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: ISBN : 99906 -72 - 08 - 3
رقم الإيداع : Depository Number: 2004 / 00282

الطبعة الثانية

من منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
الكويت ٢٠٠٤

الطبعة الأولى

من منشورات دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ١٩٩٤

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)
E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصديـــــــر...

كتاب هام، يقتحمُ عوالمَ كانت شبه مجهولة في فضاء الأندلس الواسع، ويربط لنا بين حلقات عصر أدبي زاهر، بعد أن انفرط عقده الثمين في مجاهل النسيان، وتوارت نجومه الساطعة في ليل طويل حزين.

إنَّ جزر البليار - كما تتجلى هنا في دراسة الدكتور عبدالرزاق حسين - تعتبر بحق إحدَى أهم المراسي التي ارتفعت فوقها راية الأدب العربي شامخة رفرافة بالضياء.

وإنني لسعيد جدًا، وأنا أقرأ مثل هذه الإصدارات التي ما فتئت تقدمها مؤسستنا لقرائها الكرام في كل مكان، والتي تكشف باستمرار عن الجديد والطريف في المراحل المختلفة لتاريخنا الأدبي، بهمة باحثين كبار، أدمنوا السُّرى في ليالي الأندلس، بمشكاة من الفهم الثاقب والتنقيب الجاد بين طيات الكتب والمخطوطات النادرة، إضافة إلى أسلوب البحث الميداني، وما يُفيده من مقارنة واستخلاص عميق.

إن دخول العرب المسلمين إلى هذه الجزر ومساهمتهم البارزة في مسيرة الحركة الأدبية والثقافية، فرصة رائعة أنجبت لنا أعلامًا من الشعراء والأدباء والكتَّاب، أماط هذا الكتاب القيم اللثام عن الكثير من جوانب حياتهم الزاخرة وإبداعاتهم الباهرة.

والمؤسسة بإعادتها طبع هذا الكتاب «الأدب العربي في جزر البليار» لمؤلفه الدكتور عبدالرزاق حسين، إنما تعزز بذلك قائمة منشوراتها عن التاريخ الثقافي والاجتماعي في الأندلس عمومًا، ضمن قافلة تزداد كل يوم حمل بعير، خاصة ونحن نسعد بمشاركة العديد من الأدباء والمثقفين في الدورة التاسعة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري «دورة ابن زيدون» في قرطبة ٢٠٠٤م.

فللمؤلف منا جزيل الشكر، على ما بذله من جهود مضنية في هذه الرحلة التاريخية إلى جزر البليار المنسية في الأندلس، كاشفًا في محطاتها عن ذخائر وجواهر لا تنسى من رصيد حضارتنا وتراثنا العربي.

وهكذا نلتقي دائمًا في سفينة واحدة ذات ألواح ودسر، تمخر بنا عباب البحار والمحيطات، بحثًا عن كنز مفقود، أو طيف بعيد وراء الحجب والأستار، خدمة لتواصل الأجيال، ورسالة الفكر والثقافة في نشر مبادئ التسامح والتقارب، وحوار الحضارات بين العلوم والآداب والفنون الإنسانية، في زمن بات بحاجة أكثر إلى صوت الحكمة والعقل، حتى تتجاوز شعوبه ظلمة التعصب الأعمى والعنف المقيت، إلى شاطئ الأمان والحرية والمعرفة.

فهل نساهم جميعًا أينما كنا، في عملية التنوير وفتح النوافذ المغلقة، كي يذهب الأطفال صباحًا إلى المدارس، ويعزف قائد الفرقة نشيد السلام، ويلقي الشعراء: لوركا والمتنبي وطاغور وسعدي الشيرازي قصائدهم أمام الجمهور في غرناطة وحلب وبغداد.

هذا ما أتمناه.

والله ولي التوفيق،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في جمادى الآخرة 1425هـ

الموافق أغسطس 2004م

****

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والسلام على خير الأولين، والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين وبعد:

فهذا بحث بكر في بابه، غض في إهابه، لم يتناوله – على حد علمي – قديم أو محدث.

ولم يرد ذكر أدب هذه الجزر إلاّ كعجالة راكب، أو حياء من عاتب عند القدماء والمحدثين على السواء، فالمقري يقول في ذكره العارض لهذه الجزر: «وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلاً... وجزيرة يابسة، واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول، ولو تُتُبِّعَ لكان تأليفًا مستقلاً[1]».

وابن الخطيب يُعرض عن الحديث عن أدب البليار لأنه كما يقول: «وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية، ولكنه أنسب إليها منها إلى غيرها، إذ لم تزل راجعة إليها، وتابعة لأحكامها، فهذا وجه المسامحة[2]».

وإنما هو تعلق لا انتماء، وارتباط جوار لا ارتباط انتساب، وكذلك ابن سعيد يعد هذه الجزر الشرقية «مضافة الى الأندلس[3]».

ولعل المحدثين تمثلوا كلام ابن الخطيب وابن سعيد، فاعتنوا بالظاهر عن النافر، واستبدلوا الغوص بالعوم، والبعد بالقرب، والصعب بالسهل، ولذلك لم أجد ممَّن كتبوا

---

(١) نفح الطيب ١/١٦٩.
(٢) أعمال الأعلام٢٧٧.
(٣) المغرب ٢/٤٦٥.

عن أدب الأندلس من يحتفل بجزر البليار، أو يتحدث عنها قصدًا أو عرضًا، ولعل لبعضهم العذر في هذا الإعراض، لكونهم تخصصوا في جزئية من أدب الأندلس، ولكن الذين كتبوا الدراسات العامة في الأدب الأندلسي، ولم يلتزموا بفترة تاريخية أو بقعة جغرافية فقد تصدوا لمراكز الأدب الرئيسة في الأندلس: كقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من مراكز صناعة القرار السياسي، وأهملوا ما عدا ذلك، وفي ذلك تقصير، أما أولئك الذين ركزوا دراساتهم على عصر ملوك الطوائف، وعصري المرابطين والموحدين فلا عذر لهم في هذا التجاهل.

وإذا كانت هذه الجزر قد خرَّجَتْ لنا من أبنائها عددًا من الشعراء الكبار، وضمت بين جوانحها عدداً ضخمًا من الشعراء الذين وفدوا عليها من الأصقاع المختلفة في الأندلس، وصقلية والمغرب مثل: ابن اللبانة، وابن حمديس، وابن البني، وأبي العرب الصقلي، والفتح بن خاقان، وثابت الجرجاني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن يامن، وابن مطرف، وابن خطاب الهنتاني، وكُثَيِّر الأديب، وابن العوام الإشبيلي، وكثير غيرهم، فإن هذه الجزر ظلت مملكة مستقلة أو إمارات متميزة لفترة طويلة من الزمن، لانقطاعها عن الأندلس، وابتعادها عن مصادر الخطر الإسباني كما هو واقع الأندلس، فبينما كانت تتساقط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى بعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري، كانت جزائر البليار دولة مستقلة، تقض مضاجع جنوة وبيزة وسردانية، وساحل إيطاليا الغربي، وجنوب بلاد الفرنجة، وإمارة قطلونيا الإسبانية والبروفانس، ووجدناها في حكم بني غانية، تمد ملكها، إلى ساحل أفريقيا، وتهاجم الموحدين في عقر ملكهم، ويسيطر أميرها يحيى بن غانية، على كثير من أملاكهم في طرابلس، وقابس وبجاية، وقفصة، وتوزر، ومليانة، ومازونة، وغير ذلك من بلاد الشمال الأفريقي.

كذلك فإنه بعد سقوط ميورقة ويابسة، فقد ظلت منورقة تحت الحكم الإسلامي ما يزيد على النصف قرن، تحت حكم الرئيس أبي سعيد بن الحاكم القرشي، ومن هنا

فإن جـزر البليـار وأدبهـا الذي يمثل جزءًا هـامًا من الأدب الأندلسي يستحقـان إبراز دوريهما وإظهار مكانتيهما.

والباحث في جزر البحـر المتوسط يجد نفسـه مشغوفًا بتتبع الأحداث الهامة، والمعـارك البـحـرية، والأسـاطيل المخـتلفـة التي تجـوبه ليل نهـار، تجـارة أو حـربًا أو استطلاعًا، في هذه الحقبة التي شهدت صراعًا عالميًا للسيطرة على هذا البحر.

والمسلمون منذ أول معركة بحرية خاضوها ضد الرومان في ذات الصواري زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وهم يسعون بجد ومثابرة للسيطرة عليه، وجعله بحيرة عربية إسلامية، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا، وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين خضعت لهم قبرص واقريطش - كريت - وصقلية، وسردينيا، وجزر البليار ومالطة، وتحولت الأسـاطيل العربية الإسلامية تجوب عبابه، وتشق أمواجه صاعدة هابطة، إلى موانئ أوروبا.

وكـان البيـزنطيون وحكام أوروبا يصـارعـون من أجل القضـاء على هذه القوة البحرية الإسلامية، وكثيرًا ما اصطدموا بالمسلمين في معارك عديدة، كانت انتصارًا للمسلمين، إبان قوتهم، ثم بدأت تتراجع وترجح كفة العدو أحيانًا في فترة انقسامهم، إلى أن رجحت أخيرًا عندما وهنوا وضعفوا وتفرقوا، وبدأت هذه الجـزر التي نعمت بنور الإسلام تعود إلى النصرانية، فسقطت صقلية، وكريت، وجزر البليار، ومالطة، وكل ذلك نتيجة للانقسام والتمزق في أوصال الدولة الإسلامية.

ومع أن تلك الطوائف التي مزقت الأندلس سياسيًا، وسهلت على العدو ابتلاعه جزءًا جزءًا، إلا أنها مكنت لازدهار ثقافي بلغ أوجه، وسطع نجمه، وظلّ عبر الزمن قمرًا وضاءً نرنو إليه، وننسج من خيوط أشعته الفضية ثوب أحلامنا الوردية بمجد يعود، في التاريخ الذي يعيد نفسه، فنرفل في دمقس النصر، ونلتف في وشاح المجد، وتهتز على عواتقنا أكاليل الغار.

وإذا كانت أضواء هذا الأدب وهذا الازدهار قد تألقت وتلألأت في مدائن عدة من الأندلس، وفي بلاطات ملوكها: كبلاط بني عباد في إشبيلية، وبني جهور في قرطبة، وبني هود في سرقسطة، وبني صمادح في المرية، وبني عامر في بلنسية، وبني زيري في غرناطة، وبني ذي النون في طليطلة، وبني الأفطس ببطليموس، إلى آخر هذه الدويلات التي تنادت لرفعة الأدب، وتسابقت تمد يدها لمنشئيه ومحترفيه، وتبوئهم أعلى المناصب، وتفسح لهم في صدرها أعزّ المكاسب، فإن جزر البليار منذ أن أصبحت عضوًا في جسد الدولة الأندلسية الإسلامية – على الرغم من انفصالها الجسدي عن شبه الجزيرة بريًا وأحيانًا سياسيًا – لم تحظ بالاهتمام والدراسة، ولم تلق من العناية ما لقيته تلك الحواضر، وكأن العواصم تأخذ البريق دائمًا، ولهذا عشت العيون عن ذلك النور الذي كان ينبعث على البعد من تلك الجزر النائية (ميورقة ومنورقة ويابسة).

وقد نرانا مضطرين لأن نخلط بعض الحديث في أولياته في البليار ببعض الحديث عن دانية عاصمة مجاهد وابنه علي، ولكن هذا الحديث يخفت صوته في أيام مجاهد الأخيرة حيث ظهر اهتمامه العظيم بأمر البليار لأسباب عدة منها:

١ – مراسيها الصالحة.

٢ – وجود الأخشاب لبناء السفن والمراسي.

٣ – قربها من السواحل النصرانية حيث يسهل استخدامها كقاعدة للانطلاق في غزوات سريعة، والعودة إليها كملجأ أمين.

إلى جانب أن دانية لم تعد تؤثر في هذه الجزر حيث سقطت في يد ابن هود من علي ابن مجاهد عام ٤٦٨هـ وهنا بدأ استقلال هذه الجزر على يد واليها عبدالله المرتضَى استقلالاً تامًا.

وإذا كان موضوع أدب البليار يتشعب ويتناثر نثارات متفرقة بين شعراء من

أبنائه هاجروا منه، وبين شعراء وافدين على مراحل، وبين احتلال وفتح، ومخاطر ومخاوف، فإنني قد استطعت - بحمد الله - أن أضمه في باقة منسقة من زهور شتى، وأنا ضامن - بعون الله - أن هذه الزهرية بأزهارها وورودها ستنال إعجابك في الشكل واللون والرائحة، فعبقها من ورد المجد، ولونها من لون النصر، وشكلها من ذلك التشكيل الإسلامي والتنسيق الإيماني، إنه التشكيل التاريخي والثقافي الذي كنا مهندسيه وسادته.

وقد كنت أود أن أجعله في بابين، فأجعل بابًا للشعر وآخر للنثر، ولكني في ميدان النثر لم أستطع الحصول على كمية وافرة تجعله صالحًا لأن يكون بابًا مستقلاً، فآثرت عند ذلك أن أسير على نظام الفصول، حيث بدأت بمقدمة أبنت فيها عن إعراض المؤلفين في القديم والحديث عن الاهتمام بهذا الموضوع، لذلك فهو موضوع جديد كل الجدة لم يبحث فيه قديم أو محدث.

ثم مهدت بلمحات جغرافية وتاريخية ألقيت الأضواء فيها على هذه الجزر، ومسمياتها وأهميتها الجغرافية، وأفضت في الحديث التاريخي عن دخول المسلمين للبليار، وتحدثت عن أصل الصقالبة، وأصل مجاهد العامري ونشأته، واهتمامه بهذه الجزر، وعرجت على ابنه علي الذي في نهاية عهده أصبحت البليار مملكة مستقلة، وبعد ذلك وضحت ما تعرضت له هذه من حملات، وبخاصة السقوط الأول لميورقة على يد خايمي الأول، ثم عودتها إلى حوزة المرابطين، ثم استقلالها من قبل بني غانية، ورجوعها إلى الموحدين، وأخيرًا سقوط ميورقة ويابسة، وبقاء منورقة تحت حكم سعيد بن حكم إلى أن سقطت في عهد ابنه الحكم عام (٦٨٦هـ - ١٢٨٧م).

وقد بسطت القول في أدب هذه الجزر الذي ظهر في ستة فصول: تحدثت في الفصل الأول عن الازدهار الثقافي الذي شمل هذه الجزر، وأبنت عن المشاركات القيمة لأبناء الأندلس في هذه النهضة الثقافية الرائعة.

وفي الفصل الثاني انتقلت للحديث عن البلاطات الأدبية التي ظهرت في تلك الجزر فجمعت الشعراء والكتاب، وأذكت فيهم روح التنافس والإنتاج، فظهر لنا بلاط مجاهد العامري، وبلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة، وبلاط سعيد بن حكم في منورقة.

ثم أتبعت الحديث عن البلاطات الأدبية بفصل ثالث من موضوعات الشعر في البليار التي انتظمت في: «المدح، والوصف، والغزل، والإخوانيات، والمراسلات، والبليار في الشعر، وأغراض أخرى تضمنت: اللهو والهجاء والزهد والرثاء».

وفي هذا الفصل أبنت عن قدر من التميز لهذه الأغراض لالتصاقها بهذ الجزر وبيئتها وطبيعتها الجغرافية والتاريخية والسياسية.

وعنيت في الفصل الرابع بشعراء البليار، فرحت أبحث عن أشعارهم، وأتبين سماتهم وخصائصهم وأغراضهم، واستطعت بمتابعة المصادر المطبوعة والمخطوطة أن أخرج بعدد طيب منهم، وهم: «إدريس اليابسي، وابن العطار اليابسي، وابن طُنيز الميورقي، والحميدي الميورقي، وعياش بن حوافر، وابن عبدالولي الميورقي، وابن عشير اليابسي، ومحمد بن إبراهيم العبدري، والعماري الميورقي، ويحيى بن غانية الميورقي».

وقد خصصت إدريس اليابسي وابن العطار بحديث مستفيض من بين شعراء البليار وذلك لتوافر جملة طيبة من أشعارهما، إلى جانب تميز كل واحد منهما بسمات خاصة، فإدريس اليابسي من أجود شعراء الأندلس شعرًا، ومن أروعهم تصويرًا، وأحسنهم تشبيهًا ووصفًا، وابن العطار من أولئك الشعراء الذين التزموا بالدعوة للجهاد، وجعلوا من أشعارهم سيوفًا مصلتة في سبيل الله، ودعواتٍ محفزة لهمم الأبطال.

وخصصت الفصل الخامس للشعراء الوافدين على البليار، وتتبعتهم في إطارين:

الأول: الوافدون إلى ميورقة.

وهم: أبو جعفر بن البِنِّي، وابن اللبانة الداني، وابن حمديس الصقلي.

الثاني: الوافدون إلى منورقة.

وهم: ابن يامن، أبو عبدالله الجياني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن عميرة المخزومي، وابن العوام الإشبيلي وكُثَيِّر الأديب، وكان اهتمامي في هذا الفصل بدراسة شعر هؤلاء الشعراء الذي يخص هذه الجزر، دون الاهتمام بمجرى شعرهم العام.

أما الفصل السادس والأخير، فعرضت فيه للنثر التأليفي من خلال بعض مؤلفات البلياريين، وتوسعت في الحديث عن الرسائل الفنية والإخوانية، وأوردت بعض نماذج منها، واستخلصت بعض خصائص هذا النوع، ثم أبنت في لمحة سريعة عن النثر الوصفي الذي ظهر في منورقة.

وأخيرًا ختمت البحث بخاتمة، استخلصت فيها نتائج ما توصلت إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أ.د/عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

الأحساء في غرة شعبان ١٤١١هـ

الموافق: ١٥/٢/١٩٩١م

****



تمهيد

لمحة جغرافية:

الجزائر الشرقية أو جزائر شرقي الأندلس هو الإسم الذي عرفت به تلك الجزر عند الفتح العربي، إذ أخذت هذه التسمية من موقعها الكائن شرقي الأندلس.

أما اسمها الحديث (جزائر البليار) وهو الإسم الذي سنستخدمه في بحثنا هذا، فهو كما تقول الدكتورة كليليا سارنللي تسمية حديثة لا توجد إلا في قواميس القرن الماضي[1] تتكون هذه الجزر من أربع هي: «ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرا، وميورقة أكبرها وهي عاصمة الجزر كلها، وفرمنتيرا أصغرها، ولا تذكر مع أخواتها في التاريخ القديم، ويبدو أنها كان مهجورة وغير صالحة لرسو السفن.

وقد اهتم المؤرخون والجغرافيون بالجزر الثلاث، مولين عناية فائقة لميورقة يتلوها منورقة، ثم يابسة، وقد ذكر المقري هذه الجزر الثلاث، فقال: «وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلاً، وجزيرة ميورقة مسافة يوم، وبها مدينة حسنة، وتدخلها ساقية جارية على الدوام، وفيها يقول ابن اللبانة:

بلد أعارته الحمامة طَوْقها
وكساهُ حُلَّةَ ريشه الطاووسُ

وقال يخاطب ملكها في ذلك الوقت:

وغمرتَ بالإحسان أرض ميورقةٍ
وبنيتَ ما لم يَبْنِه الإسْكَنْدرُ

وجزيرة يابسة، واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ولو تتبع لكان تأليفًا مستقلاً[2]».

---

(١) انظر مجاهد العامري ١٨٦.
(٢) نفح الطيب ١٦٩/١.

وطول ميورقة كما يذكر الحميدي في صفة جزيرة الأندلس من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً، وعرضها من القِبْلَةِ إلى الجوف خمسون ميلاً[1]، ويذكر ابن سعيد أن طولها أربعون ميلاً وفيها بحيرة دَوْرها تسعة أميال وفيها حصون... وتدخلها ساقية جارية على الدوام[2].

ووصفها الشقندي بقوله: «وأما جزيرة ميورقة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاءً وأكثرها زرعًا ورزقًا وماشية وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتبصر وعظم البادية ما يغنيها، وفيها من الفوائد ما فيها[3].

ويعدها الحميري أمَّ الجزيرتين (منورقة ويابسة) وإليها مع الأيام خراجهما[4].

ويثني ابن حوقل على جزيرة ميورقة فيقول: «هي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي الفرنجة، واسعة الخير كثيرة الثمار، رخيصة الماشية لكثرة المراعي، غزيرة النتاج والمواشي، معدومة الجوائح، قليلة الآفة، فليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم[5]».

ومن مدنها المشهورة كما يذكر القزويني مدينة (والوطة): «وهي مدينة بجزيرة ميورقة، كبيرة حصينة طيبة الأرض رخيصة الأسعار، بها مياه غزيرة وأشجار كثيرة»[6].

ولا تقل منورقة عن أمها ميروقة جمالاً، وخصوبة، فهي كما وصفها ياقوت الحموي «جزيرة عامرة في شرقي الأندلس[7]» ويفصلها في البحر عن ميورقة خمسون ميلاً، وهي مستطيلة قليلة العرض[8].

---

(١) الروض المعطار ١٨٨.
(٢) المغرب ٤٦٦/٢.
(٣) نفح الطيب ٢٢١/٣ وانظر المغرب ٤٦٦/٢.
(٤) الروض المعطار ٥٦٧.
(٥) صور الأرض ١٨٥ والحلل السندسية ٥١/١.
(٦) آثار البلاد ص ٥٦٨.
(٧) معجم البلدان ٤٢٤/٥.
(٨) انظر المغرب ٤٦٩/٢.

وتكافؤهما في ذلك يابسة، فهي «جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب، وبها مدينة حسنة صغيرة.... وبجزيرة يابسة عشرة مراس، وبها أنهار خارجة، وقرى كثيرة، وعمائر متصلة، وأرضها تنبت الصنوبر الجيد العود للإنشاء وعُدد المراكب، وبها ملاحة لا ينفد ملحها[1]».

وهي تمتد طولاً كما يذكر القزويني وطولها خمسة وأربعون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً[2] ويبدو لي أنها ضد اسمها، فعلى الصفات التي ذكرها الحميري والقزويني فإنها الخضراء لا اليابسة، إذ فيها من شجر الصنوبر والفواكه والأعناب ما يجعلها تتمتع بالخضرة طوال العام، ولعلها سميت بذلك لكونها يابسة في بطن هذا البحر أو المراكب، إذ «فيها ينشأ أكثر المراكب لجودة خشبها[3]».

ولعلَّ من أسباب سقوطها وسقوط ميورقة هي هذه الأخشاب التي كانت تنقل منها لبناء السفن وإصلاحها، فقد كانت هذه المادة العسكرية من أهم أدوات الحرب في هذه الحروب البحرية.

لمحة تاريخية:

ارتباط التاريخ بالأدب لن تنفصم عراه على الرغم من بعض الاتجاهات والمذاهب الأدبية، وسيظل هذا الرباط وثيقًا شئنا أم أبينا، لأن صفحة التاريخ هي مرآة الأدب، وإن شئت قل: التاريخ بيت الأدب.

وتاريخ جزر البليار حافل بالحركة، متميز بنكهة خاصة، إنها نكهة البحر والأساطيل والغزو والقرصنة، والأطماع، ولست هنا بصدد التأريخ لهذه الجزر، وإنما هو عرض سريع لشريط هذه الجزر التاريخي المرتبط بدقة ببحثنا هذا، ومنذ ارتباط تاريخ هذه الجزر بأدبنا، ولذا سأتحدث عن فتح المسلمين لهذه الجزر، ومن ثم مكانة

(١) الروض المعطار ص٦١٦.
(٢) آثار البلاد ٢٨٢.
(٣) معجم البلدان ٥/٤٢٤.

هذه الجزر في الدولة الإسلامية، وفي الخلافة الأموية للأندلس، وفي ملوك الطوائف، مرورًا بعهدي المرابطين والموحدين، وانتهاءً بسقوط هذه الجزر وخروج الإسلام نهائيًا بعد أن غربت شمس أبنائه.

دخول المسلمين البليار:

متى دخل المسلمون جزر البليار؟ ومتى تمت لهم السيطرة الفعلية عليها؟ وهل ارتبط فتحها بفتح الأندلس؟ وهل انضمت سياسيّاً، وثقافيّاً واجتماعيّاً للإمارة الأندلسية؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يحسن بنا أن نبدأ مع أول تطلّع إسلامي لهذه الجزر.

وإذا كانت جزر البليار - لقربها من الأندلس - ترتبط معها منذ القديم برباط المصير الواحد، فنجد تاريخًا مشتركًا في حوادثه ووقائعه، ونجدها تشاطر الأندلس محنة الغزوات المتتالية، فهي تخضع مثلها للاحتلال الإغريقي، يتلوه الفينيقي، ثمَّ تعاني المعاناة المرة من نير الاحتلال الروماني.

وإذا كانت جزر البليار تمثل نقطة ارتكاز في البحر المتوسط إلى جانب ما شهرت به من جمال وخصوبة، فنحن لا نشك بأن الذي يريد السيطرة على هذا البحر سيمد نظره إليها، لما ذكرناه آنفًا، ولأسباب أخرى منها:

- أنها مركز دفاع عن الدولة الواقعة قبالتها ضد هجوم الغزوات البحرية وغارات القراصنة.
- تعد مركزا جيداً لتأمين التجارة في هذا البحر.
- تعد نقطة انطلاق قريبة وملجأ آمناً لغزو السواحل القريبة.
- بالإضافة إلى ما تتمتع به هذ الجزر من خيرات وبخاصة جزيرة يابسة بأخشابها، حيث كانت مركزا لصناعة السفن وموردا لها.

ولعلَّ هذه الأسباب تكفي وتبرر غزو المسلمين لهذه الجزر حتى قبل التطلع إلى الأندلس نفسها، فقد رُويَ أن أول حملة إسلامية توجهت إلى هذه الجزر كانت سنة (٨٤هـ) ثم وجه لها والي أفريقية القائد موسى بن نصير بغزوةٍ أخرى سنة (٨٦هـ) بقيادة ابنه عبدالله، فأصاب من الأسرى والغنائم الكثير[1].

---

(١) انظر مجاهد العامري ١٩١.

ويبدو أن هاتين الغزوتين كانتا استطلاعيتين، فلم يكن من همهما تثبيت الأقدام، ولعل ذلك راجع إلى بعد هذه الجزر عن المراكز الإسلامية في المغرب وقربها من مراكز الروم، وبداهة أن تكون هذه الغزوات للاستطلاع والغنائم واستعراض القوة، وتأديب القراصنة الذين كانوا يغيرون أحيانًا على بعض الشواطئ الإسلامية في الشمال الأفريقي.

ويذكر ابن خياط في تاريخه في حوادث سنة (٨٩هـ) «وفيها أغزى موسى بن نصير ابنه عبدالله بن موسى، فأتى ميورقة ومنورقة - جزيرتين بين صقلية والأندلس، وافتتحهما، وهذه الغزوة، تدعى غزوة الأشراف، كان معه أشراف الناس[١] ويؤكد المقري أن الفاتح لجزيرة ميورقة هو عبدالله بن موسى[٢] ومن هنا نفهم إشارة ابن عذاري حيث ذكر في حديثه في رحلة موسى بن نصير إلى المشرق، أنه صحب معه أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب، ومن وجوه البربر مائة منهم: بنو كسيلة بن لمزم، وبنو يسُّور، ومزدانة ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومائة من وجوه ملوك الروم الأندلسيين، وعشرون ملكًا من ملوك المدائن التي افتتحها بأفريقيا[٣].

فهذه الإشارة لمصاحبة موسى بن نصير لملك ميورقة ومنورقة في رحلته إلى الخليفة الأموي دليل على خضوع هاتين الجزيرتين للحكم الإسلامي، وهذا يكفي للرد على تساؤلات الدكتور عبدالرحمن الحجي عن سبب عدم وجود إشارات مبكرة عن الفتح أو محاولات فتح هذه الجزر[٤].

ولكن كيف نفسر الأخبار الأخرى التي تتحدث عن فتح هذه الجزر بعد هذا التاريخ بكثير؟

فابن حيان مؤرخ الأندلس يذكر فتحها في سنة (٢٣٤هـ) حيث جهز عبدالرحمن ابن الحكم أسطولاً من ثلاثمائة مركب إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة لإضرار أهلها بمن يمر بهما من مراكب الإسلام ففتحوها[٥].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص٣٠٢ وانظر المغرب ٤٦٦/٢ وتاريخ البحرية الإسلامية الجزء الثاني.
(٢) نفح الطيب ٢٧٩/١.
(٣) البيان المغرب ٤٤/١ - ٤٥.
(٤) انظر التاريخ الأندلسي.
(٥) المقتبس ص٢ وانظر المغرب ٤٩/١.

ويذكر في حوادث سنة (٢٣٥هـ) «وفيها ورد كتاب أهل ميورقة على الأمير عبدالرحمن بن الحكم مستغيثين ممن دهمهم من سخطه، مستقيلين لعثراتهم لديه، راغبين في صفحه وإقالته، فعطف عليهم، وأقالهم زلتهم، وأجابهم إلى مسألتهم، وأعطاهم ذمته، وجدد لهم عهده[1]».

ولكن ابن الخطيب يذكر أن هذه الحوادث تمت سنة (٢٢٥هـ) حيث يقول عن دولة عبدالرحمن بن الحكم: وفي أيامه انتقض المعاهدة بجزيرة ميورقة، فغزاهم في ثلاثمائة مركب، فافتتحها ثانية، وغزا بنفسه جليقية فافتتح حصونها، وسبى حريمها، وقتل مقاتلها، وذلك سنة (٢٢٥هـ)[2].

ومما يزيد الأمر تعقيدًا ما ذكره الحميري بأن فتحها كان سنة (٢٩٠هـ)[3] على يد عصام الخولاني الذي تمكن من إعادة فتح هذه الجزر وتولاها عشر سنين فبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات[4].

ويبدو أن الغارات الإسلامية بدأت عام ٨٤هـ وتكررت عام ٨٦هـ وانتهت بفتح جزيرة ميورقة على يد عبدالله بن موسى بن نصير عام ٨٩ هـ وهذا ما يفسر مصاحبة ملك ميورقة ومنورقة موسى بن نصير في رحلته إلى المشرق، ويبدو لي أن الفتح لم يكن فتح استقرار، وهذا ما يفسر انتقاض أهل هاتين الجزيرتين وإضرارهما بمن يمر بهما من مراكب المسلمين في عهد عبدالرحمن بن الحكم، حيث جهز حملة لإعادة فتح الجزر سنة ٢٣٤هـ، ويظهر أن الأمر استقر للمسلمين في هذه الجزر، إذ ظلت تابعة لهم حتى عام ٢٩٠هـ إذا انتقضت مرة أخرى، فأعاد فتحها القائد عصام الخولاني وبقي واليًا عليها حتى سنة ٣٠٠هـ، وبعد وفاته تولى أمرها ابنه عبدالله ثم زهد في الولاية وغادر إلى المشرق حاجًا، فوليها الموفق وهو من فتيان الخليفة عبدالرحمن الناصر، «فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج[5]». ومن بعده جا ءالفتى كوثر الذي حكمها لمدة ثلاثين

---

(١) المقتبس ص٤.

(٢) تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام ص١٨.

(٣) الروض المعطار ٥٦٧.

(٤) انظر تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤ وتاريخ البحرية الإسلامية ١٢٦/٢.

(٥) تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤.

سنة من عام ٣٥٩-٣٨٩هـ ثم تولاها مقاتل الفتى في زمن المنصور بن أبي عامر، وكان من المجاهدين، وظل فيها يجاهد حتى توفي عام ٣٠٤هـ في وقت فتنة البربر في قرطبة التي أسقطت الخلافة الأموية[١].

ولقد تولى أمر هذه الجزر بعض فتيان الصقالبة من عام (٣٥٩-٤٦٨هـ) من هؤلاء الفتيان: «كوثر ومقاتل ومجاهد وابنه علي» فمن هم هؤلاء الصقالبة؟ وكيف وصلوا إلى الأندلس؟ وكيف استطاعوا اعتلاء سدة الحكم؟

كلمة موجزة عن الصقالبة

إذا كان المعتصم الخليفة العباسي هو أول من توسع في الاعتماد على الموالي الأتراك وجعلهم ذراع الدولة القوي، وخصص لهم مدينة عظيمة[*] تضمهم، فإن الحكم الأول[٢] في الأندلس هو الذي مكن الفتيان الصقالبة من التقلب في أعطاف الملك، إذ اشترى الكثير منهم، وضاعف عددهم مرات ومرات نتيجة لتلك الثورات التي اشتعلت بين البربر والعرب في عهد أبيه، ولهذا آثر الاعتماد عليهم لما لمس منهم من قوة وشجاعة وإخلاص، وبخاصة في تلك الحروب والفتن التي نشبت مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وعبث الفرنج في الثغور[٣].

وقد بلغ عدد المماليك الصقالبة في عهده نحو خمسة آلاف، وفي ذلك يقول عنه ابن خلدون: «إنه أول من جنَّد بالأندلس الأجناد والمرتزقة.... واستكثر من الخدم والحواشي والحشم... واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم[٤]».

ولعل تلك الثورات التي كانت تؤجج نارها كل حين، هي التي دفعت الأمراء الأمويين إلى زيادة عدد هؤلاء الصقالبة، لدرجة أن تعدادهم ارتفع في عهد عبدالرحمن

---

(١) انظر تاريخ البحرية الإسلامية ١٢٦/٢.

(٢) هو الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل المعروف بالرَّبضي، - نسبة إلى وقعة الربض المشهورة، ولد سنة ١٥٤هـ هـ - وتوفي سنة ٢٠٦هـ. انظر ترجمته في البيان المغرب ٧٠/٢ والمعجب ١٢ والمغرب ٤٤٢/١ والحلة السيراء ص٣٨ وتاريخ ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٥/٤ والنفح ٣٣٨/١-٣٤٤.

(٣) انظر البيان المغرب ٧٠/٢ والمغرب ٤٠/١ والنفح ٣٤٠/١.

(٤) نفح الطيب ٣٤٢/١.

(*) هي مدينة سامراء في العراق، أنشأها المعتصم بن الرشيد الخليفة العباسي الثامن، خصيصًا لمواليه الأتراك. (المراجع)

الناصر[١] إلى ثلاثة عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين صقلبياً[٢]، وظل الاعتماد على هؤلاء الصقالبة يزداد، ولم يتوقف عند حد الخدم والحشم، وإنما تعدى ذلك إلى الجيش والولاية، حتى غلب بعضهم على الأمراء، كما حدث لنصر الخصي[٣] الذي علت منزلته في عهد عبدالرحمن بن الحكم[٤]، حتى صار يتصرف في كل أمر، وترقى في كل المناصب، وعهد إليه بقيادة الجيوش، يقول عنه ابن حيان: «خليفة الأمير عبدالرحمن بن الحكم، المقدم على جميع خاصته، المدبر لأمر داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريف ملكه[٥]».

وقد أحس بهذا الخطر المنصور بن أبي عامر في عهد هشام بن الحكم، وذلك لما وصل إليه خصيان القصر من رتبة عالية، من أمثال فائق وجؤذر، فحاول استئصالهم، وفي ذلك يقول المقري: «وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون[٦]».

وعلى الرغم من محاولة المنصور القضاء عليهم بعد تسلمه ذروة الحكم، إلا أنه عاد يعتمد عليهم: «واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة، وقهر من تطاول إليه من العلية[٧]».

---

(١) هو الناصر لدين الله أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، ولي شاباً، وكان شهمًا صارمًا، طرح لقب الإمارة، وتلقب بالخلافة، صفت له الأندلس ونزلت جميعها في طاعته، وأذعنت له الأمم النصرانية، انظر ترجمته في: الجذوة ص١٣ والبيان المغرب ٢/١٦١ والحلة السيراء ٩٨ والعبر ٤/١٣٧ والمغرب ١/١٨١ والنفح ١/٣٥٣.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٤٧ وأزهار الرياض ٢/٢٦٩.

(٣) انظر ترجمته في الفرضي ٢/٢٨ والمقتبس ٨ والمطمح ٣٨٨ والمغرب ١/٤٩ والنفح ١/٣٦٩.

(٤) أبو المطرف عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، ولد سنة ١٧٦هـ وتوفي سنة ٢٣٨هـ حكم إحدى وثلاثين سنة. كان عالـمًا مُكرمًا للعلماء. انظر ترجمته في البيان المغرب ٢/٨٢ والمقتبس ٧٦ والمغرب ١/٤٥ والعبر ٤/١٢٧ والحلة السيراء ٦١ والنفح ١/٣٤٤.

(٥) المقتبس ٨ وانظر الى ما وصل إليه الصقالبة من حيث تولية الأمر لمن شاؤوا، وصرفه عمن شاؤوا في المقتبس ص١٠٥ – ١٢١.

(٦) نفح الطيب ١/٣٩٧.

(٧) المصدر نفسه ١/٣٩٨.

«لعل الدوافع التي جعلت الخلفاء يستعينون بالصقالبة هي نفس الأسباب التي دفعت محمد بن أبي عامر إلى استخدامهم أيضًا[1]».

ومن الغريب أن ينسبوا إليه، إذ أصبح يطلق عليهم اسم «الصقالبة العامريين»، وبخاصة أولئك الذين جلبهم خلال غزواته العديدة المظفرة التي نيفت على خمسين غزوة، لم تهزم له فيها راية، ولا فلّ له جيش، وما أصيب له بعث، وما هلكت له سرية[2].

وقد أطلق عليه الجلاب لكثرة ما جلبه من الأسرى والغنائم. وقد شارك هؤلاء الصقالبة في دولة المنصور بن أبي عامر في أمور الجيش والدولة معًا، وأصبحوا بذلك عنصرًا هامًا لا يستغنى عنه، وبخاصة لما تمتع به بعضهم من دراية عالية بشؤون الحرب والحكم «كخيران ونبيل ومبارك ومظفر ومجاهد العامريين».

وليس غريبا، أن يتجه هؤلاء الفتيان الصقالبة إلى الأدب والعلم ينهلونه نهلاً، فسيدهم الذي ينتسبون إليه جواد عاقل عالم شاعر، ومن مشهور شعره فخره بنفسه حيث يقول:

رميتُ بنفسي هول كلِّ عظيمةٍ
وخاطرتُ والحرُّ الكريمُ يخاطرُ

وما صاحبي إلاّ جَنان مشيّع
وأسمرُ خطِّيٌّ وأبيضُ باترُ

فَسُدتُ بنفسي أهل كُلِّ سيادةٍ
وفاخرتُ حتى لم أجدْ مَنْ أُفاخرُ[3]

وقد أوردت المصادر الأندلسية بعض شعره الذي يمتاز بنفس قوي، ونفس أبية، وعزم صارم، وهمة طموحة، وهو إلى جانب ذلك محب للعلم والعلماء، مشجع للشعر والشعراء ومن أعظم المنشطين لحركة العلم والأدب وأهلهما، والساعين لنهضتهما وتقدمهما.

---

(١) مجاهد العامري ص٢٠.
(٢) انظر نفح الطيب ١/٤٠٠.
(٣) نفح الطيب ١/٤٠٠.

وقد نشطت الحركة الأدبية في عهده نشاطًا كبيرًا ولا سيما نشاط الوافدين إلى قرطبة من شتى البقاع الإسلامية، ولم يقتصر تشجيعه على العلماء، والأدباء، بل امتدت يده بالتثقيف إلى ما كان يسترقه من العبيد(١) ولهذا فقد ألفينا من هؤلاء الصقالبة مؤلفين وأدباء وعلماء، ذكر منهم ابن بسام:

حبيبًا الصقلبي الذي ألف كتابًا سماه «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة»، وذكر فتى آخر فقال: «كان لابن أبي عامر فتى يسمى فاتنًا، أوحد لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب، إلى أن يقول - وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المجابيب ممن أخذ من الأدب بأوفر نصيب(٢)».

ويذكر ابن بشكوال درّاجًا الفتى الصقلبي الذي كان من أهل الرواية والنسك والعناية، ورائقًا الذي كان له رحلة علمية، إلى المشرق، روى فيه عن أبي محمد بن عبدالله بن الحسن المطرز، وعاد إلى قرطبة، فحدث عنه أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام الحافظ، وأبو عثمان سعيد بن يوسف القلعي(٣)».

ونحن نتفق مع الدكتورة كليليا سارنللي بأن «الهوة السحيقة بين الظلام الدامس الذي كانت تعيش فيه شعوب أوروبا في العصور الوسطى حيث نشأ هؤلاء العبيد وبين الحضارة المزدهرة في بلاد الأندلس حيث سبوا، كانت سببًا في أن عقولهم تفتحت، وتنبهت أحاسيسهم نحو مختلف جوانب الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس، فنهلوا منها(٤)».

وإذا كان بحثنا يرتبط بأحد هؤلاء الفتيان الشجعان الذين استطاعوا - كما مرّ آنفًا - أن يصلوا إلى أعلى المراتب، وأن يبلغوا أعلى المناصب في السياسة والجيش، وتدبير أمور الدولة والإشراف على قصور الأمراء والحكام، فإن التوجه إلى الحديث عنه أولى لأنه نقطة البدء، وهو المؤسس الحقيقي لهذه المملكة النائية.

---

(١) مجاهد العامري ص٢١.
(٢) الذخيرة ق٤ م١ ص٣٤.
(٣) انظر الصلة ١/١٨٣، ١٨٥.
(٤) مجاهد العامري ص٥.

وإذا كان في بدء أمره قد ربط جزر البليار بدانية عاصمته، فإننا نجده يتوجه بكلية إلى هذه الجزر يحيطها من رعايته واهتمامه ما وسعه، ويعطيها من وقته وجهده الكثير.

فمن هو هذا الفتى الصقلبي؟ من هو هذا المجاهد المغامر الذي ظل لأكثر من ثلاثين سنة البحار المجاهد والفتى المرعب الذي أرعب ممالك جنوه وبيزه وسردينيا؟

من هو هذا الذي قاد عشرات المعارك البحرية واستولى فيها على الكثير من المناطق، حتى استطاع الوصول إلى إيطاليا واحتلال أراضيها، وإقامة مركز له فيها، وقد بلغ من كثرة الغنائم التي حصل عليها أن كسد السبي في زمنه؟

إنه المجاهد الفذ مجاهد العامري.

ولعلَّ من الأهمية بمكان أن نتحدث بنبذة سريعة عنه، تبين أصله ونشأته وجهاده وحياته.

أصل مجاهد ونشأته

اختلف في أصله وتحديد موطنه، ولعل اقتران إسمه بلفظ (رومي) وما تعنيه هذه الكلمة، وما تدل عليه، جعل الاختلاف بين مؤرخي العرب والغرب من المستشرقين يزداد حدة.

فعلام تدل لفظة (رومي)؟

هل تعني كل من كان نصرانياً ولم يتعرب كما يذكر الدكتور حسين مؤنس؟

أم أنها تعني الذين ينحدرون من آسيا الصغرى وجزر البلقان واليونان وإيطاليا؟ أم أنها تعني الذين هم من أصول إسبانية وظلوا على نصرانيتهم؟

الأستاذ محمد عبدالله عنان المتخصص بعمق في التاريخ الأندلسي، يرجح نسبة مجاهد العامري إلى الموالي، وليس إلى الفتيان الصقالبة كما تزعم بعض الروايات،

ويرجع ذلك إلى إسمه وكنيته، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن علي، ثم إلى شخصيته التي امتازت بعروبة قوية وتضلع في علوم القرآن واللغة[1].

ويرى الدكتور عصام سالم أنه إسباني الأصل[2] ويزداد هذا الخلاف اتساعًا عندما يقرر المستشرق (نيكل) انحدار مجاهد من أصل أفريقي.

وتنفي الدكتورة كليليا هذا الأمر لأن مجاهدًا من الصقالبة، والصقالبة ليسوا من أفريقيا كما هو معروف[3] وسواء أكان مجاهد من الموالي أو من الإسبان المولدين، أو من الصقالبة الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فما يهمنا هو مكانة مجاهد في الجهاد الإسلامي، وظهوره في ميدان الفتوح عبر البحر، وتتويجه ملكًا على دانية وجزائر البليار.

ولعل سبب الخلاف في أصل مجاهد يرجع إلى نشأته، فإن نشأة مملوك - بلا شك - لا يمكن أن تكون مثار انتباه المؤرخين كي يتناولوا هذه النشأة بالعناية والتدوين، لذا فإن نشأة مجاهد العامري بقيت غامضة، ولكننا نستطيع أن نقول: إنه نشأ كأي فتًى من هؤلاء الموالي أو الصقالبة الذين يخدمون في القصور، ولعل هذه الخدمة وجهت انتباهه إلى أمرين هامين كانا عماد المنصب ومدعاة الترقي والظهور، وهما:

العلم والفروسية:

فبلاط المنصور بن أبي عامر جمع هذين الأمرين فقد كانت قرطبة في وقته «قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام والأعلام، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب... ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات

---

(١) انظر دول الطوائف ١/١٨٤.
(٢) انظر مجلة العربي عدد ٣٣٦ ص١٠٦.
(٣) مجاهد العامري ص١٢٣ - ١٢٤.

الفائقة، والسبب تبريز القوم حديثًا وقديمًا على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط، إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب[1]».

وبلد هذه صفته، وصفة أهله لا بد أن من يحل به سوف يشرب قلبه حب العلم، وهذا ما حدث لمجاهد، فمكنه ذكاؤه في التحصيل وبخاصة في العلوم الشرعية واللغوية من الظهور على أقرانه «فقد تفوق على زملائه في التحصيل وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والقراءات السبع، واللغة العربية وآدابها، حتى أصبح عالمًا لا مثيل له في عهده[2]».

ويؤكد هذا الأمر ابن الخطيب، فيميزه من ملوك عصره فيقول: «كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل من أشفها: العلم والمعرفة اللذان لم يكن في الأحرار، ولا في الموالي أثبت قدمًا منه فيهما[3].

ويقول صاحب البيان المغرب: «وكان ذا نباهة ورياسة، زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب[4]».

من كل هذا يتبين لنا أن مجاهدًا استطاع أن يحرز نصيبًا وافرًا في ميادين العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، وقد مكنه هذا التحصيل في هذين الجانبين من الظهور على أقرانه.

أما الجانب الآخر، وهو جانب الفروسية، فهو يتمثل في أوضح صوره في شخصية القائد المظفر بن أبي عامر، ذلك القائد الفذ الذي كفّ أيدي النصارى والثائرين بحروبه المظفرة التي ذكرها ابن حيان في المقتبس، وقد دعاه إعجابه لإفراد تأليف خاصٍ عن هذا القائد، ولا شك أنه كان يعتني بتخريج مماليكه وفتيانه تخريجا عسكريًا.

---

(١) نفح الطيب ١/٤٦٠ – ٤٦١.
(٢) البيان المغرب ص١٥٥ – ١٥٦.
(٣) أعمال الأعلام ص٢٥٠.
(٤) البيان المغرب ٣/١٥٥.

وفعلاً فقد تخرج مجاهد من هذه الكلية العسكرية، وقد أحاط بصنوف التدريب على الفروسية، ومرن على أساليب القتال، فاستحق ما ذكره ابن الخطيب عنه حيث قال:

فلم يكن في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولياقة ورواءً وهيبة وحسن عمل في السلاح وتقليبًا له[1] وبهذا اجتمعت له خصلتان العلم والفروسية، وقد ظهرت فيه شخصية المحارب الفذ، والسياسي المحنك، وتبدى كل ذلك في خوضه الحروب، وتأسيس مملكته في دانية وجزر البليار، وفتح سردانية، وخوض المعارك البحرية ضد ممالك إيطاليا.

ومن يتتبع مراحل كفاحه يتبين أنه كان من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، وكانت له همة وجلادة وجرأة[2].

ولا شك أن مجاهدًا العامري لم يكن ليستتم شخصية القائد لكونه عسكريّاً ناجحا أو إداريّاً بارعًا، إذ لا بد له في ذلك الوقت إلى جانب هذا كله من أن يكون أديبًا مطلعا وعالمًا متمكنًا.

وقد تمكن من هذا كله، فقد جمع إلى جانب العسكرية البرية عسكرية بحرية مكنته من خوض حروب عديدة خرج منها منتصرًا، وهذا الجانب العسكري في حياته عزز بجانب سياسي إداري، وهذان الجانبان لم يشغلاه عن فتح بلاطه للعلماء والأدباء، وعن دفعه الحركة العلمية والأدبية وتشجيعها، وبالجملة نقول كما قالت الدكتورة كليليا: إن مجاهدًا قد جمع في يده السيف والقلم[3].

وإذا كان المؤرخون العرب قد أثنوا عليه بصفاته العسكرية والسياسية والعلمية والأدبية، فإنَّ كتب التاريخ اللاتينية تنقض بعض هذه الصفات، فهي تصفه: «بأنه كان قرصانًا مرعبًا، ومؤسس مستعمرة لقطاع الطرق في سردانية، ويقولون أيضًا: إنه مارس القرصنة في البحر المتوسط، زهاء خمسين عامًا، وإنه قد حبس مرارًا، وادعى كثير من القواد المسيحيين أنه قد نجح في قتله[4].

(١) أعمال الأعلام ٢٥٠.
(٢) انظر في ذلك بغية الملتمس ٤٥٧ وجذوة المقتبس ٣١١ والبيان المغرب ٣/١٥٥ ومعجم الأدباء ١٧/٨٠.
(٣) انظر مجاهد العامري، المقدمة.
(٤) المصدر نفسه ص١٣٢-١٣٣.

ولا شك أننا نتفق مع الدكتورة كليليا بأن الحرب هي الحرب، وأنها تعني الفتك والتدمير، ومن يوصف بالشجاعة وحسن التدبير في جانب، فإنه يوصف بالقسوة والمكر والخديعة في الجانب الآخر.

ومع ذلك فإن كتب التاريخ العربية وكتب التراجم أيضًا كتبت له صفحات متناقضة، ويبدو أنه لم يكن يتسامح مع من يحاول المساس بملكه أو حتى يخالفه، ولعل له عذرًا في ذلك، فالعصر وما ساده من اضطراب شجع على الدسائس والمكر والخديعة والغدر ونقض العهود، فالتوجس والحذر والشك والريبة كل ذلك كان مسؤولاً عن تلك القسوة المفرطة أحيانا في حق المناوئين، فهو مثلاً يملأ بلاطه بالعلماء الأدباء، ويغدق عليهم، ويقف في وجه الإفرنج سدّاً منيعًا، ويغزو ممالكهم،ويفتح سردانية، ومع ذلك يسوس أهل جزر البليار سياسة عنيفة كما يقول ابن الخطيب: «وكان شديد الوطأة على رعيته، سام أهل الجزائر الخسف، فسطا بوجوههم ورؤسائهم وألزم قلوبهم الرعب لما خافهم على دولته[1]».

ومن هذه الصفات المتناقضة تديُّنه فهو ناسك متعبد تارة، وأخرى خليع ماجن، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «وأكثر التخليط في ذات أمره، فطورًا ناسك.... وتارة لا يأنس بشيء من الجد، ولا يعرف غير البطالة واللهو[2]».

مجاهد وجزر البليار:

كان الموالي يتولون إلى جانب تلك المناصب الرفيعة في القصر والجيش حكم بعض مقاطعات الدولة، وهذا ما حدث لمجاهد فقد «انتزى هذا الرجل مجاهد على مدينة دانية في أول هذه الفتنة، وكان من فحول فتيان بني عامر، قدمه المنصور بن أبي عامر عليها، كان عند وقوع هذه الفتنة مقدمًا على هذه الجزائر الثلاث، فلما صح عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها المنضافة إليها، وتسمى بالموفق بالله، وكتب بهذا اللقب عن نفسه، وكتب له به... وقصد هذه الجزائر ميورقة ومنورقة،

(١) أعمال الأعلام ٢٥٠ - ٢٥١.
(٢) المصدر نفسه ٢١٧ - ٢١٩ وانظر الذخيرة ق٣ م١ ص٢٣.

ويابسة، فانتزى على جميعها لنفسه، وتغلب عليها، وحماها من المشركين، وغزا منها جزيرة سردانية فغلب على كثير منها[1]».

ولموقع دانية البحري السبب في توجه نظر مجاهد إلى البحر، ولذلك عمل على تقوية قواته البحرية بتجهيزها بأسطول ضخم، وتلقب بأبي الجيش وتسمى بعد سيطرته على هذه الجزر بذي الوزارتين[2].

ولعل موقع هذه الجزر في البحر قبالة الساحل الشرقي للأندلس ومواجهتها للروم إلى جانب مياهها الصالحة لرسو السفن، ما جعل مجاهدًا يستقر بها، ويفضلها على دانية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد، وبها كانت مرافئ معظم أساطيله، لأن مياه دانية لا تصلح لرسو السفن الكبيرة[3]».

وعلى الرغم من استقلال مجاهد بدانية وجزر البليار، إلا أنه ظل يحكم باسم الخليفة، ويبدو لي أن السبب في ذلك يرجع إلى كونه صقلبيًا أو من الموالي، بخلاف الذين استقلوا في ولاياتهم وتسموا بالملوك، أمثال المعتضد بن عباد في إشبيلية، وبني جهور في قرطبة، فهؤلاء كانوا عربًا في أنسابهم، فلم يحسوا ما أحس به مجاهد من حاجة إلى من يستند عليه في حكمه من الناحية الشكلية على الأقل، لذلك فإنه عندما علم بمقتل الخليفة هشام الثاني في غزو البربر لقرطبة وتنصيب سليمان المستعين خليفة جديدًا، ولما بين مجاهد والبربر من عداء، رفض الاعتراف بالخليفة الجديد، واستغل فرصة هرب الفقيه أبي عبدالرحمن بن عبدالله المعيطي فنصبه خليفة، وسماه أمير المؤمنين المنتصر بالله[4].

---

(١) البيان المغرب ٣/٥٥.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٢١٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٧.

(٤) انظر البيان المغرب ٣/١١٥ – ١١٦ وأعمال الأعلام ٢٢٠ والمعيطي هذا هو أحد أشراف قرطبة وفقهائها، وعنه قال لسان الدين ابن الخطيب: «أحد من أزعجته الفتنة من رجال الأشراف بقرطبة، وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها، فنصبه خليفة، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورقة وغيرها، وسماه المنتصر بالله، وأثبت اسمه في سكّته وفي أعماله، وذلك في أول سنة (٤٠٥هـ) وخلفه بدار ملكه، فلما عاد منكويًا من غزواته بسردانية ألفاه وقد استبد، وداخل الناس، وعمل على إبادته، فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل وهو ذاهل عنه، وهجم عليه، وأقامه في مجلسه، وقبض عليه وعلى من شايعه من أصحابه، وتسلم منه سلطانه، وعاتبه في سوء على ما كافأه به، وعدد عليه يده، فاعترف ا. بهمومه به، وقال: =

وبعد خمسة أشهر من مبايعته الخليفة، توجه مجاهد مع المعيطي إلى جزر البليار، وكان ذلك عام (٤٠٥هـ - ١٠١٤م).

ووفق في احتلال الجزر الثلاث، وبعد أن رتب أمر الجزر، ترك المعيطي وجزءًا من جيشه في هذه الجزر، وتوجه هو ببقية جيشه لغزو سردانية، ويبدو أن المعيطي أو الخليفة الجديد أحس بإمكانية عدم رجوع مجاهد بعد أن طالت غيبته في بلاد الروم، فأعلن استقلاله بالجزر ودانية ويظهر أن أهل جزيرة ميورقة منعوه من تحقيق هدفه[1] وعند عودة مجاهد تم طرد المعيطي، واستقل بدانية والجزر استقلالاً تامًا عام (٤١٣هـ).

وتجد الدكتورة كليليا حيرة في تفسير هذا الاستقلال المتأخر، مع أن مجاهدا كان قد أعلن استقلاله بدانية قبل ذلك بعشر سنوات.

ولا مشكلة في تفسير ذلك، فمجاهد على الرغم من استقلاله بدانية، إلا أنه كان يحكم باسم الخليفة المعيطي الذي بايعه على الجزائر ودانية عام (٤٠٥ هـ) وتفرغ هو لغزو سردانية، وبعد أن حدث ما حدث من المعيطي الذي عينه، تم طرده ليعلن مجاهد بذلك استقلالاً تامًا، ويصبح ملكًا من ملوك الطوائف في الأندلس.

وبهذا الاستقلال أصبحت هذه الجزائر الثلاث تابعة في حكمها لدانية لا لمركز الخلافة كما كان في السابق، وضم إليها مؤقتًا جزيرة سردانية، فقد كانت هذه الجزيرة تقع في دائرة اهتمامات مجاهد، وبخاصة وهو يوجه غزواته البحرية من ميورقة، فاقتحمها في مائة وعشرين مركبًا، حمل فيها ألف فارس، ففتح أرضًا جليلة،وضرب على بعض ملوكها الجزية، وتجاوز حده، فاختط مدينة واسعة شرع في بنائها، وانتقل إليها بأهله وولده، بعد أن غنم وسبى ما لا يأخذه الحصر، إلى أن كسد في زمانه السبي، وخسَّت فيه الأثمان[2]».

= بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس، والاستئثار بالفيء، والمجاهرة بالمعاصي فلم يسعني انتظارك، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد، وعلى ذلك بايعتني، ولا هوادة لك عندي، فاحتمله وصيره في البحر إلى أرض العدوة، فأنزله ببجاية، واستقر عند البرابرة معلمًا لصبيانهم لا يرفع رأسه إلى الدنيا، وطاولته هناك الحياة إلى أن هلك بعد مدة، أعمال الأعلام ٢٢٠.

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤ ومجاهد العامري ١٨٨-١٨٩.

(٢) أعمال الأعلام ٢١٩.

ويبدو أن هذا الخطأ الذي ارتكبه مجاهد في تعجله في الانتقال إلى مقره الجديد في دار العدو بل في عقر بيته، كان السبب في القضاء على طموح مجاهد العامري، وهو خطأ عسكري ما كان لقائد بري وبحري مثل مجاهد ليقع فيه، لولا ما يصيب النفس من غرور وعدم تقدير للعواقب، وفي ذلك يقول ابن بسام: «وغلبت الروم في بعض سلطانه على جزيرة سردانية التي كانت من فتوحه قبل، ففلت شباته، ونهنهت شذاته[1]» ويفصل ذلك ابن الخطيب حيث يقول: «وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة واستجاشوا، وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محله، والقفول إلى دار ملكه بدانية وميورقة، فأعجله العدو عن ذلك، وقطع به، فكانت عليه وقيعة شنيعة، وظهور ما سمع بمثله، فقتل من – جنوده وأصحابه عالم لا يحصى، وملكوا أسطوله، واستنقذوه، واستولوا على حريمه وفيهم نساؤه وبناته وعليّ ولده وَجُود أُمّةُ النصرانية[2]».

علي بن مجاهد:

أسره الروم عندما استولوا على جزيرة سردانية التي كانت من أملاك والده، وكان وقتئذٍ طفلاً صغيرًا فنشأ على أيديهم، وحاول والده فكاكه من الأسر بدفع عشرة آلاف، فأعياه ذلك، ولم يقبل آسروه الفدية، ثم افتكه أحد أمراء بني مناد آل حماد.

ويبدو أن فترة أسره أصابت همته، وغيرت من حميته، وفي ذلك يقول ابن بسام عندما غزا الروم سردانية وأسرت ابنه علياً هذا، فنشأ علجًا متجهمًا، وأعجمًا طمطمًا، إلى ان افتكه أحد آل حماد من أمراء بني مناد... فلما خفق عَلَمهُ، وتمكن في مقام أبيه قدمُه، ألقى السلم، وأغمد السيف، وشام القلم، همته كانت في خراج يَجْبِيه لا في معقل يَجْتَبيه، وَهمُّه المتجر ينميه لا المفخر يحميه، أصَبُّ خلق الله، بلبوسٍ ومطعم، وأصْبَاهُ إلى دينار ودرهم[3].

---

(1) الذخيرة ق٤ م١ ص٢٦٥.

(2) أعمال الأعلام ٢١٦.

(3) الجزيرة ق٣ م١ ص٢٦٥.

ويخالف عبدالواحد المراكشي قول ابن بسام هذا فيثني عليه فيقول: «ثم ملكها - أي دانيه والجزائر - بعده ابنه علي بن مجاهد، وتلقب بالموفق، لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس، أصون منه نفسًا، ولا أطهر عرضًا، ولا أنقى ساحة، كان لا يشرب الخمر، ولا يقرب من يشربها، وكان مؤثرًا للعلوم الشرعية مكرمًا لأهلها[1]».

ويؤكد ابن خلدون على عناية علي بن مجاهد وسهره على شؤون الحكم فيقول: «وكان علي يولي شؤون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائما أنها أهم أقسام مملكته، وكان حاكمها وقت ولاية علي هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان قد ولي حكمها سنة (٤٢٨هـ) وكان جنديًا وبحارًا مجريًا، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطئ النصرانية في قطلونية وبروفانس[2]».

ولما توفي مجاهد استأذن الأغلب عليا بعد ولايته بقليل أن يسير إلى الحج، فأذن له، وندب لحكم الجزائر صهره، سليمان بن مشكيان، فاستمر في حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته سنة (٤٤٢-١٠٥٠) فولى علي مكانه عبدالله المرتضَى فحكمها مدة طويلة[3]».

وقد اتصف «علي إقبال الدولة» بصفات الهدوء وحب العلم والسلم، ومد يد العون للمحتاجين، ويروى في ذلك أنه أرسل إلى مصر في عام المجاعة مركبًا ضخمًا مملوءاً طعامًا[4]، لعل في ذلك وفي ما ورد من تسامحه مع النصارى هو الذي حمل ابن بسام على أن يقول فيه ما قال، ويرد الأستاذ محمد عبدالله عنان ذلك إلى «ظروف حياته» وإلى نشأته خلال أسره الطويل بين نصارى سردانية، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام[5]».

---

(١) المعجب ٤١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤.
(٣) انظر دول الطوائف ق١ ص١٩٧.
(٤) انظر أعمال الأعلام ٢٢١.
(٥) دول الطوائف ق١ ص١٩٨.

وقد أثبت هذا التسامح نحو النصارى في وثيقتين،: كانت الأولى تنص على وضع جميع الكنائس وأماكن العبادة للنصارى تحت رعاية أسقف برشلونة، والثانية شهادة من علي إقبال الدولة لغلبرت أسقف برشلونة على أن يكون مذكورًا في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله[1] ويبدو أن عليًا تعرض للاغتيال بمؤامرة دبرها له أخوه الأصغر حسن بن مجاهد الذي كان ولي عهد أبيه، وبعد عودة علي بدا لمجاهد أن ينقل ولاية العهد لما رآه من مخايل النباهة والشجاعة في علي، وكان لذلك أشد الأثر في نفس أخيه الذي حسده، وحقد عليه، فدبر أمر قتله، ولكنه لم ينجح وفر هاربًا، وبذلك استقر الأمر لعلي الذي طالت مدة حكمه، وكان على علاقات وثيقة مع ملوك الطوائف، نتيجة لمصاهرته إياهم، فبناته كما يقول لسان الدين بن الخطيب كنَّ آيات في الجمال[2].

ولكن هذه المصاهرة لم تشفع له عند صهره ابن هود الذي حاصر بلاده دانية، وظل محاصرًا لها إلى أن اتفقا على ان يسلم علي لصهره ابن هود كل شيء، وله أن يسلمه في نفسه وولده، وينزل له عن القصر تاركًا إياه بفرشه وزينته، فكان ذلك سنة (٤٦٨هـ) ثم نقله إلى سرقسطة وأقطعه إقطاعًا يمونه، ويقيم أوده فكان آخر العهد به[3].

جزر البليار مملكة مستقلة:

مهما قيل في أسباب الهجوم على دانية: كإيواء علي لبعض الأسر التي فرت من (لاردة) على إثر محاولة احتلال من قبل ابن هود، أو كما ذكر ابن بسام من أن المقتدر بن هود كان قد طلب بعض القلاع من علي، فسلمها له خشية من سطوته، ولكنه أرسل سرًا، إلى أهل تلك القلاع يحضهم على التحصن والمقاومة، فعلم ابن هود فاحتل دانية[4].

نقول: مهما كانت الأسباب فالحروب في عهد ملوك الطوائف لم تكن بحاجة إلى أسباب، فالغزو والاحتلال ونقض العهود، وانتقال الحلفاء وتغيرهم، كل ذلك كان من سمات ذلك العصر المختل سياسيًا.

---

(١) انظر دول الطوائف ق١ ص١٩٩.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٢٢١.

(٣) انظر المصدر نفسه ٢٢٢.

(٤) انظر الذخيرة ق٤ م١ ص٢٠٧.

ومـا يهمنا في هذا البحث أن هذه الحادثة التي جرت على دانية عـام (٤٦٨هـ) كانت بداية انفصال هذه الجزر التي ظلت تابعة لدانية في حكمها، وبهذا الانفصال أصبحت جزر البليار وعاصمتها ميورقة دولة جديدة من دول ملوك الطوائف، وصارت تحكم حكمًا مستقلاً.

وكان على حكم هذه الجزائر عبدالله المرتضَى الوالي من قبل علي بن مجاهد الذي ما أن علم بسقوط دانية، وتسليم علي لابن هود حتى أعلن استقلاله، بحكم الجزائر، وظل يحكمها فترة طويلة تزيد عن الأربعين سنة حتى وفاته سنة (٤٨٦هـ- ١٠٩٣م)[1] وخلفه بعد وفاته مولاه مبشر نصير الدولة الذي ظل يحكمها حتى عام (٥٠٨هـ).

السقوط الأول لميورقة:

وهو عام سقوط الجزيرة بيد حاكم برشلونة (رامون الثالث) وإذا كانت الجزائر الشرقية، قد نعمت بشيء من الاستقرار في حكم مجاهد وابنه علي، ثم بعد استقلالها في زمن عبدالله المرتضى، وبداية حكم سليمان بن مبشر، فإن دولة الإسلام في الأندلس عمومًا قد أصيبت في الصميم بجرح بالغ ظل ينزف على الأيام طوال سيطرة ملوك الطوائف حيث انفصمت وحدة الأندلس وتقطع جسدها إلى مقاطعات ودويلات كثرت بينها المشاحنات والفتن والحروب، مما سبب التصدع والتشتت والتفرق والضعف، وظهرت الأطماع فيما بينها، فكثرت الغارات والتقاتل والتحاسد والتنافس، وأدى ذلك كله إلى الاستعانة بالعدو الذي كان يرقب الأمر، وينتظر الفرصة السانحة للسيطرة على هذه البلاد.

ولم تكن جزر البليار بمنأى عن تلك الأطماع، وبخاصة أطماع جمهورية بيزة الإيطالية التي كانت تحس بأهمية الاستيلاء على هذه الجزر لعدة أسباب:

- أولاً: لأهميتها البحرية.

---

(١) انظر في ذلك أعمال الأعلام ٢٢٢ والدول الإسلامية ق١ ص٦٢ وتاريخ البحرية الإسلامية ٢/٢٤٣.

- ثانيًا: لتضع حدًا لغاراتها المتكررة على الموانئ الإيطالية، وما غزو مجاهد لسردانية ببعيد عن أذهانهم.

- ثالثا: تشجيع البابا ومباركته لخطة غزو هذه الجزر وفي ذلك يقول محمد عبدالله عنان: «وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتمامًا بالاستيلاء على الجزائر الشرقية، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطئ الإيطالية، وكان البابا يُشجع هذا المشروع ويباركه، وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفًا مع أمير برشلونة (رامون برنجير الثالث).

وفي صيف سنة (١١١٤م – ٥٠٨هـ) خرج من مياه بيزة أسطول الغزو... ولما علم بذلك مبشر بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة، ويعرض تسليم الأسرى، وسارت سفنهم، فرست في مياه قطلونية حتى اقترب الربيع، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة، وكانت سفن الغزاة قد غدت يومئذٍ نحو خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة، فحصن ميورقة، وبذل جهده في إعداد وسائل الدفاع، واستولى الغزاة على يابسة بسهولة، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ونزلوا فيها وضربوا الحصار حولها، واستعد مبشر لحصار طويل الأمد، وبعث في الحال صريخه إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر في أيدي النصارى، وكان المرابطون قد استولوا عندئذٍ على شرقي الأندلس كله، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين في موقعة إقليش (٥٠١هـ – ١١٠٨م) ثم استولوا في العام التالي على سرقسطة (٥٠٢هـ) وقضوا على ملك بني هود، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية، وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجادها... ورأى المرابطون أن يضغطوا في نفس الوقت على مملكة برشلونة التي كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله في حصار ميورقة، فسارت قواتهم شمالاً، واخترقت أراضي قطلونيا، وعاثت فيها، ولكن الكونت برنجير اضطر إزاء ضغط حلفائه أن يبقى معهم حتى النهاية في مياه ميورقة، واشتد الحصار على ميورقة، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة، وقطعوا عنها كل معونة

ونجدة، وقاسى المسلمون أهوالاً من الجوع والحرمان، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعًا عن أرضهم، وتوفي خلال ذلك الأمير مبشر بن سليمان، فخلفه في الحكم أبو الربيع سليمان[1].

لم يجد تصميم أبوالربيع على المقاومة، وعندما أحس بأن الموقف قد تدهور ولم يعد في مقدوره فعل شيء، حاول مغادرة الجزيرة في مركب صغير لطلب النجدة من المرابطين، فتم أسره، واستطاع النصارى اقتحام الأسوار، ودخول المدينة في أواخر مارس سنة (١١١٦م – أواخر سنة ٥٠٨هـ) وفعلوا بأهلها الأفاعيل.

البليار في حوزة المرابطين:

وصلت إشارة الغوث على يد عبدالله بن ميمون ذلك البحار الذي استطاع أن يخترق الحصار بسفينته، وأن يصل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، الذي بادر بتجهيز أسطول مكون من خمسمائة سفينة وانطلقت هذه السفن صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش، ولما علم البيزيون وحلفاؤهم من برشلونة وغيرها مسيرة هذه القوات، وأدركوا أن لا طاقة لهم بمقاتلتها فروا بعد أن نهبوا المدينة.

وكان دخول المرابطين لميورقة في أواخر سنة (١١١٦م – ٥٠٩هـ) فعمروها، وأمنوا أهلها، ثم عين عليها وانور بن أبي بكر اللمتوني حاكمًا، وبهذا دخلت الجزائر الشرقية حقبة جديدة، وأصبحت ولاية من ولايات الامبراطورية المرابطية[2] وظلوا يحكمونها حوالي نصف قرن، إذ دخلوها عام (٥٠٩هـ) حتى عام (٥٤١هـ– ١١٤٦م) وبدأ الولاة يحكمونها باسم المرابطين، حتى عام (٥٢٠هـ) حيث وليها محمد بن علي غانية المسوفي مؤسس أسرة بني غانية.

استقلال البليار مرة أخرى ودولة بني غانية:

إذا كان عام (٥٤٢هـ) هو نهاية المرابطين بقتل أميرهم إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وصعود نجم الموحدين الذين بدأوا يستخلصون ولايات الدولة المرابطية، فإنَّ

---

(١) أمراء الطوائف ق١ ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر دول الطوائف ق١ ص٢٠٣-٢٠٤ وانظر تاريخ البحرية الإسلامية ٢/٢٤٣.

الأندلس بدأت تنضوي تحت اللواء الموحدي، وما أتى عام ٥٦٧هـ حتى أصبحت معظم الأندلس في قبضتهم عدا جزائر ميورقة ومنورقة، ويابسة حيث ظلت هذه الجزائر مستقلة استقلالاً تامًا تحت حكم محمد بن علي بن غانية[1] أول ولاتهم، وقد جعل الدعاء فيها لبني العباس إظهارًا لهذا الاستقلال عن الموحدين، إلاّ أن منورقة ويابسة دخلتا في طاعة الموحدين، وبقيت ميورقة، وتتابع ولاة بني غانية عليها، وأصبحت دولة مستقلة، تأثلت وقويت، وامتدت أطماعها إلى أملاك الموحدين، فاستطاعت أن تمد حكمها إلى أفريقيا، وتسيطر على كثير من أجزائها، ولم تكتف بذلك، وإنما وجهت ضربات موجعة إلى فرنسا، وعادت هذه الدولة - كما كانت في عهد مجاهد - تثير الخوف والهلع في نفوس الإفرنج، على الرغم من علاقاتها الخاصة مع بعض الدول النصرانية، مما جعل الكثير من هذه الدول تهادن بني غانية، وتعقد معهم معاهدات سلم.

وبهذا ازدهرت هذه الدولة، وطمع حاكمها في توسيع رقعة دولته، وبدل أن يوجه بصره نحو ممالك النصرانية لإضعافها، وإشغالها عن أطراف الدولة الإسلامية في الأندلس وأفريقيا، صوب نظره نحو الموحدين ودولتهم، وعزم أمره على مهاجمة بلاد المسلمين في أفريقيا التي كانت تحت حكم الموحدين، وهكذا كان، فقد توجه يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي[2]، إلى أفريقيا سنة (٥٨٠هـ) وبدأ بالاستيلاء على العديد من موانئها ومراكزها، فانتزع في معارك دامية طرابلس وقابس وبلاد الجريد، وقفصة والمهدية والقيروان، وباجة وبسكرة، وفي ذلك يقول محمد عبدالله عنان: «وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقي حكمه على سائر أفريقيا ما عدا شاطئها الشمالي، واستولى على سائر قواعدها... ووصلت دعوته إلى بونة، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة، وقد أصبحت كلها في خطر السقوط[3]».

---

(١) انظر تفاصيل هذه الدولة في رحلة التيجاني ص٣٥٢ وتاريخ ابن خلدون ١٩٤/٦ والبيان المغرب ٢١٤/٣ والمعجب ١٧٩ وعصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٢٥٧ والروض المعطار ٥٦٧.

(٢) ظل يحكم البليار حتى سقوط ميورقة بيد الموحدين عام (٥٩٩هـ) واستمرت دولته في أفريقيا حتى انتصر عليه عبدالله بن يعقوب امير الموحدين، وتوفي يحيى شريدا ببرية تلمسان عام (٦٣٣هـ) انظر ترجمته في تاريخ ابن خلدون ١٩٥/٦ والبيان المغرب ٢١٤/٣ والمعجب ١٧٩ وتحفة القادم ١٠٢ والإحاطة ٣١١/١ وعصر المرابطين والموحدين ٢٥١/٢ والأعلام ١٢٧/٨.

(٣) عصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٢٥٤.

كان هذا الخطر المحدق بدولة الموحدين من قبل هذا الميورقي المغامر مصدر قلق شديد فتفاقم أمره، واستمرار عدوانه، ومقاتله العظيمة، وفشل الحملات التي وجهت إليه كل ذلك جعل الخليفة الموحدي الناصر يعزم على فتح جزر البليار لاستئصال شأفة هذا الثائر الميورقي، إذ رأى أنه لن يتم القضاء عليه إلا باحتلال مركز الثائر في ميورقة، فهي موطن قوته، ومصدر إمداداته.

ولكن هذه الجزيرة التي كان يتولاها ليحيى أخوه عبدالله بن غانية، كانت تنعم بازدهار سياسي واقتصادي، فقد حكمها عبدالله منذ عام (٥٨٤هـ - ١١٨٨م) وسار على سياسة والده وأخيه في مهادنة الدول النصرانية ومسالمتها، وعقد معاهدات الصداقة والتجارة والصلات الودية، فقد عقد «مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عامًا... وكان التجار النصارى في الجزيرة يعيشون في دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم[١]».

وقد كانت هذه العلاقة تبعث الرضا في نفوس النصارى، إذ مكنت هذه المعاهدات لازدهار أمني وتجاري، ومكنت تلك الممالك من التفرغ للاستعداد لمواجهات في جهات أخرى من بلاد المسلمين في الأندلس.

ويبدو أن استعدادات الخليفة الناصر قد نميت إلى عبدالله بن غانية الميورقي، أو أنه أحس بعزم الموحدين على فتح ميورقة، فبادرهم بمحاولة منه لاحتلال يابسة - إذ كانت منورقة ويابسة لا تزالان تحت سيطرة الموحدين - اللتان فشل في انتزاعهما من والي الموحدين ابن ميمون، فتوجه إلى منورقة، واستطاع السيطرة عليها، وولى عليها واليا من قبله هو الزبير بن نجاح[٢]».

ويبدو أن خليفة الموحدين الناصر وأعوانه كانوا ينظرون إلى الأمر بعين الجد، لذلك جهزوا حملة بحرية عظيمة، توجهت إلى ميورقة واحتلت مرساها، وحاصرها الجند، وخرجت جموع ابن غانية واشتبكت مع الموحدين في معركة يائسة مدة سبعة أيام، حيث انتهت بسقوط الجزيرة، بأيدي الموحدين[٣].

(١) عصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٢٥٨.
(٢) انظر المعجب ٣١٧ والروض المعطار ١٨٩ والبيان المغرب ٢٥٩.
(٣) انظر في ذلك تاريخ البحرية الإسلامية ٢/ ٢٧٠ - ٢٨١.

ميورقة في عهد الموحدين:

بدأت جزيرة ميورقة منذ عام (٥٩٩هـ - ١٢٠٢م) عهدًا جديدًا، وبدأ ولاة الموحدين يتولون أعمالها.

وكان أولهم هو عبدالله بن طاع الله الكومي، ثم وليها عم الخليفة الناصر السيد أبو زيد بن أبي يعقوب يوسف.

وبهذا الفتح تم القضاء على سلطان بني غانية في الجزائر وأفريقيا، إلى جانب أنه سبب إزعاجًا وقلقًا شديدين للدول النصرانية المتاخمة، والتي كانت مرتاحة لحكم بني غانية، فهي مطمئنة للمعاهدات الموقعة بينهما، إلى جانب أن هذه المملكة كانت شوكة في جنب الموحدين في أفريقيا، والقضاء عليها معناه مواجهة دولة ضخمة قد تمنعهم من تحقيق أحلامهم التي يصبون إليها في جعل هذه الجزر مستقبلاً تحت يدهم، ويظهر ذلك من رسالة الفتح التي تقول: «ولأخذ ميورقة على صاحب أراغون وبرشلونة، أشد من رشق النبل، وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات[1]».

السقوط الأخير:

وبهذا الخطر الموحدي الجديد الذي امتد من المغرب إلى الأندلس إلى الجزائر الشرقية، بدأت الممالك النصرانية تعد العدة، بأشد مما كانت عليه للسيطرة على هذه الجزر، وبخاصة أراجون وبرشلونة وبيزة وجنوه وفرنسا، حيث كانت تعاني هذه الدول من هجمات بني غانية، وبهذا الفتح الموحدي الجديد، وهذا الخطر المحتمل، بدأت هذه الممالك تفكر جديًا باحتلال هذه الجزر، وكانت الفكرة عند مملكة أراجون التي كانت تسيطر على أجزاء من شرقي الأندلس، وكان تحقيق هذه الأمنية يقترب شيئًا فشيئًا مع تزايد الاختلافات بين المسلمين، وانهيار سلطان الموحدين في الأندلس التي اضطرمت بالفتنة، وبدأت تميد تحت أقدام الموحدين.

---

(٣) عصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٢٦١.

ولا يعنينا ذلك السبب الذي ذكره المقري نقلاً عن المخزومي في تاريخ ميورقة حيث يقول: «إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها، ووليها سنة (٦٠٦هـ) واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية، فعلم بها والي طرطوشة فجهز إليها من أخذها، فعظُم ذلك على الوالي، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم... فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة، ووجد فيه لأهل جنوة مركبًا كبيرًا فأخذه[١]». قد يكون هذا سببًا ظاهرياً أما الأسباب الكامنة فعديدة كما ذكرنا آنفًا، وهي التي شجعت خايمي الأول ملك أراغون على تجهيز حملة كبيرة من السفن الحربية والفرسان، توجهت نحو خليج بالما الذي تقع عليه جزيرة ميورقة، فعلم والي الجزيرة، وهو أبو يحيى بن أبي عمران، فحشد الحشود، ولكن مؤامرة حدثت لخلعه جعلته يتصرف بعصبية ويقتل بعض الأعيان، مما قضى على الروح المعنوية لدى الجنود والسكان معًا.

واستطاعت الحشود النصرانية بعد معارك دامية أن تفتح الجزيرة على جثث القتلى من المسلمين، وتقدر الرواية الإسلامية من قتل من المسلمين خلال هذه المعركة الدموية بأربعة وعشرين ألفا[٢]، وفر منهم إلى الجبال نحو ثلاثين ألفًا، وأسر الوالي أبو يحيى وولده، واستولى النصارى على ميورقة في مناظر مروعة من سفك الدماء، وكان استيلاؤهم عليها في يوم الإثنين ١٣ صفر من سنة ٦٢٧هـ الموافق ٣١ ديسمبر سنة ١٢٢٩م[٣]».

ولكن هذا السقوط لم يمنع أحد الأعيان وهو أبو حفص بن سيري من الخروج إلى الجبال هو وأعداد كبيرة من المسلمين الذين اعتزموا المقاومة، وقد استمروا في جهادهم المستميت مدة عام كامل، حيث تم قتل ابن سيري، واستولى النصارى على ما تبقى من حصون وقلاع هذه الجزيرة[٤]».

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٧١.

(٢) نفح الطيب ١/٥٨٥.

(٣) انظر عصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٤٠٦ -٤٠٧.

(٤) انظر نفح الطيب ٤/٤٧١.

وبذلك سقطت أم الجزائر تلك الجزيرة الغنية الزاهرة بعد أن ظلت تنعم بحكم المسلمين طوال خمسة قرون.

وكان سقوط باقي الجزائر هو تحصيل حاصل، ولا يحتاج إلا لبعض الوقت، فجزيرة يابسة على الرغم من التضحيات التي قدمتها على مدى خمسة أشهر في الدفاع ضد المعتدين الأرغوانيين إلا أنها لم تستطع الصمود ومواصلة المقاومة في قتال غير متكافئ فأعلنت استسلامها سنة (٦٣٣هـ - ١٢٣٥م).

أما تلك الجزيرة الخالية فرمنتيرا فلم يكن بها أحد من المسلمين حيث تم الاستيلاء عليها أيضًا.

ولم يبق في حوزة المسلمين سوى جزيرة منورقة ثاني هذه الجزر أهمية وحجمًا، وقد استمرت تحكم من قبل المسلمين كدولة صغيرة، تحت حكم أبي عثمان سعيد بن الحكم، وفي ذلك يقول المقري: «ولما استولى النصارى على ميورقة في التاريخ المتقدم، ثار بجزيرة منورقة... الجواد العادل أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي، وكان واليها من قبل الوالي أبي يحيى المقتول في ميورقة بعد احتلالها، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى، وضبطها أحسن ضبط[1]». واستمر في حكمها ما يقارب نصف قرن إلى أن توفي سنة (٦٨٠هـ-١٢٨١م) فخلفه ابنه أبو عمر حكم بن سعيد، الذي نهج نهج أبيه في عدله وإيثاره العلماء والأدباء.

ويبدو أن صبر النصارى قد نفد، فقرروا استخلاص هذه الجزيرة المعزولة الوحيدة من أيدي المسلمين، وتم لهم ذلك سنة (٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) وغادر حاكمها مع أهله قاصدًا المغرب، إلا أنه غرق في البحر مع أسرته.

وبذلك أسدل الستار على حكم إسلامي لهذه الجزائر الشرقية، دام أكثر من ستة قرون[2]».

---

(١) نفح الطيب ٤٧٢/٤.

(٢) يرجع في سقوط منورقة إلى الحلة السيراء ص٢٥٥ والروض المعطار ٥٤٩ وأعمال الأعلام ٢٧٥ ونفح الطيب ٤٧٢/٤ وتاريخ البحرية الإسلامية ٢٨٦/٢.

الفصل الأول

الازدهار الثقافي والأدبي

إذا كانت الثقافة الأندلسية قد بلغت شأنًا رفيعًا في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وإذا كانت الحواضر الأندلسية (في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة وسرقسطة ومالقة وبلنسية وبطليموس ودانية) قد تألقت وازدانت بنهضة علمية وأدبية زاخرة، فإن جزر البليار هي الأخرى قد نالت حظًا من الازدهارالثقافي كادت تربو به على زميلاتها من تلك الحواضر.

وإذا كان السقوط السياسي بتمزيق الأندلس إلى ممالك متفرقة قد رافقه صعود أدبي، فإن ازدهار الأدب في هذه العواصم يرجع إلى عدة عوامل منها:

أولاً: تشجيع ملوك الطوائف للأدب والعلوم، وتسابقهم على الاستئثار بالعلماء والشعراء، وقد بلغ من اهتمامهم بالشعراء «أنهم كانوا يخصصون يومًا من كل أسبوع للشعر، حيث ينعقد المجلس من الشعراء والأدباء برئاسة الملك، يستمعون فيه إلى الجديد من الشعر وإنشاد الشعراء الجدد[1]».

وكانت هذه النوادي بمثابة لجان حكم واختبار، وكل أعضاء النادي هم الفاحصون والنقدة الذين يتصيدون الأخطاء لكل وافد جديد، بل لكل واحد منهم، ومن ينجح في هذا الاختبار يطير صيته وينضم إلى قائمة أعضاء النادي، وكلما أثبت تفوقًا وإجادة علت رتبته، ولذلك كان التنافس على أشده بين الشعراء، وكما يقول غارسيه غومس: «فلا عجب إذًا من أن يكون إنتاجهم رفيعًا[2]»، وكما تقول الدكتورة كليليا:

(١) مجاهد العامري ٤٦.

(٢) الشعر الأندلسي ٤٥.

«هكذا أصبحت قصور ملوك الطوائف بمثابة أكاديميات للعلوم والآداب والفنون يحج إليها كل طالب علم وراغب في الأدب[1]».

ونضرب مثلاً لذلك ما حدث للقسطلي مع المنصور بن أبي عامر، وابن حمديس مع المعتمد بن عباد.

فهذا القسطلي يمدح المنصور بن أبي عامر، فيتهم بالسرقة والسطو على شعر غيره، فيستحضره المنصور ويختبره، فيرتجل أمامه بعض الأبيات الشعرية، ثم ينشئ قصيدة طويلة في مدحه يقول في أولها:

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا
وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا

ثم يذكر الوشاة الذين اتهموه بالباطل فيقول:

ودسُّوا لي في مثنى حبائلهم
شنعاء بتُّ بها حرّان مكتئبا
حتى هُززتُ فلا زندُ القريض كبا
في ما لديَّ ولا سيف البديهِ نبا[2]

وهذا ابن حمديس يلاقي الإهمال في بدء لقائه بالمعتمد، ثم يدعوه ويعقد له امتحانًا في الشعر فينجح وينال الإعجاب والاستحسان[3].

بل كان الملوك يبعثون برقاعهم إلى الشعراء يدعونهم إلى مجالسهم، وهذا ابن عَبَّاد يدعو مجموعة من أصحابه الشعراء إلى قصر بالزهراء، فيقول:

حسد القصرُ فيكمُ الزهراءَ
وَلعَمْري وعَمْرِكُم ما أساءَ
قد طَلَعْتُمْ به شُموسًا صباحًا
فاطْلُعوا عندنا بُدورا مساءَ[4]

---

(١) مجاهد العامري ٤٤.

(٢) انظر جذوة المقتبس ص١١١.

(٣) انظر ديوان ابن حمديس ق٣٤٤.

(٤) المختار من شعر شعراء الأندلس ص ٤٤.

ويبذلون لهم الرغائب استمالة لهم، ويروى أن مجاهدًا العامري بذل لتمام بن غالب المعروف بابن التياني أربعة آلاف دينار على أن يزيد في كتابه: «وذلك ما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد»، فامتنع، وقال: وضعته للمسلمين عامة[1].

ثانيًا: بالإضافة إلى ما سبق فإن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا يتمتعون بقدرات أدبية وشعرية عالية، وهذا ما حدا بهم إلى جانب العديد من الأسباب النفسية والاجتماعية والسياسية أن يحدبوا على الشعراء والأدباء والعلماء، وأن يدعوهم إلى بلاطاتهم، ويغدقوا عليهم العطايا والهبات والوظائف، فإشبيلية دولة العباديين تألق من ملوكها في سماء الشعر كوكبان لامعان هما: المعتضد وابنه المعتمد، أما أبناء المعتمد: الراضي بالله يزيد، وعبيد الله الرشيد والفتح المأمون فكلهم يقول الشعر، وقد التف من حولهم كوكبة من أعاظم شعراء الأندلس كابن زيدون وأبي بكر بن عمار، وأبي بكر بن اللبانة وابن حمديس وأبي العرب الصقلي، وعبدالجليل بن وهبون.

ومن خلال تلك الرسائل الشعرية المتبادلة بين المعتمد وهؤلاء الشعراء تحس بأن هؤلاء الملوك الشعراء متواضعون لزملائهم الشعراء،- وكأنهم في رتبة واحدة - وهم كذلك في الشعر، ولننظر إلى ابن عباد يدعو أبا بكر بن عمار فيقول:

وقد زارنا النرجس الذكيُّ
وحان من يومنا العشيُّ

ونحن في مجلسٍ أنيقٍ
وقد ظمئنا وفيه ريُّ

ولي صديق غدا سَمِيِّي
يا ليته ساعد السميُّ

فأجابه ابن عمار:

لبيك لبيك من منادٍ
له الندى الرحبُ والنَّديُّ

(٢) من علماء اللغة في الأندلس، من أهل قرطبة، توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر: إشارة التعيين، ص ٦٧.

ها أنا في الباب عبد قن
قِبْلَتُهُ وجهك السني[1]

وهذا ابن جهور في قرطبة وابنه أبو الوليد من الشعراء ووزيرها ابن زيدون الذي ترك قرطبة خشية من تغير أبي الوليد ابن جهور، كما تغير والده من قبل فسجنه، وتوجه إلى إشبيلية وأصبح من خاصة المعتضد ثم أصبح وزيرًا لابنه المعتمد.

وفي دانية وجزر البليار ظهر مجاهد العامري ناقد الشعراء والمؤلف في عروض الشعر، والتف من حوله عدد من الشعراء سنذكرهم عند الحديث عن بلاطه الأدبي.

وفي بطليوس وغرناطة ومالقة وطليطلة وجدنا هذه التجمعات والنوادي الأدبية، تزدهر في بلاطات هؤلاء الملوك، فكان لتشجيعهم الأثر العميق في ازدهار الأدب، فكان أن تألقت الأندلس بحلتها الأدبية، وترصعت سماؤها بالنجوم اللوامع من شعرائها وكتابها ومنشئيها.

وإذا كانت الأقلام قد شرعت في ذم هؤلاء الملوك لأنهم السبب في انحدار الدولة الإسلامية في الأندلس فإن «هؤلاء الملوك في الواقع قد تسلموا بلاد الأندلس وهي في حالة ضعيفة من الوجهتين السياسية والعسكرية، وعلى ذلك لا ينبغي أن يوجه إليهم اللوم على أساس أنهم الذين قادوا البلاد إلى هذا المصير، وإنما ينبغي أن يلاموا على أنهم لم يحاولوا النهوض بها، على أنني يجب ان أسجل لهم فضلهم على الشعر والأدب والعلوم فقد ازدهرت كما لم تزدهر من قبل[2]».

ثالثًا: ومن أسباب ازدهار الأدب في العواصم الإقليمية، فتنة البربر في قرطبة فقد ذكر صاعد اللغوي في طبقاته ما قام به البربر في هدم مكتبات قرطبة وإحراقها، وما حدث من أعمال السلب والنهب[3].

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٤٧ والمختار من شعر شعراء الأندلس ٤٤ – ٤٥.
(٢) مجاهد العامري ٤٤.
(٣) انظر طبقات الأمم ٦٧.

ولقد كان هذا السبب دافعًا لهجرة العلماء والأدباء والشعراء من قرطبة إلى عواصم الأقاليم، وقد دفعت هذه الفتنة الكثير من الأسر الثرية إلى الأقاليم، وفي أعقابهم المعلمون وتلاميذهم الذين كونوا مراكز جديدة للثقافة، وغرسوا البذور الأولى للعلم في نفوس الأهالي الذين أصبحوا فيما بعد رعايا ملوك الطوائف[1].

وإذا كان حديثنا عن الازدهار الثقافي والأدبي في جزر البليار في الأسباب الآنفة قد غذت جزر البليار بهذه النهضة، إلى جانب أسباب أخرى نذكر منها:

أ - تمتعها باستقرار سياسي، فقد كانت بموقعها «المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية التي كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى، وأبعد عن عداوة ملك قشتالة الذي كان يهدد سائر الطوائف[2]».

ب - سقوط إشبيلية وانتهاء ملك المعتمد على يد المرابطين الذين لم يفسحوا صدورهم للشعر كما كان العهد في عصر ملوك الطوائف، مما اضطر كثرة من الشعراء إلى التوجه إلى ميورقة، نذكر منهم: ابن حمديس، ابن اللبانة، أبا العرب الصقلي، ابن العوام الإشبيلي وغيرهم.

ج - كثرة بناء المساجد التي اتخذت مدارس وملتقيات فكرية وأدبية، وحلقات للدراسات التي تقوم حول القرآن الكريم وعلومه، والحديث والفقه واللغة والأدب، وظهر منهم كثير من المعلمين نعد منهم: عبدالرحمن بن سعيد، ويوسف بن عبدالعزيز، والحسن بن أحمد، وأحمد العجيفي الميورقي، وأبا الظفر المنورقي شيخ أبي عرفة اللخمي المحدث، وانتشرت المذاهب الفقهية في هذه الجزر، فظهر المذهب المالكي والظاهري.

د - كون هذه الجزر بيئة علمية ثقافية أدبية، نسب إليها جماعة من العلماء والأدباء والشعراء، و الناظر في المنتسبين إلى هذه الجزر من هذه الفئات يتبين مدى الازدهار الذي عاشته هذه الجزر، ومدى الإضافة التي أسهمت بها في ميادين الحضارة والثقافة الإسلامية، ونورد على سبيل المثال لا الحصر المشهورين منهم:

---

(١) انظر مجاهد العامري ٤٤ نقلاً عن كتاب لربيرا ص٢٠٦.

(٢) دول الطوائف ق١ ص١٨٣ - ١٨٤.

– **يوسف بن عبدالعزيز بن علي بن عبدالرحمن أبا الحجاج اللخمي الميورقي الأندلسي الفقيه المالكي**، رحل إلى بغداد، وتفقه بها مدة، وقدم دمشق سنة ٥٠٥هـ، وحدث بها، وعاد إلى الإسكندرية ودرس بها[١].

– **الحسن بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن علون أبا علي الغافقي الأندلسي الميورقي، الفقيه المالكي**، يعرف بابن العنصري، ولد بميورقة سنة ٤٤٩هـ وسمع ببلده وبيت المقدس ومكة وبغداد ودمشق[٢].

– **محمد بن سعدون بن مرجي بن سعد بن مرجي أبا عامر القرشي العبدري الميورقي الأندلسي الحافظ**، كان فقيها على مذهب داوود بن علي الظاهري، وكان نادرة في الحفظ، أثنى عليه أبو بكر ابن العربي، وقال: هو ثقة حافظ مقيد، لقيته فتي السن كهل العلم[٣].

– **علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن طنيز أبا الحسن الأنصاري الميورقي**، قدم دمشق وسمع عن عدة بها، وروى عن كثير من المحدثين، وكان ثقة عالما باللغة، تنقل بين البصرة وعُمان ومات على باب البصرة عام ٤٧٤هـ، وسترد ترجمته في شعراء البليار.

ومن شعره قوله:

وسائلةٍ لتعلم كيف حالي
فقلت لها بحالٍ لا تسرُّ
وقعتُ إلى زمان ليس فيه
إذا فتشْتُ عن أهليه حُرُّ[٤]

قال الصفدي: كان مقدمًا في النحو، سمع ابن عبدالدائم وغانم بن الوليد المخزومي، وحج وقدم بغداد، ومات بكاظمة سنة ٤٧٥هـ.

---

(١) انظر معجم الأدباء ٥/٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه ٥/٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه ٥/٢٤٦ والصلة ٢/٥٦٤.

(٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٥/٢٤٧ وبغية الوعاة ٢/١٤٤.

- علي بن محمد عبدالملك الشاطبي ثم المرسي أبا الحسن الميورقي اقرأ بمرسية النحو والفقه، وكان يفسر القرآن كل جمعة، أخذ عن صهره أبي عبدالله وأجاز له أبوالربيع ابن سالم، وكان من أهل الصون والعفاف والانقباض والفضل، مات سنة ٦٧٠ هـ(١).

- محمد بن عمار الكلاعي أبا عبدالله الميورقي، قدم مصر وروى عن ابن الوليد بها، وكان عالمًا، وله قصيدة طويلة منها حكم ومواعظ يوصي ابنه بها، منها قوله:

وطاعة من إليه الأمرُ فالزم
وإن جاروا وكانوا مسلمينا
فإنْ كفروا ككُفر بني عُبيدٍ
فلا تسكُنْ ديار الكافرينا

واسم ابنه حسن، وسمع من المذكور الحافظ القاضي أبي بكر بن العربي في رحلته سنة ٤٨٥هـ ووصفه بالعلم(٢).

- محمد بن الحسين أبا بكر الشهير بالميورقي، لأن أصله منها، سكن غرناطة، وروى عن أبي علي الصدفي، ورحل حاجًا، فسمع بمكة من أبي الفتح عبدالله بن محمد البيضاوي، وأبي نصر عبدالملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة من سنة ٥١٧هـ، بالإسكندرية من أبي عبدالله الرازي، وأبي الحسين ابن مشرف، وأبي بكر الطرطوشي، وغيرهم، وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة، فحَدَّث في غير ما بلد لتجوله وكان فقيهًا ظاهريًا، وعارفًا بالحديث وأسماء الرجال، متقنًا لما رواه، يغلب عليه الزهد والصلاح، روى عنه أبوعبدالله النميري الحافظ، ويقول فيه: الأزدي تدليسًا، لأنَّ الأنصار من الأزد، وصار أخيرًا إلى بجاية هاربًا من صاحب المغرب، وَحدَّث هنالك وسمع منه في سنة ٥٣٧هـ(٣).

- أحمد بن إسماعيل بن دليم القاضي الجزيري من جزيرة ميورقة، يكنى أبا عمر، سَمَّعَ محمد بن أحمد بن الخلاص، وأبا عبدالله العطار، ذكره الحميدي وقال: سمعنا منه قبل الأربعين والأربعمائة(٤).

(١) بغية الوعاة ١٩٤/٢.
(٢) نفح الطيب ٦٠/٢ وانظر ترجمته في التكملة ص٤٠٣.
(٣) نفح الطيب ١٥٥/٢ وانظر ترجمته في التكملة ٤٤٠ والذيل ٦٣/٦.
(٤) الصلة ٥٢/١.

– **أحمد بن العجيفي العبدري من أهل يابسة**، يكنَّى أبا العباس، حَدَّث عن أبي عمران الفاسي، وأبي عبدالملك بن علي البوني، لقيه القاضي أبو علي بن سكرة بيابسة وروى عنه بها(١).

– **أمية بن عبدالله الهمداني الميورقي**، يكنى أبا عبدالله، رحل إلى المشرق، ولقي بمكة الأسيوطي صاحب النسائي، وبمصر أبا إسحاق بن شعبان وابن رشيق، وكتب عنهم، كان حجه سنة ٣٥٥هـ وكان ذا فضل وعفاف وستر ظاهر، توفي رحمه الله بميورقة ليلة السبت لثمان بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، ومولده سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة(٢).

– **عبدالعزيز بن الحسن الحضرمي من أهل ميورقة**، سكن قرطبة، يكنى أبا الإصبع، سمع من أبي العباس العذري صحيح مسلم، وأجاز له، وسمع من أبي عبدالله بن سعدون، ومن أبي بكر المراري وغيرهم، وسمع من أبي الحسن اللخمي كتاب التبصرة من تأليفه، وتوفي رحمه الله سنة ٥٢٦هـ(٣).

– **علي بن سعيد العبدري من أهل جزيرة ميورقة**، يكنى أبا الحسن، سمع بها قديمًا من أبي محمد بن حزم، وأخذ عنه أيضًا ابن حزم، ورحل إلى المشرق وحج، ودخل بغداد، وترك مذهب ابن حزم، وتفقه عند أبي بكر الناشئ، وله تعليق في مذهب الشافعي، وسمع من الخطيب أبي بكر بن ثابت البغدادي وغيره، صحبه القاضي أبو بكر بن العربي، وأخذ عنه وأثنى عليه، وكان حيًا ببغداد سنة ٤٩١هـ وتوفي بعد ذلك، وذكره الأمير أبو نصر بن ماكولا وقال: صديقنا أبو الحسن الفقيه العبدري رجل من أهل الفضل والمعرفة والأدب وهو من جزيرة ميورقة(٤).

– **عبدالله مولى الرئيس أبي عثمان بن حكم صاحب منورقة رحمه الله**، شيخ مبارك، من أهل الفضل والدين والانقباض والورع والعدالة التامة، تأدب بسيده، أبي

(١) الصلة ٧٠/١.

(٢) الصلة ١١٠/١.

(٣) المصدر نفسه ٢٧٤/٢.

(٤) المصدر نفسه ٤٢٣/٢.

عثمان، وقرأ وسمع عليه، وأخذ عن جماعة ممن ورد عليهم بجزيرة ميورقة، وأجاز له جماعة كبيرة، وألف برنامجًا ذكر فيه نحو السبعين من شيوخه، ثم تقلب بين سبتة وسلا، وعاد إلى غرناطة، توفي عقب سنة ٦٩٧هـ(١).

– **عبدالله بن الحسين بن عشير اليابسي** – كان مُصَدَّرًا في جامع الاسكندرية لإقراء الناس القرآن والنحو، وله شعر كثير، أخذ النحو عن ابن الطراوة، وتوفي سنة ٦٢٥هـ(٢).

– **يوسف بن عبدالعزيز بن علي اللخمي الميورقي**، نزيل الإسكندرية المعروف بابن نادر، عالم بأصول الفقه، متفنن، جمع بين الدراسة والرواية. حج وأخذ عن علماء مكة وبغداد ودمشق، وأخذ بعضهم عنه، واستقر بالإسكندرية، وأحيا بها علم الحديث، له تصانيف منها: التعليقة الكبرى في الخلاف(٣).

– **محمد بن الحسين بن علي بن موفق يكنى أبا عبدالله الأندلسي الميورقي**، ويقال له: ابن الشكار، عالم بالقراءات مات قبل الكائنة العظمى من الروم على ميورقة بنحو ستة أشهر في سنة ٦٢٦هـ(٤).

– **محمد بن أحمد بن محمد بن الجلاب الفهري**، أديب سكن منورقة، وصنف فيها بعض كتبه، واستشهد على ظهر البحر مقبلاً على قتال الروم، من تأليفه: «الفوائد المتميزة من رواية المشيخة العشرة»، «فرغ من تقييده في منورقة في ذي القعدة سنة ٦٥٥هـ، وكتاب «النزهة» وسماه «إيثار النقل لآثار الفضل» وكتاب «روح الشعر» اختصره أبو عثمان سعيد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون الأندلسي، وسمي المختصر «لمح السحر من روح الشعر»(٥).

---

(١) الذيل والتكملة ق٢ ص٣٣٥.

(٢) بغية الوعاة ٢/٢٨ ومعجم الأدباء ٥/٤٢٤ والأعلام ٦/٣٢٧.

(٣) الأعلام ٨/٢٣٨.

(٤) التكملة ١/٣٣٥ والأعلام ٦/١٠١.

(٥) الأعلام ٥/٣٢٢.

- أبو عبدالله محمد بن فتوح الحميدي الإمام المحدث الفقيه الشاعر، من الأئمة المشهورين والفضلاء المذكورين، حج وسكن بغداد سنة ٤٨٨هـ وفيها صنف كتابه المشهور «جذوة المقتبس في علماء الأندلس»[١]، وسترد ترجمته في فصل شعراء البليار.

وهناك عدد كبير من الشعراء الذين نسبوا إلى هذه الجزر نذكر منهم: إدريس ابن اليمان اليابسي، وعلي بن أحمد بن طنيز الميورقي، وعبدالله بن الحسين بن عشير اليابسي، وابن عبدالولي الميورقي، وابن العطار اليابسي وأبا المحجي عياش بن حوافر ومحمد بن عمر بن عمار الميورقي، وسنعرض لهؤلاء الشعراء بدراسة مفصلة في فصل أعلام الشعراء المنتسبين إلى هذه الجزر.

أما الوافدون فلا يكاد يقع عليهم الحصر لكثرتهم وأما العلماء والفقهاء والمحدثون والقراء واللغويون فنعد منهم:

- عبدالله بن عبيد الله المعيطي الذي تولى الخلافة بعد أن بايعه مجاهد العامري، والذي ورد الحديث عنه سابقًا[٢].

- أحمد بن مطرف يعرف بابن الخطاب، من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر، أخذ القراءة عرضًا من أبي الحسن الأنطاكي وأبي الطيب بن غلبون، وسمع من أحمد بن ثابت التغلبي، وأبي أحمد السامري، وأبي حفص بن عراك.

خرج في الفتنة إلى الثغر، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة، فتوفي بها سنة ٤١٠ هـ، وهو ابن خمس وسبعين سنة[٣].

- عبدالرحمن بن أحمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عمير الثقفي من أهل سرقسطة يُكنى أبا بكر، سكن قرطبة، وكان من أهل العناية بالرواية، حسن الخط والضبط أزعجته الفتنة بقرطبة إلى ميورقة، فنزلها وحدث بها[٤].

---

(١) المغرب ٢/٤٦٧.
(٢) الصلة ١/٢٦٩.
(٣) المصدر نفسه ١/٣٦.
(٤) الحلل السندسية ٢/١٥٥.

– **ثابت بن محمد الجرجاني**، قدم الأندلس سنة (٤٠٦هـ) وجال في أقطار الأندلس، وبلغ إلى ثغورها، ولقي ملوكها، ورافق مجاهدًا العامري في غزوة سردانية، وعاد معه إلى ميورقة[١].

– **خلف بن غصن بن علي الطائي**، من أهل قرطبة، يكنى أبا سعيد، أخذ القراءة عن أبي الطيب بن غلبون، وهو الذي لقنه القرآن، وعن أبي حفص بن عراك، أقرأ الناس بقرطبة وغيرها، توفي بجزيرة ميورقة سنة ٤١٧هـ وقد قارب السبعين[٢].

– **عبدالرحمن بن محمد بن معمر اللغوي صاحب التاريخ في الدولة العامرية**، يكنى أبا الوليد، كان واسع الأدب والمعرفة، توفي بالجزائر الشرقية سنة (٤٢٣هـ)[٣].

– **عبدالملك بن سليمان الخولاني**، يكنى أبا مروان، محدث سمع بالأندلس وأفريقية ومصر ومكة، سمع منه الحميدي، ومات بجزيرة ميورقة قبل (٤٤٠هـ)[٤].

– الفتح بن خاقان الكاتب الأندلسي المشهور صاحب قلائد العقيان، وبها التقى بأبي جعفر ابن البني.

– **إبراهيم بن أحمد الغرناطي**، يكنى أبا إسحاق، قاضي أندلسي، ولد ونشأ بغرناطة، وولي القضاء في بعض أعمالها، ثم خرج إلى ميورقة عند انقضاء دولة الملثمين واستقر فيها، وتقلد قضاءها، وتوفي بها سنة (٥٧٩هـ) وله مختصر في الشروط[٥].

أما الشعراء الوافدون فعددهم وفير منهم:

ابن حمديس الصقلي، أبو العرب الصقلي، ابن اللبانة، أبو جعفر البني، ابن سهل الإسرائيلي، أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني،

(١) الصلة ١٢٣/١ والذخيرة ق٤ م١ ص١٢٤.
(٢) الصلة ١٦٧/١.
(٣) المصدر نفسه ٣٢٨/٢.
(٤) المصدر نفسه ٣٦٠/٢.
(٥) الأعلام ٢٩/١.

أبو المطرف، أحمد بن يامن، ابن همشك التنملي، كثيِّر الأديب. وغيرهم كثير، وسنفصل القول فيهم في فصل الشعراء الوافدين على جزر البليار.

من هنا نتبين أسباب ازدهار النهضة العلمية، وعظم ما أسهمت به هذه الجزر، وكان لأبنائها وللوافدين عليها فضل في هذه الذخائر من المؤلفات في ميادين مختلفة. ففي علوم القرآن نجد «الميسر في القراءات» لمحمد بن الحسين المعروف بابن الشكّار وفي الحديث «الجمع بين الصحيحين» للحميدي، وله أيضا «تفسير غريب ما في الصحيحين»، ولابن الجلاب الفهري كتاب «الفوائد المتخيرة من رواية المشيخة العشرة».

وفي الفقه: «مختصر في الشروط» لإبراهيم الغرناطي»، و«إيثار النقل» لابن الجلاب الفهري و«التعليقة الكبرى في الخلاف» ليوسف بن عبدالعزيز أبي الحجاج الميورقي، و«تعليق في مذهب الشافعي» لعلي بن سعيد العبدري.

وفي التراجم: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، وهو من أجل كتب التراجم الأندلسية للحافظ الحميدي.

وفي التاريخ: بُلغة المستعجل أو تاريخ الإسلام للحافظ الحميدي، وتاريخ ميورقة لأحمد بن عبدالله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي البلنسي، قال ابن الخطيب: له تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها، نحا فيه منحى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي(١).

وفي الأدب: تسهيل السبيل إلى علم الترسيل، والمتشاكه في أسماء الفواكه، ونوادر الأطباء، والذهب المسبوك في وعظ الملوك، والتذكرة، وكلها للحافظ الحميدي، و«روح الشعر» لابن الجلاب الفهري اختصره أبوعثمان سعيد بن أحمد وسماه «لمح السحر من روح الشعر».

****

(١) الإحاطة ١/١٧٨.

الفصل الثاني

البلاطـات الأدبيــة

بلاط مجاهد العامري:

مع كل ما سبق، فقد أشاد المؤرخون بمناقب مجاهد العامري، وخلاله الحميدة، ودهائه السياسي، وعبقريته الحربية، ولكن أعظم هذه المزايا هي مزاياه العلمية ومآثره الأدبية، من ذلك ما ذكره ابن بسام حيث يقول: «كان مجاهد فتى دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عني بذلك من صباه وابتداء حاله، إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مر به في الحروب برًا وبحرًا، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، وكانت دولته أكثر الدول خاصة، وأسراها صحابة لانتحالهم الفهم والعلم، فأمَّهُ جلة العلماء، وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة، وجلة ظاهرة، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس في الشعراء، وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده، فأقصر الشعراء عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره»،[1] وعلى الرغم من هذه المقولة، فقد وجدنا كثيرا من الشعراء يذكرونه ويمدحونه.

ومع ذلك أيضًا فقد كان ناقدًا بصيرًا بالشعر «فلا تسلم على نقده قافية»[2] وقد ذكرت بعض الروايات أن له تأليفًا في العروض[3]، وهذا يدل على ما تمتع به مجاهد من بصر بالشعر وعلم به.

---

(١) الذخيرة ق٣ ص٢٢ وانظر البيان المغرب ١٥٦/٣.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٢٣.

(٣) معجم الأدباء م ٩ ج٨١/١٧.

وقد ارتحل إليه جلة من الأدباء، وبخاصة أدباء قرطبة بعد فتنة البربر، وفي ذلك يقول ابن بسام: «إليه كانت هجرة أولي البقية وذوي الحرية من هذه الطبقة الأدبية القرطبية، للين جانبه وذكاء شهابه»[1].

ونتيجة لهذه المكانة العلمية والأدبية التي سما إليها أبو الجيش مجاهد، وعنايته الشديدة بطلب العلم وجمع الكتب، فقد: «أتت إليه العلماء من كلِّ صقع، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم، كأبي عمرو المقري[2] وابن عبدالبر، وابن معمر اللغوي، وابن سيده فشاع العلم في حضرته، حتى فشا في جواريه وغلمانه، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن، ويشاركون في فنون العلم يجملونه بها، ويشرفون دولته[3]. حقا لقد أصبحت دانية وجزر البليار في عهد مجاهد مركزًا علميًا وأدبيًا، توافد عليه العلماء والأدباء والشعراء من كل حدب وصوب، ولقد وجدنا بعض الأدباء والعلماء يغري الآخرين من زملائهم بالوفود إلى هذه الحاضرة، فالكاتب أبو عامر أحمد بن غرسيه الذي أدبه مجاهد «وكان بينه وبين أبي جعفر بن الجزار الشاعر صحبة أوجبت ان استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك المرية ناقدًا عليه ملازمة مدحه، وتركه ملك بلاده[4]».

ومن أشهر من ضمه مجلس مجاهد هو العالم اللغوي الكبير علي بن سيده[5] أبوالحسن اللغوي الأندلسي الضرير، صاحب كتابي المحكم والمخصص، قال الحميدي: «كان ابن سيده منقطعًا إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبدالله العامري، ثم حدثت له نبوة بعد وفاته في أيام إقبال الدولة بن الموفق فهرب منه، ثم قال يستعطفه:

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٢٣.

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، عالم كبير في القراءات من الحفاظ، انظر ترجمته في نفح الطيب ١٣٥/٢.

(٣) أعمال الأعلام ص٢١٧ والمغرب ٤٠٦/٢.

(٤) المغرب ٤٠٧/٢.

(٥) انظر ترجمته في نكت الهيمان ٢٠٤.

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليُمنى
سبيل فإنَّ الأفق في ذاك واليُمنا
ضحيتُ فهل من بردِ ظلك نومة
لذي كبدٍ حرَّى وذي مُقلةٍ وسنى
ونضوِ هُموم طلَّحتهُ ظُباتُه
فلا غاربًا أبقين منهُ ولا متنا

ومن العلماء الذين استدعاهم مجاهد إلى بلاطه: العالم اللغوي أبو العلاء صاعد البغدادي صاحب كتاب الفصوص الذي ألفه للمنصور بن أبي عامر، وقد استماله مجاهد بخريطة مال ومركب أهداها إليه، فقال فيه قصيدة أولها:

أتتني الخريطةُ[1] والمركبُ
كما اقترن السعدُ والكوكبُ
وحط بمينائه قِلْعه
كما وضعت حَمْلَها المُقرِبُ[2]
على ساعةٍ قام فيها الثناءُ
على هامة المشتري يخطُبُ
مجاهدُ نُضْتَ إباء الشموس
فأصحب ما لم يكُنْ يُصحبُ
فقُلْ واحتكم لي فسمعُ الزمَّان
مُصيخٌ إليك بما ترغبُ[3]

ومن الذين برزوا في الأدب والرسائل الكاتب الوزير أبو أحمد بن رشيق، وقد عدّ ياقوت تقديم مجاهد لهذا الوزير من أعظم فضائله، وعنه قال:

كان أبوه من موالي بني شهيد، ونشأ هو بمرسيه، وانتقل إلى قرطبة، وطلب الأدب وبرز فيه، وبسق في صناعة الرسائل، مع حسن الخط المتفق على نهايته، وتقدم منهما،

(١) الخريطة: وعاءٌ من جلد لوضع النقود.
(٢) المقربُ: التي قرُب وضعُ حملها.
(٣) معجم الأدباء م٩ ج١٧ ص٨٠ – ٨١ وانظر في ترجمته الجذوة رقم ٢٠٧.

وشارك في سائر العلوم، ومال إلى الفقه والحديث، وبلغ من رياسة الدنيا أبلغ منزلة، وقدمه الأمير الموفق أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري على كل من في دولته، لأسباب أكدت له ذلك عنده، من المودة والثقة والنصيحة والصحبة في النشأة، وكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة»[١].

أما ذلك العالم الفذ والأديب الفرد أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي صاحب التصانيف الكثيرة في الفقه والحديث والأدب، فقد وجد في ظلال مجاهد العامري الأمن والاستقرار والملاذ، حيث افتقد كل ذلك في بلده قرطبة إثر فتنة البربر، وفي ذلك يقول الدكتور محمد مرسي الخولي: «ولقد كان من بين هؤلاء المهاجرين، أبو عمر بن عبدالبر الذي اضطر تحت هول ما رآه من حوادث إلى ترك بلده الحبيبة ومرتع صباه، خصوصًا وقد أثر في نفسه قتل أستاذه الكبير وصديقه العظيم أبي الوليد ابن الفرضي مظلومًا في بيته بيد البربر الذين لم يرعوا للرجل علمه ومكانته، أو يرحموا فيه ضعفه وشيخوخته[٢]».

أقبل أبو عمر على دانية قاعدة ملك مجاهد شابًا في الثلاثين من عمره، فلقي فيها ما أمله، وعاش فيه نحوًا من ثلاثين عامًا ألف خلالها معظم كتبه الموسوعية، يذكر منها ابن حزم[٣]:

- **كتاب التمهيد والاستذكار في الحديث والكافي في الفقه.**

- **وكتاب في الصحابة، وبهجة المجالس في الأدب، وجامع بيان العلم، وغير ذلك.**

وكان لابن عبدالبر ابن أديب وكاتب بليغ، ضمه مجاهد إلى كتّاب دواوينه، وظل يترقى حتى أصبح رئيسًا لكتّاب الدواوين في عهد ابنه علي، ويبدو أن عليًا أرسله برسالة إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية فحبسه هذا الأخير في سجنه، مما جعل ابن عبدالبر يقصده مستعطفًا برد حرية ابنه، فقال:

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٣.

(٢) بهجة المجالس المقدمة ص١١.

(٣) انظر نفح الطيب ٢/٧٦٧ وتاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – للدكتور إحسان عباس ٢٩١.

قـصـدتُ إليك من شـرقٍ لـغـربٍ
لتُـبـصـر مُـقلتي مـا حلَّ سـمـعي
وتـعـطـفـك المـكـارمُ نـحـو أصـلٍ
دعـاكم راغـبًـا في خـيـر فـرع
فـإن جُـدتم به من بعـد عـفـوٍ
فـليس الـفـضلُ عنـدكمُ ببـدع

ويرد المعتضد إلى ابنه حريته ويعود إلى مكانته ولكن الموت سرعان ما تخطفه عام ثمان وخمسين وأربعمائة، ولعل هذا السبب وأسبابًا أخرى هي التي حولت ابن عبدالبر عن دانية إلى شاطبة حيث توفي بها عن خمسة وتسعين عامًا في سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ووفد عليه من المشرق الشاعر الفتح بن أفلح الذي مدحه بقصيدة مطلعها:
غـرائبُ مما أغـرب الدهرُ أطلعت
عليك هلالَ العلمِ من أفق الغـرْبِ

ومن المشرق أيضًا جاءه أبو الفتوح ثابت الجرجاني[1] شارح كتاب الجمل للزجاجي، ولم يكتف مجاهد بكون هذا الأديب الشاعر نجم بلاطه وإنما كان يصحبه في رحلاته وحروبه، وقد صحبه في أعظم معركة قادها مجاهد لفتح سردانية، وشاهد هذا الأديب العالم هذا الفتح، ورأى بأم عينيه بعد ذلك الهزيمة المنكرة التي أوقعها الإفرنج بمجاهد.

وقد سأله مجاهد يومًا عن رفيق له رآه معه، فقال الجرجاني:
رفـيـقـان شـتـى ألَّف الدهرُ بيننا
وقـد يلتـقي الشـتى فـيـأتلفـان[2]

---

(١) انظر ترجمته في الذخيرة ق٤ م١ ص١٢٤، الجذوة ١٧٣، بغية الملتمس رقم ٦٠٢، الإحاطة ٤٥٤/١، وبغية الوعاة ٢١ ومعجم الأدباء ١٤٥/٧.
(٢) الذخيرة ق٤ م١ ص١٢٥.

ومن الشعراء المشهورين الذين مدحوا مجاهدًا بصفتيه العسكرية والأدبية: أبو حفص ابن برد الأصغر[1]، الذي أثنى عليه في رسالته المشهورة برسالة السيف والقلم، يقول فيها:

يا أيها الملكُ السامي بهمته
إلى سماء عُلا قد أعيت الهمما

لولا طلابي غربت المدح فيك لما
وصفت قبل علاك السيف والقلما

وإنما كان تعريضًا كشفت به
من البلاغة وجهًا كانَ ملتثما[2]

ومن ندمائه المشهورين، وأعلام مجلسه صبح الشعراء وغرة وجوههم الشاعر الفذ ابن مقانا الأشبوني[3]، وله فيه قلائد المدائح، يقول من إحداها:

ولما سقتنا بإبريقها
لثمنا يديها وخلخالها

وبتنا وباتت على ساقها
تصفقُ للشربِ جريالها

كأنَّ نجومَ الدُّجَى روضةٌ
تجرُّ بها السُحبُ أذيالها

كأنَّ الثريًا بها رايةٌ
يقودُ الموفقُ أبطالها[4]

كما ضم بلاطه الكاتب الشاعر أبا بكر محمد بن القاسم المعروف باشكهباط[5]، الذي حل بحضرة دانية فهصر من قطوفها الدانية، وألقى عصا الترحال عند ملكها مجاهد، فبلغ من الآمال عنده ما ليس بعدها مقترح، وفي ذلك يقول:

---

(١) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن برد الأصغر من الكتاب البلغاء والشعراء كان حيا في حدود ٤٤٠هـ. انظر ترجمته في جذوة المقتبس ١١٥ وبغية الملتمس ١٥٣ والذخيرة ق١ م١ ص٤٨٦ والمغرب ٨٦/١.

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص٥٢٨.

(٣) هو أبو زيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني، من غرب الأندلس من ساحل شنتمرة من قرية تدعى بالقبذاق، شاعر مطبوع مجيد. انظر ترجمته في الذخيرة ق٣ م٢ ص٧٨٦ والجذوة ٢٦٠ والمغرب ٤١٣/١.

(٤) الذخيرة ق٢ م٢ ص٧٩٦.

(٥) من الكتاب الشعراء أصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة، ثم ارتحل إلى المشرق، ثم رجع إلى الأندلس وسكن دانية. انظر ترجمته في المغرب ٣١/١ والذخيرة ق١ م١ ص١٩٥ وفيها اشكياط، ونفح الطيب ٩٥/٢ وفيه عرف باشكتهادة.

وكم قـد لقـيتُ الجـهـد قـبل مـجـاهدٍ

وكمْ أبصـرت عـيني وكم سـمـعت أذني

ولاقـــيت من دهري وصـــرف خطوبه

كـمـا جـرت النكبـاءُ في مـعطف الغُـصن

فـــلا تسـألوني عن فـــراق جـــهنَّمٍ

ولكنْ سلوني عن دخــولي إلى عــدن[1]

وهذا، صدّاح الأندلس وبلبلها الغريد ابن زيدون يترقرق بقافيته الرائعة، فيقول في مجاهد:

أترى اللـقـــاءُ كـــمـــا نحبُّ يوفقُ

فنظلُّ نصـــبحُ بالســـرورِ ونغـــبقُ

أفـــدي أبـا الجـــيش الموفق إنـهُ

للمكرمـــات مُـــيـــسَّـــرٌ ومُـــوفَّقُ

ولم يكن الشعراء والأدباء والعلماء وحدهم الذين عرفوا لمجاهد فضله وأدبه وعلمه، فهاهم أولاد الأمراء والملوك يتسابقون لخطب وده والثناء عليه، فالمعتضد بن عباد ذاك الضيغم، يتلطف في أبيات على لسان شاعره الرقيق ابن زيدون ليرسلها إلى أبي الجيش موفق، تبين عن عظيم مصافاة، وجميل ظن، وروائع تقدير، يقول فيها:

عــرفتُ عــرف الصــبـا إذهبَّ عـاطرهُ

مـن أُفق مـن أنـا في قـلـبي أُشـــاطِرُهُ

أراد تجـــديد ذكـــراهُ على شـــحطٍ

ومـــا تـيـــقن أنِّي الدهـر ذاكـــرهُ

نـأى المزارُ بـه والـدارُ «دانـيـــــة»(*)

يا حـبـذا الفـألُ لو صـحت زَواجـرهُ

نُخـري أبـا الجيش هل يقضي اللقـاءُ لنا

فـيـشـتـفي منك قلب أنت هـاجـرهُ

---

(1) المغرب ٢/٢٢ ونفح الطيب ٢/٩٦.

(*) كان أبو الجيش موفق أميرًا على «دانية»، والشاعر هنا يورّي بين «دانية» المدينة، و«دانية» بمعنى قريبة «المراجع»

قـصـاره قـيـصـرٌ إن قـام مـفـتـخـرًا
لـلّـهِ أولـهُ مـجـدًا وآخـرهُ[1]

ما أذكى هذا العرف الذي فاح أريجه من ذاك البلاط المجاهدي، وما أجود هذا الغمام الأدبي الذي ظل يَكِفُ حتى غطى على مقولة صاحب الذخيرة الذي زعم خلو الشعر من ذكره.

بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة:[2]

بسقوط دانية عام (٤٦٨هـ) بيد ابن هود، تكونت مملكة الجزر وعاصمتها ميورقة، حيث استقل بها واليها لعلي بن مجاهد وهو عبدالله المرتضي الذي استمر في حكمها إمارة مستقلة حتى عام (٤٨٦هـ) فخلفه عليها بعد وفاته مولاه ناصر الدين مبشر ابن سليمان، وفي عهده الذي استمر اثنين وعشرين عامًا وانتهى بالسقوط الأول لميورقة على يد خايمي الأول، استطاع ناصر الدولة في هذه الفترة التي تقارب ربع قرن أن ينهض بميورقة، ويجعلها منتجعًا للكثير من الشعراء والأدباء، الذين وفدوا عليه إثر ما تعرضت له بلاطات الأندلس من تصدع بعد استيلاء المرابطين عليها، ونخص بالذكر بلاط المعتمد بن عباد الذي كان يتألق بعدد ضخم من كبار شعراء الأندلس، وكان لهذا العقد أن ينفرط، ولهذا الجمع أن ينفض بعد أن نزعت واسطته بتقييد المعتمد بن عباد وإرساله سجينًا إلى أغمات بالمغرب.

وتطلعت عيون الشعراء إلى معتمد آخر، وبيئة مستقلة كبيئة إشبيلية، فلم يكن هناك غير ناصر الدولة مقرب الشعراء ومثيبهم، ولم يكن هناك غير ميورقة، فاتجهوا صوبها، وفي رحاب مبشر حطوا عصا الترحال.

واستقبل هذا البلاط أفذاذ الشعراء الذين ملأوا طباق الأندلس إنشادًا، فنفحوا ميورقة طيبًا عبقًا ظل أريجه على الأيام، فوفود الشعر حلت بحلوله كما يقول الشاعر:

---

(١) ديوان ابن زيدون ص٢٨٧.

(٢) انظر ترجمته مبشر بن سليمان في المغرب ٢/٤٦٧ والقلائد ٦٧.

ولما حللتَ الناصـــريةَ أقـــبلتْ
إليك وفـودُ الشـعـر وفـدًا على وفـدِ[1]

فابن اللبانة ذلك الصداح الوفي، رأى أن الدموع على أطلال المعتمد لن توفر له الحياة التي يريد، صحيح أنه لم يقصر في الوفاء لملكه، ولكن لا بد من أن يعود للبحث عن مجاري الرزق التي وقفت ساعة خلع المعتمد، وها هو ذا يوجه بصره في حيرة نحو الشرق والغرب، ويجول به في الشمال والجنوب إلى أين يتجه؟ وإذا به يصوبه نحو ناصر الدولة فيقول:

وقلتُ المكانُ الرحبُ أينَ؟ فـــقــيل لي:
ذرى ناصــر العليـاء أجـمــعُـهُ رَحْبُ[2]

لماذا وقع اختياره عليه؟ لأنه كما يقول:

وقــبلتي ناصِـــرُ شَــرْعِ العُـــلا
فــوجــهــه وَجْــهُ الهـدى في البطاح[3]

ويفد على مبشر في ميورقة سنة (٤٨٩هـ) ويلازمه طيلة أيام حياته الباقية، وقد كانت علاقته مع هذا الأمير في بدايتها صافية رقراقة إلا أن موردها بدأ يتعكر، حتى عزم على الفرار، وعاتب ناصر الدولة، واستأذنه في ترك بلاده، إلا أن الموت عاجله، فتوفاه الله سنة (٥٠٧هـ) أي قبل السقوط الأول لميورقة بعام واحد.

وهذا ابن صقلية البار الذي كتب عليه أن لا يلقي عصا التسيار، فبعد أن غادر بلاده مكرهًا إثر استيلاء النورمان عليها، حط رحله في إشبيلية، واتصل بالمعتمد ومدحه، وكاد المعتمد بكرمه ينسيه أرضه وجنته التي أخرج منها، وما إن بدأت لذة المقام الجديد تنسرب في ثناياه حتى خلع المعتمد فأحس ابن حمديس بدوار البحر من جديد، وصاح:

---

(١) شعر ابن اللبانة ص٣٨.
(٢) شعر ابن اللبانة ص١٨.
(٣) المصدر نفسه ص٣٠.

ولما رحلتم بالنَّدى في أكفكمْ
وقُلقلَ رَضْوَى منكُمُ وثبيرُ
رفعتُ لساني بالقيامة قد دَنَتْ
فهذي الجبال الراسياتُ تسيرُ[1]

ولما لم يجد ما أحسه وتصوره، وأن الحياة مستمرة، والقيامة لم تقم بعد، وساءه ما وجده في أفريقيا من تجهم، ورأى رصيفه وزميله أبا بكر بن اللبانة قد وجه وجهه شطر ميورقة، عزم على الانتقال إليها، عله يعوض هذه الأيام النحسات التي قضاها بعد وفاة المعتمد، ويمم صوب ميورقة، وركب البحر الذي كان يُخيفه دائمًا، ووصل، ويظهر أن اللقاء بين شاعرنا ومبشر بن سليمان لم يكن سعيدًا، ولا موفقًا لأسباب لا نعلمها تمام العلم، فقد ترجع إلى الظروف السياسية التي أحاطت بمبشر، إذ قلبت له الحياة ظهر المجن، وأنذرت بأحد شيئين:

إما أن تقع [ميورقة] في يد برشلونة، وإما أن ينتهي أمرها إلى المرابطين[2] وزيارة ابن حمديس لميورقة لم يتضح زمانها، فليس هناك إشارة واضحة سواء في الديوان أو في الكتب التي ترجمت له تلقي الضوء عليها، ولو حدث ذلك لاستطعنا أن نتبين أسباب هذا الجفاء. وإذا كان ما ذكره الدكتور إحسان عباس صحيحًا حول مدح ابن حمديس لمبشر صاحب ميورقة في زمن يحيى بن تميم[3] أي من عام (٥٠١ - ٥٠٩هـ) فإننا نستطيع تفسير هذه الزيارة السريعة التي لم تنتج لنا سوى قصيدة واحدة[4]، فالوضع في ميورقة لم يكن يبشر باستقرار في هذه الفترة، وابن حمديس الذي خبر جزر البحر لم يكن ليخفى عليه مثل هذا الأمر، وبخاصة أن أساطيل الروم بدأت تشدد من قبضتها عليها بعد سقوط صقلية وسردانية، وكأنه أحس بعدم الأمان، فدعاه الذي دعاه إلى ترك بلاده ليترك هذه البلاد أيضًا، ويبدو لي أن مبشرًا لم يكن في تلك الفترة العصيبة التي يواجه بها أساطيل الإفرنج لوحده، حيث انشغل المرابطون بحروب الأندلس في حالة من

---

(١) ديوانه ص٢٦٩ والذخيرة ق١ م١ ص٧٦ والمختار من شعر شعراء الأندلس ٣٠.
(٢) ابن حمديس حياته من شعره، ص٢٠٣.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٤.
(٤) انظر ديوانه ص ٢١٣.

يصطفي الشعراء وينادمهم، لهذين السببين جاءت هذه القصيدة اليتيمة يمدحه فيها، ويصف خيلا أهديت له، وقد أخذ الوصف معظم أبيات القصيدة، ولم يستغرق مدح مبشر سوى خمسة أبيات، وفي هذه القصيدة يقول في وصف الخيل:

جـــاءتك أولادُ الـوجـــيـــه ولاحقِ
فـــأرتك في الخلقِ ابتـــداعَ الخـــالقِ

غُـــرٌّ مــــحــــجَّلةٌ تكامل خلقـــهـــا
بُمــجــانسٍ من حـــسنهـــا ومُطابق

وكـــأنما حــيِّت عُـــلاك وجـــوهـهـــا
فـأسـالَ فـيــهـا الصبحُ بِيضَ طرائق[1]

إلى أن يقول في مدح مبشر:

أصــبــحتَ في الســادات ناصــر دولة
تـصفُ العلى ( ) عـــــدل مناطق[*]

بطلاً يطولُ بذكــــره في سلمـــــه
كــصــيـــاله بحـــســامــه في المأزق

مـــتـــرحـــلاً نحـــو المعـــالي ســاكنًا
بـالجـــيش في ظلِّ اللواء الخـــافق

شـــدَّتْ عـــزائمُـــهُ مـــهـــالكه كـــمـــا
شُـــدَّت فـــرازين بعـــقـــد بيـــادق[2]

ويبدو أنه لم يجد المنى والأمن في ظلال مبشر، فعاد إلى أفريقيا وإلى يحيى بن تميم وفي مغناه أنشد:

حـلـلـنـا بمـغـنـاكَ الـذي يُـنـبـت الـغـنـى
ويجـري حـيـاة اليُسْرِ في مَـيِّتِ العُـسْرِ

فـمــدحكَ في الإحـــســان أنطق مــقــولي
وعندك أُفنِي مـــا تَبَـــقَّى من العُـــمْـــرِ

(١) المصدر السابق ٣٣٠. (٢) ديوانه ص ٣٣١.

(*) الشطر الثاني لا يستقيم وزنه في بحر الكامل كما ورد في الأصل، حيث ترك مكان إحدى الكلمات فارغًا.

وجــــدنـا المنى والأمن بـعـــــد شـــــدائدٍ

تـقـلـب افـــــلاذَ الـقـلـوب مـن الـذعــــــر

ولعله يشير إلى عودته من ميورقة في هذه القصيدة، حيث يقول:

فــــمـن تـاركٍ وكــــرًا إلـيكَ مــــهـــاجـــرٍ

ومـن مــــســتــــقـــرٌ من جـنابك في وكــر[1]

ومن الوافدين على بلاط مبشر أبو العرب الصقلي[2] رفيق ابن حمديس وابن بلده وهو مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، ولد بصقلية عام ٤٢٣هـ وغادرها إلى الأندلس عام ٤٦٤هـ قاصدًا المعتمد وهو يقول:

إلام اتـبـــــاعي لـلأمـــــاني الـكـواذب

وهـذا طـريـق المجـــــــد بـادي المذاهـب

أهـمٌ ولـي عـــــزمـــــان عــــزمٌ مــــشــــرّقٌ

وآخـــــر يـغـــــري همــــتي بـالمغــــارب

ومــا ضـــاق عني في الـبـسـيطة جــانبٌ

وإن جلّ الا اعــــتــــضت منه بـجـــانب[2]

إذا كـنـتَ ذا هـمٍّ فـكن ذا عـــــــــزيمـةٍ

فــمــــا غـــائب نال النجـــاح بـغـــائب

ولم نجد له شعرًا في ناصر الدولة، ولعله فقد مع ديوانه. كذلك وفد أبو جعفر بن البني، فاحتمله مبشر على الرغم من خبث لسانه وفساد طباعه، ويبدو أنه كان يحاول إصلاحه، ولما لم يجد ذلك طرده ونفاه من ميورقة.

ويبدو أنه لما غادر ميورقة، ردت الريح سفينته، فتجهمه أصحابه، وصدوا عنه، لما عرفوه من غضب الأمير عليه، فقال:

أحــــبـــــتنا الألى عـــــتــــبـــوا علينا

فـــــاقـــــصـــــرنا وقـــــد أزف الـوداعُ

---

(١) المصدر نفسه ص٢١٨.

(٢) انظر ترجمته في الذخيرة ٣٠١/١/٤ والخريدة ٢١٩/٢ والأدب العربي في صقلية.

(٣) الخريدة ٢٢٢ – ٢٢٣.

لقـــــد كنتمْ لـنـاجـــــذلاً وأنسًــــــا
فـــهل في العـــيش بعـــدكمُ انتـــفـــاعُ
أقـــولُ وقـــــد صــــدرنا بعــــد يومٍ
أشـــــوق بـالســـــفــــينة أم نـزاعُ
إذا طـارت بـنـا حــــــــامت علـيكم
كــأنّ قلوبنا فـــيــــهـــا شــــراعُ[1]

وممن ضمه بلاط مبشر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ومطمح الأنفس، ويذكر أنه نهض إلى ميورقة[2] من بلنسية، وإذا كان الفتح على ما يقول قد دخل بلنسية سنة (٥٠٣هـ)[3] فلعله قد غادر إلى ميورقة في هذا العام وفيها التقى بابن اللبانة ودرس عليه، حيث عده ابن الخطيب وابن عبدالملك من شيوخه[4].

وبميورقة التقى بأبي جعفر بن البني على ما يذكره فيقول:

«وكنت بميورقة فدخلها - أي أبو جعفر البني - متسمًا بالعبادة وهو أسْرَى بالفجور من خيال أبي عبادة[5]».

ويبدو أنه بقي في ميورقة إلى أن نهض إلى بلنسية سنة (٥٠٧هـ) على ما يذكره في القلائد[6].

وقد وجدنا غير الأندلسيين يفدون على مبشر، فابن بسام يورد لنا قصيدة لأبي المظفر البغدادي[7] أرسلها للأمير مبشر بن سليمان، يذكر فيها هذا الشاعر زيارته القصيرة إلى ميورقة ويمدح مبشرًا، وفيها يقول:

---

(١) الخريدة ٥٣٦/٢.
(٢) القلائد ٧٦.
(٣) المصدر نفسه ٧٦.
(٤) الذيل والتكملة ق٢ ج٥ ص٥٢٩ والنفح ٣٠/٧.
(٥) المطمح ٣٧١.
(٦) ص٦٥.
(٧) لم يعرف محقق الذخيرة بأبي المظفر البغدادي هذا، ولم أجد له ترجمة في تاريخ بغداد أو كتب التراجم الأخرى.

هو طيــفُــهــا وطروقُــه تـعليلُ

فـمــتى يفي لك والـوفــاءُ قليلُ

وكـــأنَّ زورتـهُ تـخـــيُّـلُ بـارقٍ

فـتــقت بـه الـنكبــاءُ وهي بـليلُ

فـالقـدُّ من مــرح الصِّــبــا مـتــأودٌ

والـلـحظ مـن تـرفِ الـنعـــيم عـليلُ

والخــصــرُ مما خفَّ جـال وشــاحُــهُ

قلقًــا ومــا وارى الإزارُ ثقـــيلُ

أقــصِــرْ من الإدلال فَــهْــوَ على النَّوى

مــا دام يجـلبُـــهُ الـدلالُ دليلُ

ودعِ الـوشـــاة فكلُ مـــا يـحكونـهُ

عـند الـلقـــاء يُـزيـلُـهُ الـتـــأويلُ

ووراء وصلكمُ الـقـــصـيـــرِ زمـــانُهُ

هـجــرُ كــمــا شــاء الـغــيــورُ طويلُ

لـو دام قـــبلكُمُ اجـــتــمـــاعٌ لم يذُقْ

ألـم الـتـــفـــرق مـــالكٌ وعـــقـــيلُ

ومنها:

فـــرحـلتُ والـنـفسُ الأبيَّـــة حُـــرَّةٌ

والـعـــزم مــاضٍ والحــســام صـــقـيلُ

بقــصــائدٍ قَـــستِ الليــالي واكـتــستْ

فـــيـــهـــا فـــرقَّتْ بُكرةٌ وأصـــيلُ

خَــضِلَتْ بـدجلة والعــــراق ذيولُـهـــا

فـــاعـــتــزَّ من طربٍ إليـــهـــا النِّيلُ

فـــأقـــمتُ حـــيثُ الـعـــزُّ أبلغُ والنَّدى

جـمٌّ وظـلُّ المكـرُمـــــات ظـلـيلُ

سمحٌ وإن كثُر العفاةُ بماله
وبماء أوجُه سائليه بخيلُ
ومُسدَّدُ العزمات لا يغتالُها
خطبٌ كما اعتكر الظلامَ جليلُ
ويُصيبُ أعقاب الأمور إذا ارتأى
عفوًا وآراءُ الرجال تفيلُ
وإذا الوغى حذر الكماةُ لثامهُ
ومشَى بسرّ المشرفيّ صليلُ
ورماحُهُ تُوِّجْنَ من هام العِدا
ولخيله بدمائهم تنعيلُ
من معشر لهُمُ السَّماحَةُ شيمةٌ
والمجدُ تربٌ والنجومُ قبيلُ
نفضت إلى أكنافهم لم الرُّبى
أيدي الركائب سيرُهُنَّ ذميلُ
شرَقَتْ بنَغْمة شاعرٍ أو زائر
ودعا هديلٌ فاستجاب صهيلُ
لكمُ المعلَّى والرَّقيبُ من العُلا
وبكُم أفاض قداحَهُنَّ مُجيلُ
وسعيتَ للعلياء حتى أيقنتْ
أنَّ الأوائلَ سعيُهُمْ تضليلُ
واهًا لعصرك وَهْوَ يقطرُ نضرةً
ويميسُ تحت ظلاله التأميلُ
فكأنهُ وردُ الخدود إذا اكتستْ
خجلاً وكاد يزينُها التَّقبيلُ
أين المدى ولقد بلغت من العُلا
رُتبًا تردُّ الطرفَ وَهْوَ كليلُ[1]

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق٣ م٢ ص٦٨٩ – ٦٩٠.

ومن شدة كلف ناصر الدولة بهذه القصيدة المشرقية البغدادية فقد كلف أبا بكر الداني معارضتها، فقال قصيدته التي أولها:

في الطيف لو سمح الكرى تعليلُ
يكفي المحبُ من الوفاء قليل[1]

«بلاط سعيد بن حكم الأموي[2] في منورقة»

كهف الغرباء وملاذ كل طريد من الأدباء، لا تكاد تجد إجماعًا في الثناء على رجل من ملوك الطوائف كما تجد في الثناء على أبي عثمان هذا، فشخصيته الفذة التي استطاعت أن تصمد في بحر متلاطم من الأعداء لهي شخصية جديرة بالتقدير والإعجاب.

ولندع ابن الخطيب يعرفنا عليه فيقول: «كان هذا الرجل من أصل طبيرة غرب الأندلس، وتلون به الدهر، وجال الأندلس وأفريقية برهة، ثم دخل جزيرة منورقة مشرفًا بها، ثم نال بها الرياسة لما افترقت الكلمة، واختل أمر الموحدين، وحسن بها تدبيره، وعلا قدره، وأعظمته الملوك، وكان بعيد الهمة، اجتلابًا لأهل العلم واصطناعًا لهم وافتكاكًا لمن تحصل منهم بيد العدو، ولديه حظ جزيل من رواية الحديث وقرض الشعر وحسن الخط، إلا أنه كان شديد القسوة والعقاب، مستهينًا بالدماء... كان من سيرته أن يقتل الناس عقابًا على شرب الخمر، وكان قد اجتلب المحدث ابن مفوز للرواية عنه، وسماع كتاب البخاري عليه... فطوى ابن مفوز الكتاب وحلف أن لا يسمع عليه منه حديث، وقال: «حفظك الله تطلب رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله هكذا، والله لا سمعت مني حرفا أبدًا».

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٩٠ وشعره ص٨٣.

(٢) انظر ترجمته في المغرب ٤٦٩/٢ والذيل والتكملة ٢٨/٤ – ٢٣ واختصار القدح ٢٨ – ٤١ وتحفة القادم ٨٥ وأعمال الأعلام ٢٧٦ والروض والمعطار ٥٤٩ وعنوان الدراية ١٨١ وبغية الوعاة ٢٥٥ ونفح الطيب ٤٧٢/٤ وعصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٤٠٨ – ٤٠٩.

فقال يا فقيه: هذه الجزيرة كثيرة العنب، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون، فيضيعون الاحتراس، فيظهر علينا العدو فقال له: هذا شيء لا يخلص عند الله، لم تترك الشريعة شيئًا من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلا أعطته حقه، وانصرف عنه، ودامت ولايته بمنورقة مقصودًا من الأدباء والفضلاء[١]».

من هذا النص تظهر شخصية أبي عثمان سعيد بن الحكم، فهو عالم محدث شاعر، وسياسي محنك استطاع على الرغم من سقوط الجزيرتين (ميورقة ويابسة) أن يهادن الأعداء ويتصالح معهم، فتفاهم مع النصارى على أداء جزية سنوية على أن لا يدخل أحد من النصارى جزيرته، ثم التفت إلى جزيرته فضبط شؤونها، وجند الأجناد، وسار في الناس بالعدل، فعم الرخاء والأمن مدة حكمه، وهابه النصارى، واستقام له الأمر مدة خمسين عامًا.

أما ما يظهر من قسوته[٢] فهو من باب الحرص الزائد على هذه الجزيرة التي يخشى سقوطها في كل آن إذا غفل عنها المسلمون.

وهو بعد ذلك حريص على أن يجمع في بلاطه العلماء، ويجتذب إليه الشعراء والأدباء، وكان يسعى إلى افتكاك الأسرى منهم، وهو إلى جانب هذا الخلق الكريم، يمت إلى العلماء بوشيجة فهو ناثر ناظم، مشارك في مختلف العلوم، ولهذا طار اسمه في الآفاق، وامتدت أياديه المشهورة في كل قاصٍ ودان على ما يذكره ابن سعيد حيث يقول: «فكم لقيت بأقطار المغرب والمشرق من أديب أو شاعر أو حسيب، خلع عنه ربقة الإسار، ونقله إلى قرارة الإسلام عن محلة الكفار، وكم سمعت أن أديبًا أو غريبًا أو سليبًا خاطبه يشكو انكسار حاله فجبره، وسرى إليه مستميح بر خائضًا البحر فأنشره[٣]»، ويدعو له بعد أن يثني عليه فيقول: «وهو مشكور السيرة أندى من الغمام، يحدث عنه من جاز على جزيرته بالعجائب، أدام الله مدته ولا قطع نعمته[٤]».

(١) اعمال الأعلام ٢٧٦.

(٢) يقول ابن سعيد عنه: «ثم ولي إشراف جزيرة منورقة فملك قلوب أهلها بحسن الخلق والإحسان» اختصار القدح ٢٨.

(٣) اختصار القدح ٢٨.

(٤) المغرب ٢/٤٦٩.

ولهذا ظل يقصده الناس والعلماء والطلاب من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ويتردد عليه التجار، فيشمل الجميع ببره ورفقه، كان شغوفًا بجمع الكتب، حتى اجتمع له ما لا نظير له كثرةً وجودةً وندرةً[1]».

واجتمع حوله عدد من الفقهاء والمحدثين والقراء والأدباء والشعراء، وكان بلاطه بلاطا أدبياً حقًا: «وقد ألفت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب ككتاب روح السحر وروح الشعر، وغيره[2]».

وكان شعار هذا الأمير أن لا يمنع أحدًا من معروفه، فحقق ذلك فعلاً حيث لم يمر به أحد إلا مكث عنده لما يلقاه من بره وحدبه وعطفه، ذكر المقري قال: «قال أبو الحسن علي بن سعيد: أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه براً حببت إليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقة وقد أثرت في عنقه، فأمر له بإحسان وغنباز، وكتب معه:

حمالةُ السيف تُوهي جيد حاملها
لا سيما يوم إسراعٍ وإنجازِ
وخير ما استعمل الإنسانُ يومئذٍ
لحسم علَّتها إلباس غُنبازِ[3]

أما تحقيق ذلك قولاً ففي شعره يقول:

لا تمنع المعروفَ يَوْ
مًا مُعْرِضًا ومعرِّضًا
فكلاهما من حقه
فيه له أن يُفرضا
هذا تنزهَ فاستحـ
ـق على نزاهته الرِّضا

(١) عصر المرابطين والموحدين ق٢ ص٤٠٩.

(٢) نفح الطيب ٤٧٢/٤.

(٣) الخبر والشعر في نفح الطيب ٤٧٢/٤ والغنباز: صنف من ملابس أهل المغرب غليظ يستر العنق.

هــذا الــذي مـــــــــــا زلــتُ أفــ
ـعلُ أو أقـــولُ مـــحـــرِّضـــا[1]

وقد كانت همة الرئيس أبي عثمان اصطفاء الأخيار والنخبة المتازة كما يقول:

هـمـــــــــتي في هـذه الـدنـ
ـيـا لبــيـب أصطفــيـــه
وفـــســـادُ لستُ أبقـــيـ
ـه وخــيــر أقــتــفــيــه[2]

وتجمع حوله الأخيار من الأدباء والشعراء والفقهاء، وفي هذا المنتدى الأخوي نسمع الفقيه الكاتب أبا عبدالله محمد بن أحمد بن الجلاب الفهري وهو ينشد بين يديه قصيدة، لأحد الشعراء يقول منها:

وحَــقِّــهــا إنهــا جُــفُــونُ
تُسْــتَــلُّ من لحظهـــا المنونُ
لا صـــبـــر عنهـــا ولا عليـــهـــا
الموتُ مـن بـعـــدهـا يـهـــونُ
لأركبنَّ الـهـــوى إليـــهـــا
يـكـونُ فـي ذاك مـــا يـكـونُ

فاستحسنها[3]. ومما يدل على عظم تأثره بالشعر ما جاءَ من أن بعض كتاب الدولة الحكمية[4]، وقد ولاه خطة المواريث فكتب إليه راغبًا في الإعفاء:

ومـــا نلتُ من شـــغل المواريث رُقــعــةً
ســوى شــرح نعشٍ كلمــا مــات مــيتُ
وأكـــتبُ للأمـــوات صكا كـــأنـهُـم
يُخـــافُ عليـــهم في الجــبـــاب التــفلُّتُ

(١) اختصار القدح ٢٨ – ٢٩.
(٢) المغرب ٢/٤٦٩.
(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ٢٥٧ – ٢٥٨.
(٤) دولة الرئيس سعيد بن الحكم.

كــــانـي لعــــزرائيل صــــرتُ مناقــضًـــا

بمـا هـو يمحـــــــو كـلّ يـومٍ وأُثْـبِتُ

فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم وأعفاه[1]، ومن الشعراء الذين وفدوا على منورقة في عهده:

– أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، الذي توجه إلى منورقة بعد سقوط إشبيلية في يد الإفرنج، وأقام بها، ومدح صاحبها أبا عثمان، فقال فيه:

أيــا مــــــــــسكــة دَارِيـــنِ

وريْـحــــــــــانَ الــريــاحــينِ

ومــــــــاوى كـلّ مـــــــضـطـرٍ

لــدنـيــــــــــاهُ ولــلــدِّيــنِ[2]

وممن ورد عليه ومدحه أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني الجياني كاتب ابن الأحمر، ومتقلد الكتابة والقضاء بعد ذلك في تونس، يقول فيه:

تُفنى الكتـــائبَ بيض من قـــواضـبـــه

مــفلولةً وتشي أقـــلامُـــه الكُتُـــبـــا

فـــقـــد أعـــدَّ حُـــســـامًـــا للجـــلاد بـه

وللـجــــدال لـســـــانًا مـــــثلـه ذربـا

في كــــفِّـــــه قلمٌ مـــاضٍ يُريك بـه

اغنى من القُــضب الهندية القَـضَـبـا

يمضي بمـا شـــاء من نفعٍ ومن ضـــررٍ

في كلِّ خطبٍ لـه حـــدُّ الحُـــســـام نبـــا

يحكي شـبـاهُ خـضـيـبًـا بالمداد شـبًـا

مُـهند بالدم المسـفـوك قـد خُـضـبـا

---

(١) الإحاطة ٢/٢٤٩.

(٢) اختصار القدح ١٨٠.

كـــــأنَّ آثـاره فـي الـطـرس رائـقــــةً

آثـارُ غـــيثٍ يُـغــادي الـروض منسكبــا[1]

وهذا أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي الذي ألف في ميورقة كتابًا على طريقة العماد في الفتح القدسي، يثني علي سعيد بن الحكم ويمدحه، ويذكر صلة القربى التي تجمعه به، فيقول:

فـــدتك أبا عـــثــمـــان أنفــسُنا التي

أعنَّةُ ذاك الفــضل قـــادتْ عِـــرابَهـــا

وعنديَ يا ابن العم فـــيـــهـــا أليَّـــةُ

عـــرفتُ يقـــينًا برَّها وصـــوابَهـــا

بـأنَّ المعـــالي لو جُـــمــعن مــســائلاً

على الحـصـر فـيـهـا كنت أَنتَ جـوابَهـا

وخاطبه أيضا:

وجــدنا سـعـيـدًا سـعـدُه قـد قـضى به

عـلى الـرغم ربُّ الـنجـم قـــبـل المـنجِّمِ

فـــــقُلْ حــــاتم إن لُذتَ مـنه بمـطعمٍ

وإن تُذكـــر الأنســـابُ تـلق ابـن مُطعمِ

تـاخـــرُهُ واللّهِ يُبـــقـــيــه حُــجَّـــةً

على من يقـــول الفــضلُ للمُـــتـــقـــدِّمِ

وأجمل ما مدحه، وذكر ما تمتع به من صفات قوله يخاطبه:

ومـــجــدُ ســعـــيـــدٍ لا يزال حـــديثُـــه

يطيبُ عـلى الأســـمـــاع حـين يكررُ

لـئن كـــثـــر العـــافـــون حـــول فنائه

فـــقـــد وجـــدوا آلاءه وهي أكـــثـــرُ

---

(٢) اختصار القدح ٢٢ - ٢٣.

حَمَى ثُم آوَى ثم أعطى ثلاثةً

فأزمنةُ الدنيا الثلاثةُ تشكر[1]

ومن أروع ما قيل في صاحب هذا البلاط ما مدحه به الفقيه الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن، فظل قولاً مأثورًا على الزمان حيث أرسل تلك البطاقة المدحية فقال:

لأُرسلنَّ قولةً

تُؤثرها عني الأُممْ

وتغتدي مقبولةً

ما بين عُربٍ وعجمْ

أقسمُ بالله العظيمِ

وهو أعظم القسمْ

ما أبدت الدنيا لنا

مثل سعيد بن حكمْ[2]

ومن روائع معاني هذا الشاعر هو تصويره البحر عينًا ومنورقة مقلة وسعيد بن الحكم نورها، فيقول:

أيا من به قد أينعتْ لي وأسمحتْ

على الدَّهر نُوار الأماني ونَوْرُها

بدا للعِيان البحرُ عينًا بصيرةً

«مُنُرْقَةُ» فيها مُقلة أنت نُورُها[3]

ومن بديع المدح قول أبي عبدالله محمد بن الأبار في تلك العلاقة التي جمعت منورقة بأبي عثمان:

ألِفَتْ أبا عثمانها ذا سيرةٍ

عُمَريَّةٍ توليه ما يوليها

فتألفتهُ وأزلفتهُ مجاهدًا

يسمُو لكلِّ رميةٍ يُصميها

---

(١) المصدر نفسه ٤٩.

(٢) المصدر السابق ٥٦.

(٣) المصدر نفسه ٥٧.

ثم يعدد لنا صفات هذا الندب الكريم، فيقول:

ندب إلى الخيرات منتدبٌ فلنْ
تصف الديانةُ بعض ما يُصفيها

ذاتُ الإله بها علاقةُ ذاته
تعلو مظاهرةً لمن يُعليها

فكُّ الرقاب صنائعًا مُذْ قام لمْ
ينفك يأتيها كما يُؤْتيها

ولقد كسا حتى الصحائف جدةً
من جودهِ وأفادها تنبيها

صدرت وقد وردت على معن الهُدى
فتكسَّبَتْ في حالتيها تيها

لا زال ثغرُ سدَّهُ يزهى به
ويعزُّ عزَّةَ من حماهُ شبيها[1]

لم آلُ مدحَ خصاله وخلاله
لكن عجزتُ رويَّةً وبديها

ويجمل لنا هذه الصفات ويضيف إليهَا في قصيدة مدحية أخرى فيقول:

سيِّدُ أيِّدُ رئيسُ بئيسُ
في أساريره صفاتُ الصباحِ

قمرُ في أفق المعالي تجلَّى
وتحلَّى بالسؤدد الوضَّاحِ

سلْم البحرُ في السماحةِ منْهُ
لجوادٍ سَمُوْهُ بحرَ السَّمَاحِ[2]

****

(١) معجم الصدفي ٣٢٦.

(٢) نفح الطيب ٣/٤٦٧.



الفصل الثالث

موضوعات الشعر في البليار

هل هناك خصوصية لموضوعات شعر البليار؟ أم أنها تجري مجرى أخواتها في الأندلس خاصة، وفي الشعر العربي عامة؟

لا شك أن موضوعات الشعر في البيئات العربية المتعددة قد تماثلت، ومع هذا التماثل يبقى لكل بيئة ما يميزها من غيرها من البيئات، ولعل لجزر البليار بعض هذه الخصوصية التي تجعلها متميزة من خلال ظروفها التاريخية والسياسية، ،ومن خلال موقعها وبيئتها الجغرافية الفريدة.

وإذا ما رحنا نبحث عن هذه الأغراض في ما حصلنا عليه من شعر هذه الجزر، فإننا نستطيع أن نصنفه في الموضوعات التالية: «المدح، والوصف، والغزل، والإخوانيات والمراسلات، والبليار في الشعر، وأغراض أخرى».

١ - المدح:

المدح غرض تقليدي، وهو هنا يسير في اتجاهين:

الأول: مدح أمراء وحكام البليار من لدن مجاهد العامري وابنه علي ومرورا بناصر الدولة مبشر بن سليمان وانتهاء بآخر أمراء هذه الجزر سقوطاً وهو سعيد بن الحكم، وإذا كانت بداية المدح مع مجاهد وابنه، فإن ناصر الدولة وسعيد بن الحكم حظيا بنصيب وافر من قصائد المدح.

الثاني: مدح شعراء البليار لملوك الطوائف كالمعتضد بن المعتمد بن عباد، ويحيى بن حمود، ومأمون ذي النون وغيرهم كثير.

ومع أننا لا نستطيع إظهار صورة المدح أو أي موضوع من موضوعات شعر البليار بما نريد لفقدان الكثير من شعر هذه الجزر وشعر الوافدين عليها، فسنحاول - بحول الله - من خلال ما عثرنا عليه من شعر أن نرمم الصورة، وهي وإن لم تظهر واضحة مجلوة، فإنك تستطيع أن تبينها وتقدر ملامحها وتتملى بهاءها.

ولعلي ألمح من خلال قصيدة المدح في حكام البليار ثلاثة أمور:

أولها: مدح مجاهد العامري له لون خاص من الجدية والرصانة، فشخصيته الفذة، وقدراته العسكرية والعملية فرضت على الشعراء أسلوبًا في المدح يوازن بين هذين الجانبين اللذين ظهر فيهما مجاهد.

ثانيهما: مدح ناصر الدولة مبشر بن سليمان تحس فيه المبالغة والعاطفة الفاترة التي تميل عن المدح وتخرج عنه إلى أغراض أخرى تتكئ عليها تبريرًا لهذه العاطفة.

ثالثهما: مدح سعيد بن الحكم يتميز بقرب مأخذه وصدق عاطفته، ولطافة مدخله، فلا نحس بالحاجز الذي يفصل المادح عن الممدوح، وكأن الشاعر لا يمدح حاكمًا بمقدار ما يثني على صديق رضي أو خلٍّ وفيّ.

وقد تلحظ اشتراكًا في بعض عناصر المدح كالكرم والشجاعة والقوة، إلا أنك تشعر بهذا الإحساس الذي يظهر لك هذه الفروق واضحة جلية فمجاهد العامري على الرغم من كونه صقلبيًا إلا أنه استطاع أن يروض صعب الأمور فانقاد الزمان له:

مجاهدُ رُضت إباء الشموس فأصحب ما لم يكن يُصحبُ

فقل واحتكم لي فسمع الزمان مُصيخٌ إليك بما ترغبُ[1]

وهمته تسمو فوق الهمم، وتضعُ رايتها فوق هام الثريا:

---

(١) معجم الأدباء ٩/١٧/٨١.

كـــــأنَّ الـثـــــريًا بـهـــــا رايـة
يـقـــــــود الموفقُ أبـطـالَـهــــــــا[1]

أما الكرم فهو معينه الذي لا ينضب كما يقول ابن زيدون على لسان المعتضد:

أفــــــدي أبـا الجــــيش الموفق إنّـه
لِلْمَكْرُمـــــات مُـــيـــسَّـــرٌ ومــــوفَّقُ

وأخيرًا فهو رب السيف والقلم معا، وفيه يقول أبو حفص بن برد الأصغر:

لـولا طـلابي غـــــربـت المدح فـــــيـك لما
وصــفـت قـبـل عــلاك الســيف والقلمــا

وصفة الكرم المشتركة نجدها في مدح ناصر الدولة مبشر بن سليمان، فراحته هي البحر المحيط:

بـراحـــتـــه بـحـــرٌ مُــحـــيطٌ مُـــســخَّـــرُ
يُفـــاد الغنى فـــيـــه ولا يُذعـــرُ الركبُ[2]

ويعطي عطاءً لا يعطيه غيره من الملوك حتى لو استمطر العطاء بذكره لانصبَّ عليهم، وأخصب الجديب:

لـو اســتــمطر الناسُ الـغــمـــامَ بذكـره
لقـام على الصلد الـصـفـا لـهمُ الخِـصْبُ[3]

وهو خصيب نواحي الفضل مهما كثر المعتفون:

ســـمحٌ وإن كـــثُـــرَ العـــفــاةُ بمـالـه
وبمـاء أوجُـــه ســـائليـــه بخـــيلُ[4]

ومغاليق الأرزاق مفاتيحها بيده، كما يقول ابن اللبانة:

مـــغــــالق الأرزاق مـن كـــفـــه
قـــد آذن اللـهُ لـهـــا بـانـفـــتـــاحْ[5]

(١) الذخيرة ٢/٢/٧٩٦.
(٢) شعر ابن اللبانة ص١٨.
(٣) المصدر نفسه ص١٨.
(٤) الذخيرة ٣/٢/٦٨٩.
(٥) شعر ابن اللبانة ص٣٠.

أما القوة والقدرة فيظهر ذلك من قصيدة أبي المظفر البغدادي، فناصر الدولة مصيب الرأي ثابت الجأش، إذا ما شمرت الحرب عن ساقها خاضها بعزم لا يضاهى، وخرج منها وقد جعل تيجان رماحه على رؤوس الأعداء وغابت خيله حتى الحجول في دمائهم:

وإذا الوغى حدر الكماة لثامَه

ومشَى بسرٍّ المشرفيِّ صليلُ

ورماحهُ تُوِّجْنَ من هام العدا

ولخيله بدمائهم تنعيلُ[1]

ومع ذلك فالوغى تتهيبُه وتخشاه:

وقف الوغى منهُ على ذي هيبةٍ

يقفُ العزيز لديه وهو ذليلُ[2]

لماذا تخشاه الوغى وتخافه لأن بأسه بأس عليّ. والعزم عزم الإسكندر:

ملك أزِرَّةُ بُرده ضُمَّت على

بأس الوصيِّ وعزمة الإسْكَنْدَرِ[3]

ومن خلال ما أوردناه في مدح ناصر الدولة لعلك تلحظ معي الجنوح إلى المبالغة التي استوفيت الحديث عنها وعن أسبابها في شعر ابن اللبانة، ولعل ذلك ما حدا بصاحب نفح الطيب أن ينقد مدح ابن اللبانة لناصر الدولة حيث قال: «ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها:

ملك يروعك في حلى ريعانه

راقت برونقه صفات زمانه

وأين هذا من أمداحه في المعتمد؟[4]

(١) الذخيرة ٣/٢/٦٩٠.

(٢) شعر ابن اللبانة ٨٥.

(٣) شعر ابن اللبانة ٥٥ .

(٤) نفح الطيب ٤/٢٥٩-٢٦٠.

وهذا ابن حمديس يمدحه بقصيدة لا يذكره إلا في خمسة أبيات ثم يُعرض عنه ليصف خيلاً أهديت له، والتي مطلعها:

جـــاءتك أولاد الـوجــــيـــــهِ ولاحق

فــأرتك في الخلق ابتـــداعَ الخـــالق(١)

ولعل ملحوظتنا عن المدح في ناصر الدولة تفسر سبب عدم رضى الشعراء الوافدين عن الإقامة في كنفه كما أوضحنا ذلك في حديثنا عن ابن اللبانة وابن حمديس وأبي جعفر البني وغيرهم.

أما مدح أبي عثمان سعيد بن الحكم حاكم منورقة، فهو إلى قرب مأخذه، وسهولة نظمه يتميز بتلك الألفة التي تجمع المادح بالممدوح، وإذا كان قد ذكر بخصلة الكرم المشتركة والتي شهر بها، فقد خصص بخصلة الأدب التي توافر عليها، وجمعته بأدباء وشعراء عصره فأبانت عن علاقة صميمة جعلت هذا الحاكم يثني على الشعراء ويمدحهم كما يمدحونه، وكأننا نحس بسريان نسيم البلاط المعتمدي وما جرى بينه وبين شعراء عصره، باختلاف يسير، وهو أننا نحس هنا بكثير من التواضع والشعور بالمساواة، فإذا أثنى أبو الحسن علي بن موسى صاحب القدح المعلى على شعر أبي عثمان، وأبان عن محاسنه فقال:

إنما شـــــعـــــــرُ الرئيس ابن حَكَمْ

بـدعٌ مـن كـلِّ فـــــــــــضـلٍ وحِكَـمْ

لو بنُو حـــمـــدانَ أصْــغَـــوْا نحـــوهُ

حـــمـــدوا البـحــر الذي فـيـه انتظمْ(٢)

فإننا نجد أبا عثمان يثني على شعر أبي الحسن فيقول:

مــــا رأينا كــــعـلـيٍّ بن مــــوسى

يســتـــبي بالشـــعــر منا النفُــوسـا

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٣٠.

(٢) اختصار القدح المعلى ٢٨.

قــد أرانـا الشــعــرَ ســحــرًا حــلالاً

ســائـغًــا لـو نـحــتـسـيــه كــؤوســا

إنّ أبـيــــات علـيٍّ علـى الشــــعــ

ـر علـت حــــتى تجلت رؤوســـــا

مــــثلُهُ من طاب جنسًـــا ونفْــسًـــا

إنما يمـنح عِلْقًـــا نفــيـــســـا

لا عـــــدمناهُ خليــــلاً جليـــــلاً

نجـدُ الفـضل عليــه حـبـيـســا[1]

وهذه المعاملة بالمثل لا تقفه عند شاعر بعينه، فها هو ذا يقول في أبي الربيع التينملي الذي زاره موفدًا من قبل الدولة الحفصية بعد أن بالغ في إكرامه:

ســـــلام لا يـزالُ مـــــدى الـزمـــــان

من الحــــال المحـــيلة في أمـــانِ

أخُصُّ به حــــبـيـــبـًــا حلّ منِّي

مــــحلَّ الأمن من نفس الجــبـــانِ

أصــــونُ ودادهُ مــــا دُمتُ حــيًّـــاً

وليس ســــوى فُــؤادي من صُـــوانِ

وأذكُـــرُ عـــهــدهُ فــأذُوبُ شــوقًـــا

إلـيـــــه حـنـان عُــــــذريِّ الحنـانِ

ســـألت من الزمـــان لقـــاه فـاسـ

ـتـــجـــاب لنا على بُخلِ الزمـــانِ

لقـــاءُ أبـي الـربـيع أقـــرُّ عـــيـني

وأدنى لي القـــصي من الأمـــاني[2]

---

(١) المصدر نفسه ٢٨.

(٢) اختصار القدح ٣٤.

وهذا يدل على ما ذكرناه من تواضعه، ومن مزية خاصة به، جعلته كما قال ابن سعيد: «كهف الغرباء ومأوى كل طريد». فشهد الشعراء بعميم فضله، وآثروه بالمدائح كما آثرهم بالمنائح، كيف لا؟ وهو يرى نفسه أداة لهم، وهم له حياة:

أنــا لـلــكــاتــب الـظــريــف أداة
ولقــد كــان قــبل ذا لي حــيــاة[1]

من خلال هذه المعاملة الكريمة، وهذا الخلق الذي لو نافس النسيم في الرقة لغلبه، أقبل عليه الشعراء من كل حدب وصوب، وأقبل هو عليهم، فصفت هذه العلاقة صفاء فجر وضاء، ورقت رقة الماء السلسبيل، فأنتجت لنا جميل الرواء من المدح الصادق، فهذا أبو المطرف المخزومي يفديه بنفسه، ويذكر بوشائج الرحم التي تجمعهما:

فــدتك أبا عــثــمــان أنفــسنا التي
أعنة ذاك الفــضل قــادت عــرابهــا
وعنديَ يا ابن العمِّ فــيــهــا أليَّــةٌ
عــرفتُ يقــينا برَّها وصــوابهــا
بأنَّ المعــالي لو جُــمــعنَ مــســائلاً
على الحصر فيها كنت أنت جوابها[2]

وانظر إلى هذه الأبيات لأبي القاسم بن يامن التي بلغت ذروة الروعة والجمال ليسرها وعلوقها بالقلب، فذهبت مثلاً على صدق مقولتنا:

لأرســلنَّ قولــةً	تُؤثرها عنِّي الأمــمْ
وتغتدي مقبولةً مـا	بين عُربٍ وعجــمْ
أُقسمُ بالله العــظـ	ـم وهْو أعظمُ القسمْ
مـا أبدت الدنيا لنا	مثل سعيد بن حكمْ[3]

ثم لا يلبث الشاعر فيقدم فؤاده هدية عله يردُّ بعض ما ينبغي:

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر السابق ٤٩.
(٣) المصدر نفسه ٥٦.

لك الفـــضلُ مـــولاي في كلِّ حـــالٍ

ولم يزل الفـــضلُ وقـــفًـــا عليكْ

بعـــثتَ الحـــيـــاة ببـــعث الســـلام

وقـــبلُ بعـــثتَ الحـــيـــا من يديكْ

وإن لـم أطـق ردُّ مـــــا ينبــــــغي

فـــهـــذا فـــؤاديَ مُـــهْـــدًى إليكْ[1]

وختام مدحه مسك، وفي ذلك يقول ابن العوام الإشبيلي:

أيا مسكة داريـــنِ وريحان الرياحينِ

ومأوى كل مضطرٍ لدنيـــاهُ وللدينِ[2]

٢ - الوصف:

إذا كان غرض الوصف قد غلب على الشعر الأندلسي لما حبا الله هذه البيئة من جمال أخاذ وطبيعة ساحرة، فإن جزر البليار هي جزء من تلك البيئة، أو لعلَّ لها خصوصية تميزها وتفردها لموقعها ومكانتها، ونكاد نلمح عددًا ضخمًا من الموصوفات، لكنني أود التركيز على الغالب المشهور الذي نال عناية الشعراء واستأثر باهتمامهم.

وصف الطبيعة:

الطبيعة بمفرداتها: الليل والنهار، والبحار والأنهار والرياض والأزهار تشغلهم وتحظى بالنصيب الأوفى من أشعارهم.

وقد افتن شعراء البليار والوافدون عليها في وصف جمالها ورياضها وأزاهيرها، فظهرت في سحر رسومهم، وعذوبة أنغامهم، وأناقة ألفاظهم، وجمال صورهم وتشبيهاتهم، ولعل قراءة هذه الأشعار تستطيع أن تنقلك إلى ذلك الحفل الرائع الذي اختلطت فيه الظلال بالألوان، والأصوات بالأنغام والروائح بالأشكال، حتى ترى امتزاج الطبيعة بالشعر امتزاج الماء بالخضرة.

---

(١) المصدر نفسه ٥٨.

(٢) المصدر نفسه ١٨٠.

فإدريس اليابسي يتتبع أنواع الزهور المختلفة: من الياسمين إلى البنفسج فالسوسن فالخيري النمام إلى آخر قائمة هذه الزهور الرائعة الألوان الأخاذة التصميم، النفاذة الرائحة، من ذلك قوله في أرض أزهر فيها البنفسج:

وأريضةٍ حاك الغمامُ بُرودَها
وسقى بريق الغانيات بَرودَها
ضحك البنفسج فوقها فكأنما
نثرت به خُضرُ الحمام عقُودَها[1]

ومن جميل روائعه في البنفسج تشبيهه لونه بلون أطراف الثدي حيث يقول:

فُتِقَ الثَّرى من نَوْره بكواكبٍ
دُعْجِ النواظر والخدود عجائبِ
فأدر عليَّ الكأس بَيْذَختيَّةً
في دولة النجم الرفيع الثاقبِ
طبعُ الربيع على بشاشته به
طبعُ الشَّبيبةِ فوق ثَدْيِ الكاعبِ[2]

ومن أوصافه المستطرفة وتشبيهاته المستظرفة قوله في السوسن:

مُمهًّى الحُسن مشقوقُ الجيوبِ
لهُ وجهُ البريءِ من الذُّنوبِ
تَفَرَّجَ عن مناكبه قميصٌ
تَفَرُّجَ لوعةِ الدَّنِفِ الكئيبِ
وقد عُلَّتْ عمامتُهُ بوَرْسٍ
فقام بلا خطابٍ كالخطيبِ
على أنبوبِ كافورٍ يراع
تضمَّنَ بطنُهُ ينبوعَ طيب[3]

---

(١) البديع في وصف الربيع ١١٢.

(٢) البديع في وصف الربيع ١١٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٤٠.

فهذه القطعة التي بناها على وصف القائم في وسط السوسنة تمزج بين العواطف والحالات للطبيعة الصامتة والمتحركة، فما أجمل هذا الوصف فزهرة السوسن تطل علينا كوجهٍ طلقٍ بريء، وقد انفرجت وريقاتها كتفرج لوعة المحب بروعة اللقاء.

وهذا عياش بن حوافر يصف الليل فيجعل السماء حديقة خضراء والمجرة جدولاً دفاقًا:

يا رُبَّ ليلٍ قد تعاطينا به
كأسَ السهادِ نعُلُّ منهُ وننهلُ
وكأنما أفقُ السَّماء خميلةٌ
والزُّهرُ زهرٌ والمجرةُ جدولُ[1]

وهذا الليل قد شد أزره وألحم ثوبه عليه، ومن بعيد يرنو ذاك الفجر بخيوطه البيضاء:

والليل قد سدَّى وألحمَ ثوبهُ
والفجرُ يُرسلُ فيه خيطًا أبيضا[2]

أما اليابسي أبو علي فيجعل للفجر برقعًا والليل مسدول الرواق:

والفجرُ ملويُّ النقاب مُبرقعٌ
والليلُ مسدولُ الرواق مطنَّبُ[3]

وهذا ابن اللبانة يؤكد هذا المعنى ولعله سابق لعياش بن حوافر حيث ينقل السماء إلى الرياض، فيقول:

أديراها على الروض المُندَّى
وحكمُ الصُّبح في الظلماء ماضِ
وكأسُ الراح تنظرُ عن حبابٍ
تنوبُ به عن الحدق المِراضِ
وما غرُبت نجوم الأُفق لكنْ
نُقِلْنَ من السَّماء إلى الرياضِ[4]

---

(١) بغية الوعاة ٢/٢٣٩ وهامش تحفة القادم ٢٤٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٦٠.

(٣) الذخيرة ق٢ م١ ص٣٤٠.

(٤) ريحانة الألبا ٢/٢٨٥.

ويرى الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم جارية تحمل في كفها زهرة فيقول:

نُوارة تحمل نُوَّارةً
أبهتني أيهما أبهجُ
كأنها في كفها شمعةٌ
خضراءُ لكنْ رأسُها مُسرجُ[1]

وهو يمزج بين الوصف والغزل ويقابل مقابلة حسنة بين ضمة الورد والمرأة فالحسن والريح والتثني صفات جامعة فيقول:

هاك باكورةً من الورد تحكي
خدَّ ظبيٍ يدمى بلحظ العيونِ
فتذكر بريحها ريحه إذ لسْـ
ـتَ تنسى انثناءةً بالغصونِ[2]

وابن اللبانة يصف النيروز من قصيدة يمدحُ بها ناصر الدولة فيقول:

يا كوكبَ النيروز في بهجةٍ
أسنى من البدر المنير اللياحِ
جاءت عطاياك تهادى به
تَهَادِيَ العير غداة اقتراحِ
لو أنَّ لي قوةَ عهدِ الصِّبا
لم أتركِ النيروزَ دون اصطباحِ
يومُ رقيقٌ ناثرٌ ناظمٌ
كافورُه فوق الربى والبطاحِ[3]

وإذا كانت الأزهار هي شغلهم الشاغل فقد انشغلوا بالثمار أيضًا، فهذا الرئيس ابن حكم يصف السفرجل وصفًا جميلاً جمع فيه بين صفاته وصفات العذارى من لون وقسوة، فيقول:

---

(١) اختصار القدح المعلي، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٣٣.

(٣) شعر ابن اللبانة ص٣١.

وجـــوارٍ خـــمسٍ كُـسينَ اصـــفــــرارا
إذْ سُلبن الـذي لـبـــســن شـــعــــــارا
قـــــاســــــيـــــاتٍ وكُنَّ للـين أهـلاً
أيُّ عُـــذرٍ فـي قـــســـوةٍ لـلـعـــذارى
من بـنـات الـريـاض أمـــســين أحـــــرا
رًا وأصـــبـــحـن في الأكُفِّ أســـارى
كُنَّ بـالـبـــدر عـــاكـــفـــاتٍ فـــمـــا إنْ
كـــان مـــا يـلتـــحـــفن إلاّ اغـــبــرارا
وَجَلَّ لـيلةَ الـبـــراء[2] كـــســـــاهنَّ
اصـــــــفــــــرارًا ألـم تـر الأبـكـارا؟[1]

وتنال الطيور عناية الشعراء بمناظرها الجميلة، وأصواتها الغريدة، وحركاتها البديعة، فابن اللبانة يصف عصفورًا بلله قطر الندى، فيقول:

ذكَّـــرهُ عـــهــدَ الـصـــبـــا ســاجعٌ
مـــدَّ جـنـاحًـــا والـتـــوى فـي جـنـاحْ
بـللـهُ قطرُ الـندى فـــاغـــتـــدى
يـنفضُ ريشًـــا سـندسيٌّ الـوشـــاحْ[3]

وقد أجاد إدريس اليابسي في وصف الحمامة، إذ لم يتوقف عند صوتها أو شكلها، أو جزء من جسمها، وإنما جمع ذلك في قدرة فائقة وصنعة متقنة، فقال:

وَرْقـــا مطوقـــةُ السَّـــوالفِ سندسًـــا
لم يحكِ صنعـتـــهـــا حـــيـــاكـــةُ حـــاكِ
تشـدُو على خُـضـر الـغـصـون بألسُنٍ
صُـبـــغتْ مـــلاثمُـــهـــا بلا مِـــســـواكِ

---

(١) اختصار القدح ٣٣.

(٢) ليلة البراء: أول ليلة في الشهر.

(٣) شعر ابن اللبانة ص٢٩.

وكـــأنَّ أرجُلـهـــا الـقـــواني ألبـــستْ

نعـــــلاً من المرجـــــان دون شـــــراكِ

وكـــأنـهـــا كُـــحِلَتْ بنار جـــوانحي

فـــتـرى لأعـــينـهـا لـهـيبَ حـــشـاكِ[1]

وصف أدوات المعركة:

الجيش بكثرته وضخامته وثقل أدواته تتقلقل منه الأرض، هذا القلق والازدحام في الأرض، يتبعه تشابك وتزاحم في السماء كما يقول ابن العطار اليابسي:

فـــالأرض تقلق من جـــيشٍ قـــفلتَ به

والجـوُّ يعـــثـر فـيـــه من قنًا وظبــا[2]

وأول وأهم أدوات المعركة السيف، فهو الحد القاطع والنور الساطع:

إذا سلَّ في الهـــيـــجـــاء وهي دجنةٌ

تالق فـــيـــهـــا للصـــبـــاح عـــمـــودُ[3]

ومن أروع الأوصاف لهذه الأداة الرئيسة في الحرب، قول ابن العطار يصفه بشدة التوقد كالنار الملتهبة، وسرعة التموج حيث يترقرق اللمعان في صفحته كالماء، وكأنه جمع الأضداد والمتناقضات، فأنت تجد في صفحته الماء والنار، كما يقول:

واجْلُ الظلامَ بوقّـــاد الفِـــرِنْدِ كـــأنْ

في صـفـحـتـيـه جـمـعتَ الماء واللهـبا

ومن جميل الوصف وروائع التصوير وعذب التشبيه شدو السيوف، فالسيف يغني، ولغنائه وقع:

تشـدو بـهـام المشـركين فـيـعـتـري

أُذن الهـــدى لغنائهـــا إصـــغـــاءُ[4]

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص ٣٤٥.

(٢) الذخيرة ق٤ م١ ص ٣٧٩.

(٣) الذخيرة ق٣ م١ ص ٣٥٨.

(٤) المصدر السابق ٣٧٩.

ويلتذ الأبطال لسماع هذا النغم الشجي والصوت الندي:

نغمُ السيوف ألذ ما هو سامع

ومنى النفوس أقلُ ما هو باذل[1]

وما أجمل ذلك الصدى في مجاوبة السيوف لصهيل الخيل:

وشدا صهيلٌ مطربٌ فأجابه

من نحو ألسنة الغُمود صليلُ[2]

والخيل هي عدة الحرب وأدواتها المفضلة في المعارك البرية، وإذا كان الشاعر العربي في الأندلس يتكئ على تراثٍ زاخر بأوصاف الخيل في جميع حالاتها، فإن هذه الأوصاف التقليدية لا بد وأن تنسرب في ثنايا وصفه، فهذه الخيل قصيرة الشعر تقيد الأوابد:

من كلِّ أشوسَ سامي الطرف منجردٍ

قيد الأوابد سبَّاقٍ لما انتُدبا[3]

وهي غرّ محجلة عرابٌ أصيلة:

غُرٌّ محجّلةٌ تكامل خلقُها

بمُجانسٍ من حُسنها ومُطابقِ

كرُت ذخائر عربها في عتقها

وشَأَتْ بفضلة عَدْوِها المُتلاحقِ[4]

ويؤكد إدريس اليابسي على عتقها وأصالتها:

القائدُ الجرد العتاق كأنها

لججٌ زواخرُ أو عوارض لُمَّعُ[5]

(١) المصدر نفسه ق٢ م١ ص٣٥٧.

(٢) شعر ابن اللبانة ٨٤.

(٣) الذخيرة ق٤ م١ ص ٣٧٧.

(٤) ديوان ابن حمديس ٣٣٠.

(٥) الذخيرة ق٢ م١ ص ٣٥٥.

ولعل وصف الخيل في أغلب الشعر الأندلسي، ومنه الشعر في جزر البليار لم يتوقف أمام الخيل طويلاً، أو بتعبير أدق لم نجد الشاعر الأندلسي في الأعم الأغلب يميل إلى إفراد وصف الخيل في قصائد ومقطعات، وإنما كان هذا الوصف يأتي عرضًا في قصيدة المدح، فيذكر الخيل كأداة من أدوات الحرب لا بوصفها جزءًا من أجزاء الطبيعة الجميلة، أو أداة من أدوات الصيد واللهو، أو تلك العلاقة الصميمة بين الفرس وفارسها كما عهدنا في شعر المشرق.

والخيل في شعر البليار أداة من أدوات الحرب، ترد في ثنايا قصيدة المدح، فهي كالعقبان تنقض على فريستها:

خيولٌ كعقبان الدّجون وكلُّها

لكلِّ صيودٍ في العجاج صيودُ(١)

وهي البحور واللجج الزواخر:

هي البحور ولكن في كواثبها

عند الكريهة منجاة من الغرقِ(٢)

وهي حباب وعباب، وقد اجتمع في قول إدريس اليابسي:

حبابٌ ولكن ليس يثنيه ذائدٌ

عبابٌ ولكن ليس منهُ سدودُ(٣)

جمال التجنيس بجمال الوصف حيث تلك الحركة المنسابة المتموجة للحباب، وذلك الموج المتراكب المتدفق العارم الذي لا يقف في وجهه شيء.

وإذا كنا التقينا بنغم السيوف وصهيل الخيل المطرب فابن حمديس يجعل غناء الخيول يتفوق على غناء معبد ومخارق:

وإذا تغنّى بالصهيل مُطرِّبًا

انسى أغاني معبدٍ ومخارقِ(٤)

---

(١) الذخيرة ٣/١/٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه ٤/١/٢٧٩.

(٣) المصدر نفسه ٢/١/٣٥٩.

(٤) ديوان ابن حمديس ٣٣١.

والسفن في البحر تقابل الخيل في البر، بل هي هنا أوجب وأهم، فالمعارك البحرية في جزر متقطعة في البحر يأتيها الأعداء بأساطيلهم من كل حدب وصوب أكثر شيوعًا لذلك فإن وصف السفن والأسطول أكثر ألفة من وصف الخيل، وهذا زورق البحرية يبدو ويختفي كالحية التي تتموج فوق الرمال والكثب:

يبدو على الموج أحيانًا وتضمره
كالأيْمِ يعتسفُ الأهضامَ والكثبا
أمطاك عزمُك منهُ متن سابحةٍ
خلت الحباب على لباتها لهبا[1]

وإذا كانت العروض البحرية العسكرية سمة من سمات الدول البحرية، فجزر البليار بنات البحار، وإذا كانت الأساطيل تجوب البحر فتحًا أو تجارة أو قرصنة أو اعتداءً فلا بد من الاهتمام بالأسطول، لأنه رأس الحربة في الدفاع، وقلعة البلد وسورها الحصين.

وهذه العروض تقام دائمًا احتفالاً بالنصر، أو تدريبًا للأسطول، أو إظهارًا للقوة، وفي ذلك يصف لنا ابن اللبانة عرضًا بحريًا رائعًا، هو يوم مهرجان حقًا، فهذه السفن الحربية تتدفق على الخليج كتدفق مياهه، يمتطي ظهرها المحاربون باقتدار ومهارة كما يمتطون ظهور الخيل، ويشقون عباب الماء في سرعة خاطفة بعد أن قدموا التحية للأمير ناصر الدولة بهزة المجاديف، يقول:

بشرى بيوم المهرجان فإنَّهُ
يومٌ عليه من احتفائك رونقُ
طارت بناتُ الماء فيه وريشُها
ريشُ الغراب وغير ذلك شونقُ[2]
وعلى الخليج كتيبةٌ جرارةٌ
مثلُ الخليج كلاهُما يتدفقُ

---

(١) الذخيرة ٣٧٨/١/٤.

(٢) الشونق: الصقر أو الشاهين.

وبنو الحــــروب علــى الجــــواريَّ التي

تجــري كـمــــا تجــري الجــيــادُ السُّـبَّقُ

خـــــاضت غـــــدير الماء ســـابحـــــةً بـه

فكأنَّمـــــــا هـي في ســــــرابٍ أينُـقُ[1]

مـــــلأ الكمـــــاةُ ظهــــورَها وبطونَهـــــا

فـــاتت كـمـــا يأتـي السَّــحــابُ المغـدقُ

عـجـبًـا لهـــا: مـــا خلتُ قـبل عـيـــانهـــا

أن يحـــــمل الأُسْـــدَ الضَّـــواري زورقُ

هزت مـــــجـــــاذيفًـــــا إليك كـــــأنهـــــا

أهـدابُ عينٍ للرقـــــيـب تُحـــــــدَّقُ[2]

٣ - الغزل:

يلتقي هذا الغرض مع الغرضين السابقين، حيث تبدأ به قصيدة المدح، ويتداخل مع الوصف، والغزل في شعر البليار لا يختلف عن مجرى الغزل في الشعر الأندلسي، ففيه التقليدية وفيه الغزل العف والماجن، والغزل بالمذكر، وسماته الخلط بين أدواته وأدوات الحرب والطبيعة. فالتقليدية نجدها في تلك المواقف الغزلية التي يقفها الشاعر بين يدي قصيدة المدح، وخير من يمثل ذلك قصائد إدريس اليابسي وابن اللبانة، وسوف نعرض بالحديث عن غزلي هذين الشاعرين، ونورد هنا بعض ما لم يرد هناك، فهذا ابن اللبانة يوظف الغزل لقصيدة المدح في تقليدية واضحة من حيث وصف القدود بالغصون، والمرأة بالظبي، يقول:

وفـي ســـــدرة الـوادي مـن الـحـيِّ شـــــادنٌ

ربيبٌ ولكن في عـــــرينة ضَـيْـــغَمِ

يـديرُ عـلـيَّ الـراحَ مـن لحـظ نـاضـــــــرٍ

ويمنعُنيـــهـــا من ثنيَّـــةِ مـــبـــسمِ

---

(١) اينق: مفردها ناقة.

(٢) شعر ابن اللبانة ق٢ م١ ص٢٤١ وشعره.

رمــانـي بـعـــينيـــه وثنّى بســـهــمــه
فـــــاثـبتَ في قـلبـي ثـلاثـةَ أسـهـمِ[1]

وهذا إدريس يقدم لقصيدة في مدح المأمون بن ذي النون، فيتحدث واصفًا الخدود بشقائق النعمان، والأنامل كالعنم، يقول:

خــدودٌ غــلائلـهـا من شـقـيقٍ
وأيـدٍ أنـامـلـهـا مـن عـنـم[2]

ومع هذه التقليدية فإننا نحس تلك الأناقة وذلك التوافق مع موضوع القصيدة المدحية.

ولعل شعر الغزل الذي وصل إلينا في غالبيته يميل إلى الاعتدال حتى يصل إلى درجة عالية من الوقار والعفة، فإدريس يقول:

فـبـات في حـرمٍ لا غـدرَ يذعـره
وبـتُّ ظمـآن لـم أصـدُرْ ولـم أردِ[3]

والعماري الميورقي يتساءل عن ذلك اللقاء الذي تتوق إليه نفسه، وهو المقيم المقعد بانتظارها:

هل للقا من موعدِ باغيـدِ الـمـقلَّدِ
أما تراني في هوا ك في المقيم المقعدِ؟[4]

وابن عبدالولي الميورقي يتساءل:

هل امـانٌ من لحظك الفـتّـانِ
وقـوام يميسُ كـالخـيـزرانِ
مُـهـجـتي منكِ في جـحـيم ولكـ
ـنٌ جـفـوني قـد مُـتِّـعَتْ في جِنَانِ[5]

(١) شعره ٩٥.
(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص ٣٤١.
(٣) الذخيرة ق٢ م١ ص ١٣٦.
(٤) عقود الجمان ٧٣/٦.
(٥) المغرب ٤٦٨/٢.

وكان لاختلاطهم ببنات الروم ما يدفعهم إلى ذكرهن والتغزل بهن، فهذا إدريس اليابسي يقول:

إلى خـــدود بنات الروم قـــد برزت
من حُجْبِها وأدارت أعين العرب
من كلِّ سافرةٍ عن مشربٍ خجلاً
فيه طرازان من ماءٍ ومن لهب[1]

ويدير عياش بن حوافر معركة بين القلوب والعيون، ولعلَّ هذه المقطوعة الغزلية تمثل الخلط بين الغزل وأدوات الحرب أفضل تمثيل، حيث يقول:

بين القلوب وبين الأعين النُجُل
حربٌ تُشبُّ بغير البيض والأسَلِ
أمَّا الملاحُ فحَدِّثْ عن ملامحهم
في العاشقين وعن صفين لا تسل
من كلِّ أحور قد أردت لواحظُهُ
على غرارته من فارسٍ بطل
عَنُّوا لنا برماحٍ من قدودهِمُ
وانجدوها بأسيافٍ من المُقل
وابن الأمير أميرٌ في كتائبه
يغزو القلوب بأفراسٍ من الغزل[2]

ويخشاها ابن حكم لذلك السيف المجرد من لحظها:

وكيف أرجو القرب منها وقد
أضحى حسامًا لحظها فاتكا[3]

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٣.
(٢) تحفة القادم ٢٤٦.
(٣) اختصار القدح ٣٩.

وإدريس اليابسي يعلن استسلامه لتلك الرماح المشرعة:

ولما أقـــمن رمـــاح القـــدود

فـــدانت لُـهنَّ رمـــاحُ البَـــهَمْ[1]

وابن اللبانة يرى أن ظبى الهند هي التي تحميها:

ظبى الهند مما ذبَّ عنهـــا وإنما

تلطف لي فيـها بخدعتـه الحبُّ[2]

ويصل الأمر بابن البني إلى القتل، يقول:

سَلَّت مـحـاسنهُ لقـتل مُـحـبِّـه

من سحر عينيه حُسامَ سميِّه[3]

أما الطبيعة وارتباطها بالغزل فذلك أمر طبيعي في شعراء الأندلس والبليار، فلا تكاد تجد شاعرًا يتغزل إلاَّ وهو ينهل من الطبيعة ألوانها وأشكالها وطيبها وحركتها، فنقل الصفات والمعاني للمرأة كان أساس الغزل لديهم، فهذا ابن البني يرى أن نور محبوبته يعيد الليل نهارًا، وهذه مياه الشباب تجري في عروقها فتزهر خدودها:

لو شبَّ في وضح النَّهار شُعاعُها

ما عاد جُنح الليل بعد مُضيِّه

شرقت بماء الحسن حتىَّ خَلَّصَت

ذهبيةٌ في الخدِّ من فضيِّه

في صفحتيه من الجمال أزاهرٌ

غُـذيت بوسميِّ الصبا وَوَليِّه[4]

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص ٣٤١.

(٢) شعر ابن اللبانة ص١٧.

(٣) القلائد٤/٨٦٩.

(٤) المطمح ٣٧٠.

أما ابن اللبانة وإن كان:

يجني الورى نرجس الرُبى وأنا
يُجنى فؤادي بنرجس الحدَقِ

فهو يحول مجرى استخدام أدوات الطبيعة إليه هو المحب العاشق، يقول:

أين وميضُ البروق من لهفي
وأين عصفُ الرياح من قلقي
وأين من عبرتي مُغيِّمةٌ
تسيلُ وطفاؤها على الأفق[1]

أما الغزل بالمذكر فلا يعدو كونه خطابًا للمذكر، وفي ظني أن الكثير من الشعراء يتظرفون ويداعبون بتحويل الخطاب من التأنيث إلى التذكير للتحبيب، من ذلك قول إدريس اليابسي:

عُلقتُهُ شادنًا صغيرًا
وكُنتُ لا أعشقُ الصغارا
أعادني سُقم ناظريه
فاستشعرتْ نفسُهُ حذارا

وكقول ابن اللبانة:

يا شادنًا حلَّ بالسواد
من لحظ عيني ومن فؤادي
وكعبةً للجمال طافت
من حولها أنفسُ العباد
ما زدتني في الوصال حظًا
إلاَّ غدا الشوقُ في ازدياد
أعشى سنا ناظريك طرفي
فليس يلتذُّ بالرقاد[2]

(١) مختارات من الشعر المغربي ١٩٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٣٤ – ٣٥.

وقد يُصرح، كقول ابن اللبانة في غلام بدا الشعر في خديه:

بدا على خـــده عذارٌ ... في مثله يُعذرُ الكئيبُ
وليس ذاك العذار شَعْرًا ... لكنُمـــا سرُه غريبُ
لما أراق الدماء ظـلمًا ... بنت على خده الذنوبُ[1]

وهذا أبو جعفر ابن البني يصرح باسم محبوبه، فيقول:

كيف لا يزدادُ قلبي ... من جوى الشوق خَبالاَ
وإذا قُلــتُ علــيٌّ ... بهــرَ النـاسَ جَمالا[2]

٤ - الإخوانيات والمراسلات:

إذا كان هذا الموضوع قد ظهر في المشرق على يد طبقات ممتازة من الكتاب والشعراء إظهارًا لعواطفهم، وتبيانًا لقدراتهم الشعرية، فإن الأندلسيين قد اهتموا به وتأنقوا فيه، وكانت مجالس أنسهم ولهوهم، وعلاقاتهم الحميمة ببعضهم البعض، وارتحالهم وتنقلاتهم من بلد إلى بلد، كل ذلك قد أدى إلى ظهور هذا الموضوع الشعري ظهورًا واضحًا.

وما بأيدينا من شعر الإخوانيات والمراسلات يدور حول الشكر أو الإهداء أو الدعوة لمجلس، أو العتاب. أو لطلب أمرٍ من الأمور إلى غير ذلك مما يكون بين الأحباب والأصدقاء، فهذا الوزير أبو عامر بن مسلمة يدعو إدريس اليابسي وابن الأبار إلى لقاء أخوي:

أيا شقيقيْ إخاءِ ... ويا قسيميْ صفاءِ
تفضــلا وأجيبا ... إلــى نــديٍّ نــداءِ
لتأنسا بحــديثٍ ... وقــهـوةٍ وغـــنـاءِ

فيرد عليه إدريس مجيبًا الدعوة قائلاً:

وقد أجبنا إلى ما ... دعــوت مـــن آلاء[3]

---

(١) شعر ابن اللبانة ١٦.

(٢) المغرب ٢/٣٥٨.

(٣) الذخيرة ق٢ م١ ص١٠٦ - ١٠٧.

ويرسل ابن البني رسالة عتاب لأصحابه الذين لم يسألوا عنه، بعد أن ردته الريح في سفينته إلى ميورقة:

أحـــبـــتنا الألى عــــتـــبـــوا علينا
فــــاقـــصــــرنا وقــــد أزف الوداعُ

لقـــــد كُنتم لنا جــــذلاً وأنسًــــا
فـــهل في العـــيش بعـــدكمُ انتـــفـــاعُ

أقــــولُ وقــــد صـــــدرنا بعــــد يومٍ
أشـــــوقٌ بالســـــفـــــينة أم نزاعُ

إذا طارت بنا حـــــــامت عليكُمْ
كـــأنَّ قلوبنا فـــيـــهـــا شـــراعُ[1]

ولابن اللبانة رسائل استعطاف لناصر الدولة، من ذلك قوله من قصيدة طويلة:

هلا ثناك علي قلبٌ مـــــشـــــفق
فـــتـــرى فـــراشًـــا في فـــراش يُحـــرقُ

قـــد صـــرتُ كـــالرمق الذي لا يرتجى
ورجـــــعت كـــالنفس الذي لا يُلحقُ[2]

ويرسل له مودعًا ومعاتبًا:

ســـــلامٌ على المجـــــد يندى بليـــــلا
كنشـــــر الربى بكرة وأصـــــيـــــلا

ســـــــلامٌ وكنت أقُـــــول الوداع
ولكن أدرّجُ قلبي قليـــــــــــــلا[3]

---

(1) المطمح ٢٧٣.
(2) شعر ابن اللبانة ٧٠.
(3) شعر ابن اللبانة ٧٩.

وقال يخاطب إخوانه حينما عزم على الفرار من ميورقة بعد أن تجهمه ناصر الدولة، ولم يقض حاجته صديقه الوزير:

أقـــولُ تحـــيـــة وهي الوداع
خـــداعًـــا لي ومـــا يغني الخـــداعُ
أُعلِّلُ بالمنى قلبًـــا شـــعـــاعًـــا
وهل يتـــعلَّلُ القلبُ الشَّـــعـــاعُ
وأترك جـــيـــرةً جـــاروا وأشـــدو:
«أضـــاعـــوني وأيَّ فـــتىً أضـــاعـــوا»[١]
إذا لـــم يُـــرْعَ لـــي أدبٌ وبـــأسٌ
فـــلا طال الحُـــسَـــامُ ولا اليـــراعُ
لقـــد باعـــتْنِيَ الأيامُ بخْـــسًـــا
وعـــهـــدي بالذخـــائر لا تبـــاعُ
أجـــفَـــتني فلم ينبت ربيـعٌ
وحطتني فلم يثـــبت يفـــاعُ
وَمكَّنَتِ العـــدى مني فـــعـــاثت
بلحمي ضِـعْفَ ما عـاث السـبـاعُ[١]

وأظهر ما ظهر فيه هذا الغرض من منورقة، وفي بلاط الرئيس أبي عثمان سعيد ابن الحكم، حيث دارت مراسلات ومجاوبات ومطارحات أنقى من العين وأصفى من المزن، وكان قطب رحاها هو ابن الحكم نفسه، فها هو ذا يجاوب ابن سعيد على رسالة شعرية برسالة شعرية:

أليس عينَ الكرَم شكرُ أيادي النعم
الشكرُ دينٌ فلنقُلْ بفرضـه ولنقُمِ
ولنلتزمه للـــذي لغيره لم يُلزمِ
ولنوجب الحقَّ لهُ بكلِّ قلبٍ وفـــمِ
فإنَّ ذاك آيـــة الدِّ ينِ الحنيف القيِّمِ[٢]

(*) هذا صدر بيت للعجري – عجزه: ليوم كريهة وسِداد ثغر «المراجع».
(١) شعره ص٦٢ – ٦٣.
(٢) اختصار القدح ٣٠.

وكتب إلى أبي الربعي التنملي:

سـلامٌ لا يـزالُ مـدى الـزمـانِ
من الحـال المحـيلة في أمـانِ

أخصُّ به حـبـيـبًـا حلَّ منِّي
مـحلَّ الأمن من نفس الجـبـانِ

أصـونُ ودادَهُ مـا دمتُ حـيًّـا
وليس سـوى فـؤادي من صِـوانِ

وأذكُـرُ عـهـدهُ فـأذوبُ شـوقًـا
إلـيـه حنان عـذريِّ الحـنانِ

سـألتُ من الزمـان لقـاهُ فـاسـ
ـتـجـابَ لنا على بُخلِ الزمـانِ

لقـاء أبي الربيع أقـرُّ عـيـني
وأدنَى لي القَـصِيَّ من الأمـاني[1]

ولابن الحكم رسائل ومجاوبات كثيرة مع الخلافة الموحدية والفقيه أبي الحسن ابن مفوز، وأبي القاسم بن يامن، وإلى صاحب بجاية وإلى رئيس تونس.

كذلك فإن كثيرًا من الشعراء الذين زاروه وعرفوه راسلوه وجاوبوه، منهم أبو المطرف بن عميرة، وابن الخطاب الهنتاني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن هشمك وابن العوام الإشبيلي وغيرهم.

٥ - البليار في الشعر:

لقد أفردتها وجعلتها موضوعًا قائما بذاته، لأن الشعراء الذين ذكروها في شعرهم لم يذكروها في معرض غرض واحد، وإنما وردت في أشعارهم على سبيل الوصف، والمدح والدعوة للجهاد، والتهنئة بفتح، والهجاء أيضًا.

(١) المصدر نفسه ٣٤.

وجزر البليار هي جزء من تلك البيئة الأندلسية، التي حباها الله بطبيعة ساحرة، فميورقة «مدينة كبيرة على البحر بين جبلين يشقها واد صغير وهي مدينة متجر، ولها مرساتان... وأكثر غاباتها زيتون... وبها عيون ماء كثيرة، وتشق جميع جهاتها وتصب في البحر[1]».

أما منورقة فقد قال ياقوت بأنها: «جزيرة عامرة بشرقي الأندلس[2]». وأما ثالثة الجزر «يابسة» فقد وصفها الحميري بكثرة الكروم والأعناب والأنهار والأشجار[3]، فإذا كانت هذه الجزر على ما وصفت به، وتحيط بها المياه من كل جانب، وتتفجر من داخلها العيون، وبها تجري الأنهار، فلا شك في أن تثير في النفوس الإعجاب ولعل أجمل شعر قيل في وصف هذه الجزر وعبر عن هذا الجمال أروع تعبير، شعر ابن اللبانة الداني حيث قال في ميورقة:

فكانما الأنهـار فـيـه مـدامـة
وكـأن سـاحـات الديار كـؤوسُ
بلدٌ أعـارتهُ الحـمـامـةُ طَوْقَـهـا
وكـسـاهُ حلة ريشـه الطاووسُ[4]

ولجمال هذين البيتين فقد نُسبا إلى ثلاثة شعراء هم: ابن اللبانة وابن حمديس، وابن قلاقس.

وهي المكان الآمن والبغية والأمل:

ولما رأت عـيـني جناب «مـيـورقٍ»
امنتُ وحـسبُ المرء بغـيـتـه حـسبُ[5]

وهي جنة عدن:

فـلا تسـألوني عن فـراق جـهنَّمٍ
ولكن سلوني عن دخـولي إلى عـدنِ[6]

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص٦١ - ٦٢.

(٢) معجم البلدان ٥/٤٢٤.

(٣) انظر الروض المعطار ٦١٦.

(٤) اخترنا رواية نفح الطيب، حيث اختلف في رواية صدر البيت الأول، ففي المغرب: «وكأنما تلك الحياة مدامة» وفي شعر ابن اللبانة: «فكأنما ماء الغمام مدامة»، وفي ديوان ابن حمديس حيث نُسب له: «وكأن هاتيك الشقائق قهوة»، وبعض المصادر تجعل الأول تاليًا للثاني.

(٥) شعر ابن اللبانة ١٨.

(٦) المغرب ٢/٣٢.

كيف لا؟ وحصباؤها كافور ورملها تبر، وترابها جوهر:

نزلتُ بكافـــورٍ وتبـــرٍ وجـــوهرٍ

يُقال لها الحصباءُ والرمل والتربُ[1]

وهي تطاول بغداد، وتتفوق في الإعمار على ما شاده الإسكندر:

وعَمَرْتَ بالإحسان أُفْق «مَيُورْقَةٍ»

وبنَيْتَ فيها ما بنى الإسْكَنْدَرُ

فكأنّها «بغدادُ» أنت «رشيُدها»

ووزيرها - وله السلامة - «جعفر»[2]

أما منورقة فهي مقلة البحر:

بدا للعيان البحرُ عينًا بصيرةً

«مَنُرْقةُ» فيها مقلة أنت نُورُها[3]

وهي سحاب زاخر، وعباب ماخر عند ابن الأبار حيث يصفها بقوله:

تلك الجزيرة أقبلت تَنْويهَا

سُحُبٌ تنال بسقيها تنويها

في البحر لم تبرح فما جدوى الحيا

والبحرُ يبعثُ بالسُحائب فيها[4]

ولكن هذه العين المحبة هل تظل تنظر إلى هذه الجزر بالمنظار نفسه، جمال الجزر لا يشك فيه، ولكنها الحالات النفسية التي تتغير، فما الذي غير ابن اللبانة الذي قال ما قال حتى يقول:

أفرّ بنفسي وإن أصبحت

«ميورقةُ» «مصرًا» و«جدواك» «نيلا»[5]

(١) شعر ابن اللبانة ١٨.

(٢) شعر ابن اللبانة ٤٧.

(٣) اختصار القدح ٥٧.

(٤) المعجم ٢٣٦.

(٥) قلائد العقيان ٣/٧٨٤.

وما الذي يجعل شاعرًا من أبنائها مثل ابن حوافر يستغيث من سكنى ميورقة، ويهجوها هجاءً مرّاً فيقول:

إلهي إنني بك من زماني
ومن سُكنى «مَيوُرْقَة» مستغيثُ
هي الأرضُ التي خبثت ترابًا
فلم ينشا به إلاّ خبيثُ(١)

إذا كان لابن اللبانة عذر في محاولته الخروج من ميورقة نتيجة لما لاقاه من تجهم أميرها ناصر الدولة، فما عذر ابنها هذا؟ لا شك أن هذا من العقوق، ولقد صدق ابن الأبار حين وصف هذا الشاعر بقوله: «كان أخبثهم لسانا(٢)».

وإذا كان الثناء والهجاء للحالات النفسية، فإن هذه الجزر على أهمية موقعها كانت تتعرض لهجمات من الفرنج والممالك المختلفة، لذلك وجدنا الفقيه عبدالحق بن عطية يدعو أمير المسلمين لتخليص ميورقة من أيدي الإفرنج بعد احتلالها الاحتلال الأول عام ٥٠٨هـ حيث يخاطب أمير المرابطين:

ونحو أمير المسلمين تطامحتْ
نواظرُ آمالٍ وأيدي رغائبِ
من الناس تستدعي حفيظةَ عدله
لصدمة خطبٍ في «مَيُورَقَ» ناصبِ
مقيمٍ فإنْ لم يُرغم السَّعيُ أنفهُ
ألمَّ فوافى جانبًا بعد جانبِ
لقتلٍ وسَبْيٍ واصطلام شريعةٍ
لقد عظُمتْ في القَوْم سُودُ المصائبِ
أليس جديرًا أن يُشَيَّعَ ذكرُهُم
بأمة قلبٍ في المدامع ذائبِ

(١) تحفة القادم ٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه ٢٤٦.

لـنـا الـلُـهُ والملـكُ الـذي يُـرتجـى بـه
من الزمن الـمِـذناب رجـعـةُ تائبِ
هو الـغـوثُ فليـعطف علينا بنظرةٍ
من الحـزم تحـثُـو في وُجـوه النوائبِ
أليس الذي لم يُنجب الدَّهرُ مِـثْلَهُ
أغـرٌ صـبـاح الرأي صـدق المضـاربِ
وأعـفى ووقعُ الذنب تَدْمَى كلومُـهُ
وأكـفى إذا كَـعَّتْ صـدورُ الكتـائبِ
عـهـدناهُ يَفْـري الخطبَ قـبل نزوله
ويلـبسُ وقت السلم درع المحـاربِ
ويغـزو فـلا شيءُ يقـومُ لعـزمـه
ولـو أنـهُ يـرمـي بـه فـي الـكـواكـبِ
إذا ظـنٌ لم يعـدم يقين مـشـاهدٍ
وإن همُّ لم يُخطِئ رمـيَّـةَ صـائبِ
فـلا زال جـيشُ النصـر يقـدُمُ جَـيْشَـهُ
وتلقـاهُ بالبُـشـرى وجـوهُ العـواقبِ[1]

وإذا كان ابن عطية يستنصر أمير المرابطين ليدفع الإفرنج عن هذه الجزيرة ويدعوه لتخليصها وأهلها مما حاق بهم من قتل وسبي وتشريد، فإن ابن أبي خالد الكاتب[2] يهنئ بفتح ميورقة على يد الموحدين - ليس من الإفرنج، ولكن من العرب من بني غانية -، الذين حاربوا دولة الموحدين وأوقعوا فيها، وكأن ذلك عام ٥٩٩هـ، يقول:

وغـربانَ يمّ قـابلتـه بوارحًـا
فـأدبر لا يرجـو لهُ مُـتَـيَـمَّـمـا

(١) قلائد العقيان ٣/٦٦٨ - ٦٦٩.

(٢) هو أبو عمر يزيد بن عبدالله أبي خالد اللخمي الكاتب من أهل إشبيلية، أديب كاتب شاعر، توفي سنة ٦١٢هـ. انظر ترجمته في تحفة القادم ١٦٨.

بكُلِّ كـــــميٍّ في الـلـقـــــاء مـــــدجج

إذا كَلَحَ الـيــومُ الـعــمــاسُ تـبـسـَّـمــا

ســحــائبُ جــونٍ أرعــدت بصليلهــا

وأبدت بُروق البـيـضِ كـالوشي مُـعلمـا

ويـا حُـسنَ مــا تبـدو خـلال دروعــهــا

أسنَّتُـهــا تحكي السَّـمــاءَ وأنجُــمــا

وقـد عـانقت سُـمــر الذوابل سُـمــرُها

كـمــا ضَمَّ روضُ الحُـزنِ غُـصنا وأرقـمـا

ويـا للجـــواري المنشـــات وحـــسنهـــا

طوائر بين الماء والجـــوِّ عُـــوَّمـــا

إذا ا نـتـشــرت في الجــوِّ أجنحــة لـهــا

رأيت بـه روضًـــا ونَوْرًا مُكمَّــــمَـــا

وإن لم تُهـجْـهُ الريحُ جـاد مـصـافـحًـا

فـمدَّت لهُ كـفَّـاً خـضـيـبًـا ومـعـصـمـا

مـجـاذيفُ كـالحـيَّـات مـدَّت رؤوســهــا

على وجلٍ في الماء كي تُرْوِيَ الظمـــا(١)

وقد أجاد الشاعر في وصف الأسطول الموحدي الذي حاصر ميورقة واستطاع ضمَّها إلى سلطان الموحدين.

٦ - **موضوعات أخرى:**

مهما حصرنا الموضوعات الرئيسة، فلابد من وجود موضوعات فرعية، ترد عرضًا دون التركيز عليها، ولعل هذه الموضوعات التي لم نجد لها صدىً كبيرًا في ما بين أيدينا من شعر هي: «اللهو والهجاء والزهد والرثاء».

فاللهو لم يتخذ الشكل الذي كان سائدًا بين شعراء الأندلس من دعوات ووصف المجالس وتبذل وتهتك أحيانًا، وإنما نجد اللهو، في شعر جزر البليار يذكر في معرض

(١) تحفة القادم ١٦٨ – ١٦٩.

الشعر، أو يظهر أحيانًا في مقطعات تتحدث عن الراح أو الغناء، دون أن تحس ذلك الإقبال من الشاعر، ولعل ظروف جزر البليار وما أحاط بها سبب في عدم التوجه إلى مثل هذا الغرض.

وإن رحنا نتمثل بعض الشواهد على ذلك فإننا نجد اليابسي يدعو إلى اللهو من خلال قصيدة مدحية:

لبيك لبيك داعي اللهو من كثبٍ

إلى معاطفة الأغصان في الكثب(1)

وهذا يشعرنا بأن القصد هو الدخول إلى غرض المدح، ومع ذلك فقد وجدنا له أبياتًا مدهشة كقوله:

ثقلت زجاجات أتتنا فرَّغًا

حتى إذا مُلئت بصرف الراحِ

خفَّت فكادت أن تطير بما حوت

وكذا الجسومُ تخفُّ بالأرواحِ(2)

وجمال الوصف في هذه الأبيات يصرفنا عن اللهو إلى تتبع قدرة الشاعر الوصفية، وإبراز الصورة في ثوب معجب جديد.

ومُوسَّدين على الأكفِّ رؤوسهُمْ

قد غالهُمْ نومُ الصباح وغالني

ما زلت أسقيهم وأشربُ فضلهُمْ

حتى سكرتُ ونالهُم ما نالني

والكأسُ تعرفُ كيف تأخُذُ ثارها

إني أملتُ إناءها فأمالني(3)

وهذا ابن اللبانة أيضًا يصف لنا مجلس شرب، فيقول:

---

(1) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٢.

(2) فوات الوفيات ١/١٦٢.

(3) الوافي بالوفيات ٨/٣٢٧.

أديـــراهـــا عـــلـــى الـــروض المـــنـــدّى

وحُكْمُ الصـــبحِ في الظلمـــاء مـــاضِ

وكـــــأسُ الـراح تنظرُ عن حـــبـــابٍ

تـنـوبُ بـه عـن الحــــــدق المـراضِ[1]

ومما ذكر في منزع اللهو والاستهتار قول ابن العوام الإشبيلي:

إذا أســـمـــعـت حيَّ عـلـى الـفـــلاح

فـــقـم في نحـــو ريـحـــانٍ وراح[2]

والهجاء غرض لم يستول على الأندلسيين كما استولى على المشارقة، ولذلك قلّما تجد شاعرًا يلتفت إليه ويجعله غرضًا رئيسًا من أغراض شعره وإنما هي حالات وانفعالات تفرض على الشاعر أحيانًا، أن يقول، فيقول في البيت أو البيتين دون الاسترسال والتتبع والإسهاب والمبالغة، فعياش بن حوافر على خبث لسانه كما يصفه ابن الأبار، يهجو بني طلحة في صورة طريفة حيث يقول:

مـــا في بني طلحـــةٍ من يُرتجى لندى

ولا يُخـــافُ لبـــأسٍ منهُمُ أحـــدُ

هجـوتُهُمْ حين عـاف الناسُ هجـوهُمُ

فلي عليـهم بتنويه الهـجـاء يدُ[3]

وقد مرَّ معنا بعض الأبيات اليسيرة التي هجا بها إدريس اليابسي بعض من لم يروقوا له، كقوله:

نـــوالـــك مـــن مـــخ رأس الـــظّـــلـــيـــم

وعـــــقـلـك مـن ذَنَـبِ الـثّـــــعـلـب

ولذلك لم نجد الهجاء في جزر البليار يتسع ليصبح غرضًا مستقلاً له سماته وخصائصه، وإنما ظلَّ انطباعات وانفعالات سريعة تمر مرورًا عارضًا.

(١) ريحانة الألبا ٢/٢٨٥.

(٢) اختصار القدح ١٧٩.

(٣) تحفة القادم ٢٤٦.

أما الزهد فلعلنا لا نستطيع الحكم عليه بأنه من الأغراض الهامشية، وذلك لضياع دواوين الشعراء، أو عدم وصولها إلينا، وهم في هذا الميدان سباقون، وانصرافهم إليه مؤكد، فشاعر مثل الحميدي عرفنا اتجاهه، ووصلنا القليل من شعره الذي يؤكد هذا الاتجاه، فكيف لو وصل الديوان بأكمله، كذلك بعض الفقهاء والزهاد والصالحين من جزر البليار، ولا شك إن شعر الزهد جانب من جوانب الدعوة، ولا نتصور أن الشعر في البليار قد خلا منه، فالحروب والفتن، وتوالي الأزمات والمحن، واختلاف الأحوال والأهواء، ووجود مجالس اللهو والشرب، كلّ ذلك بل بعض ذلك سيدفع الشعراء الذين يتمثلون القيم الدينية والخلقية إلى الدعوة إلى الزهد، والعزوف عن مباهج الحياة ولذاتها، والانصراف عن إغراءاتها وشهواتها، فابن طنيز الميورقي يزهد في الدنيا والناس، ويدعو إلى الابتعاد عنهم، فليس فيهم من يسر:

وسائلةٍ لتعرف كيف حالي
فقلتُ لها بحالٍ لا تسُرُّ
دُفِعْتُ إلى زمان ليس فيه
إذا فتشت عن أهليه حُرُّ[1]

والحميدي يؤكد هذه المقولة، ويدعونا إلى تجنب لقاء الناس إلا بشروط:

لقاءُ الناس ليس يُفيد شيئًا
سوى الهذيان من قِيلٍ وقالِ
فأقْلِلْ من لقاء النّاس إلاَّ
لأخذ العلم أو لصلاح حالِ[2]

وهذا ابن حكم يذكر وينبه:

لِرحيلٍ مآلُ كُلِّ مُقيمِ
ونزول بباب دار الكريم
أنا أخشى لكنْ رجائيَ أقوى
لقدومي على الغفورِ الرحيم

(١) معجم الأدباء ٢٤٧/٥.
(٢) الوافي بالوفيات ٣١٨/٤.

ربِّ اغــــفــــر وارحم فــــانت غنيٌّ

عن مــــصــيــري إلى العـــذاب الأليم[1]

وفي الرثاء نجد بعض المقطعات القليلة، كما في رثاء ابن اللبانة لأخت المرتضى أمير ميورقة قبل ناصر الدولة، ويبدو لي أن هذا الرثاء كان إرضاءً وتعزية لناصر الدولة، الذي حفظ الود وظل وفيّاً للمرتضى الذي جعله حاكمًا على هذه الجزيرة من بعده، وفي ذلك يقول:

ابنت الهدى جددت صنعًا علا صنعا

مضى المرتضى أصلا وأتبعته فرعا

جرى الموت جري الريح في مِيْتَتَيْكُما

فــاذواك ريحــانا وكَسـَّــرَهُ نبــعــا

على نسق جـــاء المصــــابُ وإنما

تقدم وتْرًا ثم أتبعته شفعا[2]

وهذا رثاء جاء على نسق، ليس فيه قليل من عاطفة، وإنما صفٌ من الكلام البارد المنمق.

ولأبي القاسم أحمد بن يامن رثاء في خال ابن حكم صاحب ميورقة، يقول:

لم يف الدهرُ في وفـــاة ابن عـــيـــسى

بئس واللّهِ مـــا أنا فـــيـــه بيـــســـا

قـــائد قـــائم بـاعـــبـــاء ثـغـــرٍ

لم يزل حُـــسنُهُ عليـــه حـــبـيـــســـا

يــرحــمُ الـلّــهُ مــنــهُ أنــفــس نــفــسٍ

نافـــست في الذي رأته نفـــيـــســـا[3]

وهذا التنفيس كسابقه لا يرتقي إلى عنصر الرثاء الأصيل، وإنما هي مجاملات لا تحس فيها حرقة قلب، أو دمعة حزن، أو لوعة فراق.

---

(١) اختصار القدح ٣٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٦١.

(٣) اختصار القدح ٥٩.

الفصل الرابع

شعـــــراء البليـــار

«كان بميورقة جماعة أعلام وشعراء[1]»، هذه مقولة المقري، وأقول لقد ازدانت منورقة ويابسة بمجموعة من الشعراء أيضا، وعلى الرغم من هاتين المقولتين، فإن الظفر بعدد أصابع اليدين يبين لنا الجناية على أدب هذه الجزر، كما أن وصول اسم الشاعر دون وصول شعره يؤكد الكارثة التي تعرض لها أدبنا العربي في هذا الثغر المتقدم.

ونظرا لأنني أريد أن استوفي الكلام في حق هذه الجزر، ولكون المصادر والمراجع لم تبلغنا إلا باليسير من أشعارهم، فسأعرض لهؤلاء الشعراء الذين مر ذكرهم في هذه المصادر وهم: إدريس بن اليمان اليابسي، وأبو بكر بن العطار اليابسي، وأبو عبدالله بن أبي نصر الميورقي، وأبو محمد عبدالله بن عشير اليابسي وابن عبدالولي الميورقي، وابن طنيز الميورقي، وعياش بن حوافر الميورقي، ومحمد بن عمر العماري الميورقي، ويحيى بن إسحاق الميورقي.

وسأركز الحديث علَى الشاعرين: إدريس بن اليمان اليابسي، وأبي بكر بن العطار اليابسي لوصول باقة متنوعة من أشعارهما، ولكونهما أظهر شعراء هذه الجزر وأجودهما شعرًا وأعلاهما كعبًا ومكانة.

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٧١.

١ - إدريس بن اليمان اليابسي[*]

نسبته:

هو أبو علي إدريس بن عبدالله بن اليمان العبدري الشهير باليابسي، واختلف في هذه النسبة، هل هو يابسي الأصل؟ أم أنه منسوب إليها نسبة إقامة؟

فابن بسام ينسبه إلى يابسة، ثم يذكر أنه أخبر بأن أصله من قسطلة الغرب، فيقول في معرض الترجمة للشاعر: «ويابسة من الجزائر الشرقية على سمت مدينة دانية من الأندلس، وأخبرت أن أصله من قسطلة الغرب من عمل شنت مرية[١]»، ولكنه يعود مرة أخرى فيذكر خبرًا يؤيد نسبة الشاعر الى جزيرة يابسة، ففي معرض نقد مجاهد العامري لشعر الشاعر الذي استثقل شعره، فما كان منه إلا «أن أمر حاجبه، فاختطف القرطاس من يده، وقال سد خياشيمه: إن رائحة الشبين على شعرك تعريضًا له بيابسة، جزيرة في البحر كان منها[٢]».

أما ابن سعيد فيرى أن هذه النسبة تعود بسبب إقامته الطويلة في جزيرة يابسة حتى عرف منها [٣] لذلك فإنه يترجم له في كتابه المغرب على أنه من مدينة قسطلة الغرب، مسقط رأس الشاعر الأندلسي الكبير ابن دراج القسطلي.

وما يؤكد صحة نسبته إلى يابسة هو أن الحميدي معاصره وابن ميورقة يؤكد على أن إدريس يابسي حيث يقول: «ذكره أبو عامر بن شهيد فنسبه إلى بلده، فقال:

(*) انظر ترجمته في الذخيرة ق٣ م١ ص٣٣٦، الجذوة رقم ٣١٣ ص١٧٠، البغية رقم ٥٦٠، الرايات ١٢٦، المطرب ١٣٠، الحلة ١٨٤/٢، المغرب ٤٠٠/١ ، مسالك الأبصار ٢٠٤/١١، فوات الوفيات ١٦٢/١، الوافي بالوفيات ٣٢٨/٨، نفح الطيب ٧٥/٤.

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٤٠.

(٣) انظر المغرب ٤٠٠/١.

اليابسي، وينسبه آخرون فيقولون: الشبيني بالباء المعجمة، لأن الغالب على بلده شجرة الشبين، وشجرة الصنوبر، وقد أدركت زمانه ولم أره[1]»، ويتكرر هذا القول في البغية[2]، وعلى الرغم من هذا الشك، فقد اتصلت به نسبة يابسة، واتصل بها اتصال البحر باليابسة، ولم تعرف له نسبة إلى غيرها.

وليس هذا فقط ما يعنينا في حياة إدريس اليابسي، وإنما حياته كلها لا تكاد تتضح، على الرغم من المكانة الشعرية، وهذا الثناء يفترض تتبع هذا الشاعر في سيرته والعرض لأحواله، ولكننا نصاب بخيبة أمل حين نريد التعرف على شخصية هذا الشاعر، فالإهمال يتحيفه، وينسدل ستار كثيف يطمس الظلال التي قد توحي لنا ببعض أخيلة عن خطوط حياته، فكبار مؤرخي الأدب الأندلسي من أمثال الحميدي والضبي والفتح بن خاقان، وابن سعيد والمقري ألمحوا إليه ولم يتوسعوا في الحديث عنه، أما العماد الأصفهاني وابن الخطيب فقد أهملاه، ولم يدر له ذكر في كتابيهما الموسوعيين: الخريدة والإحاطة.

ولولا تلك الترجمة التي لم تحط بحياة الشاعر وإنما عرضت لنماذجه الشعرية، أقول، لولا تلك الترجمة التي وردت في الذخيرة لابن بسام لظلَّ هذا الشاعر الفذ في طيٍّ النسيان ككثير غيره، لم تسعف الظروف في وصول ترجماتهم أو نماذج أشعارهم.

وإذا أردنا التعرف على سيرة حياته وأحواله وأسرته من مصادر الأدب الأندلسي، فإن هذه الشذرات القليلة التي اقتطفناها من كتب التراجم لا تفي حقاً بتكوين صورة واضحة الملامح عن هذا الشاعر.

لذلك لا بد من تلمس طريق آخر، إذا ما أردنا أن نتبين أجزاءً من هذه الحياة وتلك الشخصية، وقد حاولت ذلك مستنطقا أشعاره، ومستدلاً بتلك الإشارات التي وردت في شعره، علِّي أستكمل جوانب هذه الصورة فأخرج أنا والقراء بما يعوضنا عن ما أغفله كتاب التراجم والمؤرخون.

---

(١) الجذوة ١٧٠.

(٢) انظر ٢٣٧.

أما سنة ولادته فلم يذكرها أحد من الذين ترجموا له، لا على التحديد ولا على التقدير. أما وفاته فقد اختلف المؤرخون على رقمين، فالكتبي يرى أن وفاته كانت سنة (٤٧٠هـ) بينما يذكر الصفدي سنة (٤٥٠هـ) تاريخًا لوفاته، فأيهما أصوب؟ وهل نستطيع تقدير تاريخ لولادته؟

من خلال شعره نعرف أنه مدح مجاهدا العامري وابنه عليّاً، والمعتضد بن عباد[١]، ومأمون بن ذي النون[٢]، ويحيى بن حمود[٣]، وباديس بن حبوس الصنهاجي[٤].

وإذا كان مجاهد أول الممدوحين لكونه حكم دانية والبليار منذ (٤٠٥هـ - ٤٣٦هـ) فإن الباقين قد حكموا ما بين (٤٣٣ - ٤٦٠هـ) وإذا ما علمنا أن رصيفه وزميله أبا جعفر بن الأبار[٥] الشاعر قد عاش حتى عام ٤٣٣هـ يمدح المعتضد في إشبيلية فإن هذه الفترة هي الفترة الشعرية لشاعرنا.

وإذا كانت وفاته عام (٤٧٠هـ) على ما يذكره الكتبي أو عام (٤٥٠هـ) على ما يذكره الصفدي، فمتى كانت ولادته؟

نلتقط إشارة من ترجمة الكتبي عنه، حيث يذكر أنه روى عن أبي العلاء صاعد اللغوي.

وإذا كان أبو العلاء صاعد اللغوي قد جاز إلى الأندلس سنة ٣٨٠هـ، فإن رواية إدريس عنه ودراسته عليه تقع ما بين هذه السنة، وسنة (٤٠٢هـ) حيث وقعت فتنة البربر، إذ ترك صاعد في هذه السنة الأندلس متوجهًا إلى صقلية.

فإذا قدرنا ولادته في حدود السنة التي دخل فيها صاعد الأندلس أي سنة (٣٨٠هـ) أو ما بعدها بسنين فإنه بين هذا التاريخ وتاريخ خروج صاعد يكون شابّاً

---

(١) هو عباد بن محمد المعتضد بالله، أبو عمرو. ولد سنة ٤٠٧هـ وتوفي سنة ٤٦١هـ، ملك إشبيلية، كان داهية قاسيا، انظر ترجمته في الحلة السيراء ٤٩/٢ والذخيرة ق٢ م١ ص٢٣ والبيان المغرب ١٥٧/٣ وأعمال الأعلام ١٥٦ ونفح الطيب ٢١٤/١.

(٢) هو يحيى بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن ذي النون الهواري، ملك طليطلة، غلب على قرطبة وبلنسية، توفي سنة ٤٦٠هـ انظر ترجمته في القلائد ١٧٦/١، ١٩٨ والذخيرة ١٢٩/١/٤ والنفح ٤٤٠/١.

(٣) هو يحيى بن الناصر علي بن حمد الملقب بالمعتلي، استولى على مالقة وقرطبة، قتله محمد بن اسماعيل بن عباد عام ٤٢٧هـ. انظر ترجمته في النفح ٤٣١/١ والأعلام ١٥٧/٨.

(٤) هو باديس بن حبوس بن ماكس بن زيري، أبو مناد، ولُقب بالحاجب المظفر بالله الناصر لدين الله، ملك غرناطة ومالقة. وكان جبارا شديدا توفي سنة ٤٦٥هـ. انظر ترجمته في القلائد ٨٠/١ والإحاطة ٤٥٣/١.

(٥) هو احمد بن محمد الخولاني الأندلسي أبو جعفر بن الأبار، من شعراء المعتضد صحب إشبيلية، ومولده ووفاته فيها، كان فاضلاً عارفًا بالأدب، له ديوان شعر، وهو غير ابن الأبار المؤرخ، انظر ترجمته في الأعلام ٢١٣/١.

مؤهلاً لتلقي الدراسة والرواية عن عالم كبير مثل صاعد، ولعل هذه الفترة وما بعدها بقليل، وهي فترة تسلم مجاهد العامري حكم دانية والبليار توضح لنا البدايات الشعرية لهذا الشاعر، حيث يذكر ابن بسام أنه «بدانية قرأ وبها نشأ، ومنها انبعث انبعاث السيل[1]»، لذلك فإن أول أشعاره كانت في مدح مجاهد هذا - وهذا أيضًا يفسر لنا ذلك الموقف النقدي الذي وقفه مجاهد من الشاعر في ما يبدو أنه باكورة أمداحه، حيث يذكر ابن بسام دخول إدريس بن اليمان على الموفق أبي الجيش مجاهد وإنشاده مدحته البائية فيه التي يقول فيها:

ولربَّ ليلٍ قد طرقْتُ وهمتي
أسري بها إذْ ليسَ يسري كوكبُ
في معشر شُمِّ الأنوف كأنَّهُمْ
سيدانُ رملٍ أو أسودٌ دُرَّبُ

إلى أن يقول:

وكأنَّ نور الصُّبح رايةُ فارسٍ
حمراء يتبعُها خميسٌ أشهبُ
وكأن قرنَ الشمس وجهُ مجاهدٍ
لما أنارَ سناه كادت تغربُ

وهو في كل ذلك يعبث بيديه في قليل شعر عارضته، استثقالاً للعارفة، وبخلاً بالجائزة، وجهلاً بالفائدة، فلما أملقه الأمر، وأعوزه الصبر، غمز حاجبه بشطر حاجبه، فاختطف القرطاس من يده، وقال وقد سد خياشيمه إن رائحة الشبين على شعرك، تعريضًا له بيابسه، جزيرة في البحر كان منها، أكثر ثمرها الشبين فخجل لمقامه، وتعثر في ذيل كلامه، فلما وثبت إليه نفسه وراجعه حسه قال: أيها الأمير، إن كنت أسأت في مدحك فأحسن في منحك، أو قصرت في وصفك فأطِلْ في عرفك[2]». وما يهمني من هذا النص هو أني أقدر أنها من بدايات شعره، لأننا نعلم أن ملوك الطوائف فيما بعد قد تسابقوا على خطب وده، لجودة شعره، وسمو مقداره.

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٢٦.

(٢) المصدر السابق ق٣ م١ ص٣٢٦.

من ذلك كله أقدر أنه استوى على عود الشعر وأصبح نجم الشعراء في عصره «حتى تضاءلت له الهضاب عن قدره، وماجت الأرض ببحره، وصار شعره سمر النادي، وتعلة الحادي، وتمثل الحاضر والبادي[1]»، في حدود سنة (٤٢٠هـ) وما بعدها إذ نجده مادحًا ليحيى بن حمود الذي قتل سنة (٤٢٧هـ) وصديقًا لابن الأبار شاعر المعتضد، وعلى علاقة وثيقة بابن مقنة وزير يحيى بن حمود، ثم نجده «يتردد على ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب[2]»، وإذا كانت أمداحه الأخيرة، في المعتضد والمأمون بن ذي النون وكليهما حكم حتى عام ٤٦٠هـ تقريبًا، فإن المصادر تصمت بعد ذلك، ولا تذكر له مدحًا في من جاء بعدهم من ملوك الطوائف، فهل كانت وفاته كما ذكر الصفدي سنة (٤٥٠هـ) فتفسر لنا عدم وجود شعر له في مدح المعتمد بن عباد واسطة عقد الشعراء وجامع منثورهم الذي تولى الحكم بعد أبيه المعتضد في حدود (٤٦١هـ) أم أنه على رواية الكتبي الذي ذكر أنه توفي عام (٤٧٠هـ) يكون قد كبر وأسن فلم يعد بإمكانه التنقل والسير وقول الشعر، ويكون بذلك قد بلغ التسعين من العمر، لعلّي في النهاية أرجح رواية الصفدي، وأقول على الظن إنه قد توفي في حدود عام (٤٥٠هـ).

أحواله وتنقلاته:

إذا كان شاعرنا قد ولد في جزيرة يابسة، ولها انتسب، فإنه نشأ وتعلم وظهر في دانية وبها بدت شاعريته ومخايل نجابته، فاتجه كعادة شعراء عصره، إلى أمراء دانية بالمديح، فمدح مجاهدًا ومن ثم ابنه عليّاً، ولعله في أثناء إقامته في دانية قد اتجه إلى قرطبة حيث التقى بصاعد اللغوي، أو لعل صاعدًا قد قدم إلى دانية حيث ما ذكرناه من علاقته مع مجاهد عند حديثنا عن بلاط مجاهد العامري، ومع ذلك فهو يتجه إلى قرطبة، ويمدح ملكها يحيى بن علي بن حمود، الذي ملك قرطبة من عام (٤١٥ –٤٢٧هـ) وبوزيره ابن مقنة[3] يوثق علاقته، ثم ينتقل إلى طليطلة ويمدح ملكها المأمون بن ذي

---

(١) المصدر نفسه ق٢ م١ ص٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لم أعثر على ترجمته ولإدريس قصيدة في مدحه.

النون الذي ملك طليطلة من عام (٤٣٥ - ٤٦٠هـ) وإلى غرناطة حيث يمدح ملكها باديس الصنهاجي الذي ظل ملكًا عليها من عام (٤٢٨ - ٤٦٥هـ) وتراه خلال هذه الفترة يلتقي المعتضد بن عباد ويطلب منه أن يمدحه، وتتأكد عُرى المودة بين شاعرنا والشاعر أبي جعفر بن الأبار، والوزير أبي عامر بن مسلمة[1] الذي ترك قرطبة بعد الفتنة وعاش في إشبيلية، ومما يدل على صفاء هذه العلاقة بين الشعراء الثلاثة، ما ذكره هذا الوزير حيث قال: «كتبت يومًا بهذه الأبيات إلى الأديبين أبي علي إدريس وأبي جعفر بن الأبار مستدعيًا لهما:

أيا شقيقيْ إخـــــاءِ ... ويا قسيميْ صفـاءِ

ومن هما في ذوي الفهـ ... ـم جوهــرُ الأدبـــاء

تفضّلا وأجيبـــــا ... إلـــــى نــديٍّ نداء

لتأنســـــا بحديثٍ ... وقـــهـوةٍ وغـنـاء

قال، فأجابني إدريس:

يا صنو ماء السّمـاء ... فـــي رقّةٍ وصـــــفاءِ

ويا ســـــراج ضيـاءٍ ... يجلـــو دُجى الظلماءِ

بَهَرْتَ ســيما ذُكــاءٍ ... فـــي بهجــةٍ وذكــاءِ

وحُزت فـــي العليـاء ... قـــوادم الجـــــوزاءِ

يا حاتــم الكـرمــاء ... وأحــمدَ الشــعراءِ

بـادهــتـنـا بــلآلٍ ... ســـــواطع اللألاءِ

قـريــضُ حُسْنٍ كَدُرٍّ ... علــــى طُلا الحسناءِ

يقـــودُ في كُلِّ معنى ... معـنى الغِنى والغناءِ

وقـــد أجبنـا إلـى ما ... دعــــــوتَ منْ آلاءِ

لا زال نجمُك أسـمـى ... مــن نجم كُلِّ سماءِ[1]

---

(١) هو ابو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن مسلمة وزير أديب عالم، ألف كتاب «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح»، وقد اثنى عليه ابن بسام والحجاري والفتح وعلى بيته وهاجر من قرطبة زمن الفتنة إلى إشبيلية فكان بينه وبين إدريس اليابسي وابن الأبار مراسلات، وتوفي في إشبيلية. انظر ترجمته في المطمح ٢٠٣ والذخيرة ق٢ م١ ص١٠٦ والجذوة رقم ٨٩ والبغية ١٧٠ والمغرب ١/٩٦.

(٢) الذخيرة ق٢ م١ ص١٠٧.

ويبدو أنه كبر وأسن، ونستدل على ذلك بقوله:

صاح الصُّباحُ بجانبيْ ليلي فلمْ

أسف لليلي إذْ محاهُ صباحي[1]

وقوله:

ظننتُ الشباب يفي حين وافى

فلم يكُ إلا خيالاً ألمْ

تولّى وشيكا ولم أجنِ منهُ

سوى حُلُمٍ أو شبيه الحلُمْ[2]

ونحس من خلال شعر الفخر بأنه رجل مكافح، خاض غمرات الحياة بحلوها ومرها ويبدو أنه اشترك في بعض المعارك كما يظهر ذلك من شعره.

وتغمض أخبار الشاعر، فلا نكاد نتبين فصول حياته ولا نهايته، ولا نعرف أفراد أسرته، فالمصادر ضنت علينا بذلك، وكثير من أشعاره التي قد تدلنا على بعض أخباره قد فقدت ولم نعثر عليها.

أغراض شعره:

نستطيع من خلال مجموع شعر إدريس اليابسي أن نتبين الأغراض التي انتظمت شعره، إذ نجده يضم معظم الأغراض الشعرية، وعلى رأس هذه الأغراض «الغزل والمدح» يليهما الوصف واللهو والفخر والهجاء والإخوانيات» وهو في جميع هذه الأغراض شاعر متمكن قادر على اختراع المعاني، بدقة تشبيه، وإصابة غرض، وجمال تصوير، وروعة بيان، ونلمح كذلك ثقافة دينية وتراثية وأدبية، ونحس نكهة شعرية جديرة بالتقدير، ولنترك شعره يوضح شخصه، ويصرح عن نفسه، ويبين عن سماته.

---

(١) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٢٤٣ وشدمره.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٢٤٣.

أ - الغزل:

لإدريس القدح المعلى في غزل يخلب الألباب ويملك القلوب والأسماع، فلست تحس وأنت تقرأ غزله بتلك التقليدية الجافة، أو تلك العذرية المخدرة، الحالمة، أو المجونية الخالعة، وإنما تندهش لهذا الغزل الأنيق الرقيق، الجديد المختلف النكهة والمذاق عما ذكرناه، ولننظر إليه وهو يتغزل في مشية محبوبته حيث يقول:

أقبلت تهتزُّ كالغُصن وتمشي كالحمامه

ظبية تحسدُ عينيها وخديها المدامه(١)

إنك تحس بحفيف الغصن وأجنحة الحمام ترف من فوق رأسك وأنت تنظر إليها مقبلة إليك، أهي الطبيعة وجمال الحياة وتدفقها؟ أم هي تلك المشية التي تجول في القلب؟

لا تملك أمام هذا الإبداع إلا أن تنسى تلك الأوصاف التقليدية التي تصف المرأة في مشيتها بالتخلع والتثني والهوينَى كما يقول بشار بن برد:

إذا قامت لمشيتها تثنت

كأن عظامها من خيزران

أو كما يقول الأعشى:

غرّاء فرعاءُ مصقول عوارضها

تمشي الهوينَى كما يمشي الوجي الوحلُ

إلى غير ذلك من هذه الأوصاف التي لا ترقى - على جمالها - إلى تلك الصورة العذبة، صورة اهتزاز الغصن ومشية الحمامة، ولا يكتفي بهذا الإبداع، بل ينتقل إلى إبداع آخر حين يريد أن يخبرنا عن رونقها، وتدفق ماء الشباب في عروقها، فعيونها المشعة ودماء الحيوية المندفعة من خديها تورث المدامة حسدًا وغيظًا، وقديمًا كان في الناس الحسد، إنه حسد حملته المدامة لذلك التفوق والسبق في اللون والفعل والأثر.

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٣٣٩.

وهذا ابن بسام الشاعر والكاتب والمؤرخ، والناقد الأندلسي الكبير يقرأ هذه القصيدة الغزلية العفة، التي يقول فيها إدريس:

لم تدرِ ما خلَّدت عيناك في خلدي
من الغرام ولا ما كابدت كبدي
افديك من زائر رام الدنُّو فلم
يَسْطِعْهُ من غرق في الدَّمع مُتقدِ
خافَ العيونَ فوافاني على عَجَلٍ
مُعطَّلاً جيده إلاَّ من الغيد
عاطيتُهُ الكاسَ فاستحيتْ مدامتُها
من ذلك الشنب المعسول بالبرد
حتى إذا غازلت أجفانهُ سنةٌ
وصيَّرتهُ يدُ الصهباء طوعَ يدي
اردتُ توسيدهُ خدِّي وقلَّ لهُ
فقال كفُّك عندي أفضلُ الوسد
فبات في حَرَمٍ لا غدْرَ يذعرهُ
وبتُ ظمآن لم أصْدُرْ ولمْ أردِ
بدر ألمَّ وبدرُ التمِّ مُنْمَحِقٌ
والأُفْقُ مُحلولكُ الأرجاء من حسد
تحيَّرَ الليلُ فيه أينَ مطلعُهُ
أما درى اللَّيْلُ أنَّ البدرَ في عضدي[1]

يقول ابن بسام: «رائقة، ومتأخرة سابقة في التزام العفاف مع السلاف، وما سمعت بأبدع منها لأحد من أهل هذا الأفق[2]».

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص١٣٥ - ١٣٦.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٢٩.

ولست أريد الزيادة على قول الناقد ابن بسام وإنما أريد أن أنبه إلى أن الجمال يوشح هذه القصيدة، فإذا صرفت النظر عن تشبيه المعنوي بالمحسوس من حياء المدامة ومغازلة سنة النوم للأجفان، ومن تلك الاستعارات الأنيقة في يد الصهباء، والمقابلة بينها وبين بدر السماء، وصورة الأفق المغيظ المحنق المتلظي من الحسد، وهذا العفاف القوي الحازم، فإنك لن تستطيع أن تصرف النظر عن الليل الحائر، لا بد وأنك ستشفق عليه في حيرته وبحثه عن ذلك القمر المشع الذي لا يدري مطلعه، فإذا أصابه اليأس ومضّه الألم، انبعث الشاعر في سخرية الواثق يدل الليل على مطلع البدر:

أمــا درى الليلُ أنَّ البــدر في عــضــدي

وإذا كنا قد بدأنا بهذه اللقطات الرائعة من غزله قبل أن نبين خصائص شعره الغزلي، فما هي إلا طاقة ورد، ورشة عطر أحببنا أن نقدمها بين يدي الحديث عن هذا الغرض الذي عَلِقَ الشاعر وتعلق به:

علق الهــوى قــبل الهــواءِ عــلاقــةً
مـــا زال في نـزع بـهـــا ونـزاعِ
فكأنما سكنَ الهـــوى في قلبـــهِ
من قــبل سكنى القلبِ في الأضــلاع[1]

فليس الغزل عند اليابسي نزوة أو مجرد غرض من الأغراض على الشاعر أن يقول فيه، وإنما هو إحساس بصدق الانفعال والتجربة، وتسليم تام أمام الجمال:

لا يستــثيرُ وشاحُ الخَوْدِ لي شغفًا
مــا لم يَجِبْ كـفـؤاد العــاشق الوَجِبِ
ولا أهيمُ بجـيـدٍ غـيـر ذي جَـيَـدٍ
ولا أهشُّ لقُــرْط غــيــر مــضطرب
ولا أروحُ لروض غـــيـــر ذي زهر
ولا أهشُّ إلـى كـــــأسٍ بلا طرب

---

(١) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٥٢.

ومن نافلة القول الحديث عن الغزل بالمذكر، ولعل هذا الغرض الذي طرقه كثير من الشعراء حقيقة أو ليقال إنه قال في جميع الأغراض – قد ورد عند اليابسي، وفي مجموع شعره الذي قمت بجمعه، وجدت له مقطعتين: الأولى صريحة، ولكنها لا تدل على توجه حقيقي من الشاعر لمثل هذا الغرض، فقد رأى غلامًا وسيمًا عليه أسمال بالية، فقال فيه:

توشح بالظلماء وهْوَ صباحُ
فأمرضَتِ الألبابُ وهْي صِحاحُ
وظل فؤادي طائرًا عن جوانحي
وليس لهُ إلا الغرامَ جناحُ
قضيبُ صباحٍ في وشاح دجنّةٍ
الا ليتني تحت الوشاح وشاحُ
ولا عجبٌ إن افسدتني جفونُهُ
فكلُ فسادٍ في هواهُ صلاحُ[1]

أما المقطعة الثانية فالخطاب فيها للمذكر، ونحن نعلم أن كثيرًا من الشعراء كانوا يتغزلون بالمؤنث على خطاب المذكر، كقوله:

علقتهُ شادنًا صغيرًا
وكنت لا أعشقُ الصِّغارا
اعارني سُقم ناظريه
فاستشعرتْ نفسُهُ حذارا
يُسفِرُ عن وجهِ مُستنيرٍ
يَرُدُّ جُنحَ الدّجى نهارا[2]

وإذا كان غزله يتميز بالجدة والطرافة ودقة التصوير وبراعة التشبيه، فإنه يتميز أيضا بخصائص منها:

---

(١) شرح مقامات الحريري ٢/٢٧٢ – ٢٧٣.

(٢) الذخيرة ق٢ م١ ٣٢٨.

• **المزج بين الطبيعة والغزل:**

فالمرأة عند اليابسي هي الطبيعة المجلوة في أحلى معانيها ومغانيها، إذ تتجسد في الطبيعة، والطبيعة تتلخص في المرأة، وكلتاهما تستعير من الأخرى صفاتها وسماتها، فالمرأة تهتز اهتزاز الغصن حركه نسيم الصبا، وتمشي مشية الحمامة:

أقبلت تهتز كالغصن وتمشي كالحمامة[1]

وهي حديقة ناضرة ممرعة بالأزاهير والوررد:

سُقيًا لواديك الأغنِّ مريعُهُ
إنَّ الشباب به مريعٌ مُمْرِعُ
إنْ كانَ خدُّك فيه وردٌ يانعٌ
فهواك في عيني وقلبي اينعُ[2]

وانظر إلى هذه السوالف التي تتصعد كالسوسان، وتلك الغدائر التي تنصب انصباب الماء في الخلجان، وما أعذبها من صورة! وما أنداه من تشبيه! فما هذه الجدائل والغدائر في تموجها وحركتها إلا تكسرات ذلك الماء المتدفق من الخلجان:

إلى السوالف كالسوسان في صُعُدٍ
إلى الغدائر كالخُلجان في صَبَبِ[3]

وهو يجمع بين النار والماء، النار في وقدتها، والماء في تدفقه:

من كلِّ سافرةٍ عن مشربٍ خجلاً
فيه طرازان من ماءٍ ومن لهب

ويعجب الشاعر بهذه الأضداد، فإذا اجتمع الماء والنار في صعيد واحد، وهو ما لم يعهده:

لم أر من قبل ذاك ماءً
أضرم فيه الحياءُ نارا

(١) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٥٥.
(٣) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٣٩.

إذا كان ذلك لم يعهد، فلماذا لا تجتمع الرحمة والعذاب؟

أجني مراشفها العذاب وفي الحشا
حُرقٌ فامزجْ رحمةً بعذاب[1]

ولنمتع النظر والسمع والفؤاد بصورة الحصى الأبيض النقي ينبض من تحت حوافه ماءً رقراق سلسبيل، يقطر عذوبة وبرودة، ويميس صفاءً ونقاءً:

واستضحكت عن لآلٍ أو حصى بردٍ
يكادُ يقطرُ من مائيَّة الشَّنَبِ[2]

بل هي نهر طاب مورده:

فلو يتاتى وِردها أو مرادها
تسلسل مورودٌ وطاب مرودُ[3]

وإذا كان المنهل لا يمنع وِرْده، فلم تمنعه هي؟

من الصِّيدِ حرَّانٌ أطلت عويلَهُ
وثغرُك سلسال الرُّضاب برودُ[4]

ولكن هذا المنع والحرمان لا يستمران، وتجود عليه فيصيح طربًا:

قُبلةٌ كانتْ على دهش
أذهبتْ ما بي من العطشِ
ولها في القلب منزلةٌ
لو عَدَتْهَا النفسُ لم تَعِشِ[5]

وإذا كانت مفردات الطبيعة تتمثل في هذه المحبوبة فإنها أولاً وأخيرًا تلك الشجرة الطيبة التي يأوي إلى ظلها كل مكدود:

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه ق٢ م١ ص٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه ق٢ م١ ص٣٥٧.
(٤) المصدر نفسه ق٢ م١ ص٣٥٧.
(٥) المصدرنفسه ق٢ م١ ص٣٣٧ والنفح ٤/٧٥.

من الهيف تستجفي النسيم إذا جرى

عليلاً على أعطافها فتميدُ[1]

- **الخلط بين أدوات الحرب والغزل:**

إذا كانت هذه الخاصية وسابقتها من خصائص الشعر الأندلسي بعامة، فإنها عند إدريس اليابسي تلبس الأنيق من التشبيه، والفائق من التعبير والرائق من التصوير، فها هو ذا يصف لنا كحيلة الأجفان بصدرها الرامح، وأطرافه الذربة المدببة، ثم يأتي على عينيها التي ترشق النبل، وهذا العقد فوق الجيد كالفرند الجائل في الحسام، وأخيرًا يختم بجعل الحواجب سيوفًا حمائلها الأهداب الطويلة:

أكحيلة الأجفانِ بالسِّحر الذي

لولاهُ ما زوت البلابل بابلُ

قد كان قلبي غافلاً عمَّا به

أودى وقلبُ أخي السلامة غافلُ

حتَّى دهاني منك صدرٌ رامحٌ

ذربٌ سناناهُ وطرفٌ نابلُ

ما عقدُك المُمْهَى بجيدك درَّةٌ

لكن فرندٌ في حسام جائلُ

كمُلتْ سيوفُ الهند فوق جفونها

وطوالُ أهداب الجُفون حمائلُ[2]

وتتكرر هذه الصور، فيستعير أدوات المعركة من رماح وسيوف وسهام لقد الحبيبة وعينيها، وإذا ما احتدمت المعركة فسيكون النصر في جانبها:

ولمَّا أقمن رماح القدود

فدانت لهنَّ رماحُ البُهمْ

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٧.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٦ وشعره.

رَفَــعْنَ الهــوى علمًــا خــافــقًــا

فكان فــــــؤادي جنــاح العلـمْ[1]

● الاتكاء على التقليدية:

إن هذا التراث الضخم الذي تربى عليه الشاعر وتثقف به لا بد أن يظهر في شعره، ولذلك تحس في غزله بتلك التقليدية من وصف المحبوبة بالشمس والبدر، وتشبيهها بالظبي والوحش، واستعارة الورد للخد والآس للصدغ، والعنم للأنامل، والوشاح الجائل فوق خصر مهفهف، ورسيس الحلي، إلى غير ذلك من الصور التقليدية، والتشبيهات المطروقة، وهذا ليس منه بد لشاعر عربي يتكئ على تراث عربي يجري منه مجرى الدم من العروق، وإن كان وشحه بأزاهير الجمال، ودفق فيه ماء الحيوية والدلال، فهي كالشمس:

بشـــمسٍ يكادُ الوهمُ يدمي أديمهـــا

لهــا الليل تاجٌ والنجــومُ عــقــودُ[2]

وهي بدر:

بــدر الــمُ وبــدرُ الــتـمِّ مــنــمـــــحــقٌ

والأفقُ مُــحلولكُ الأرجــاء من حــســدِ[3]

وهي غزال:

غــــزالُ كناسٍ بل غــــزالة كِلَّةٍ

تزين الحلي منهـا ســوالفُ غــيــدُ[4]

وتتجلى فيها تلك الأوصاف الطبيعية التقليدية:

بذي لعسٍ للأُقـــحـــوان ثنـايـاهُ

وللورد خــداه وللآس صــدغــاهُ

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٢٤١ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م١ ص٢٥٨ وشعره.

(٣) الذخيرة ق٢ م١ ص١٢٦ وشعره.

(٤) الذخيرة ق٣ م١ ٢٥٨ وشعره.

وللســـوسن الريَّان صــفــحـــةُ خـــدِّهِ

وللبـــدرِ مـــجـــلاهُ وللمـــسك ريَّاهُ[1]

ب - المدح:

غرض قديم جديد دائم متصل وفي الأندلس وجد المراح الخصب، والجو الملائم، والبيئة المناسبة، ووجد نفسه في ظل البيئة السياسية الأندلسية الجديدة في عهد ملوك الطوائف مطلوبًا لا طالبًا ومرغوبًا فيه لا راغبًا، فهذا المعتضد بن عباد على شكاسة أخلاقه، واضطراب مزاجه، وقساوة أفعاله يطلب من إدريس اليابسي أن يمدحه، يقول ابن بسام: «وقد سأله عباد في بعض رحله إليه، على كثرة بوائقه، وشكاسة أخلاقه أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود، فقال له: «إشارتي مفهومة، وبناتُ صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مهرها[2]». وكان مهر القصيدة على ما يذكر ابن بسام مائة دينار.

في هذه التربة الخصبة نما شعر المدح، وكان لإدريس اليابسي قصب السبق في هذا الميدان «وطفق يتردد على ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب[3]»، وكانت تسبقه شهرته وقصائده في انتجاع الملوك، وقد ذكرنا في الحديث عن أحواله وتنقلاته أنه مدح ملوك دانية مجاهدًا وابنه عليًا ومدح ملوك قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغرناطة ولعله مدح غيرهم فكثير من شعره فُقد وضاع، ولكن ما تبقى من شعره يصدق مقولة ابن بسام السابقة.

وأول ممدوحيه هو مجاهد العامري ملك دانية وفيه يقول:

وكــأنَّ قَــرن الشــمسِ وجــهُ مُــجـاهدٍ

لـمَّـــا أنارَ سناهُ كـــادَتْ تـغـــربُ[4]

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٢ - ٣٥٣ وشعره.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٣٦ - ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٣٦.

(٤) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٠.

ويمدح ابنه علياً فيقول:

بعليٍّ ابن مجاهدٍ أوردته
روض المديح وموسم المدّاحِ

ثهلانُ في عقد الحُبَا ولدى الوغى
غُصْنٌ يراحُ إلى نسيم رياحِ

فالبرُ بحرٌ من مدائحه التي
تُربي على الطيَّارِ والسَبَّاحِ

بسياسةٍ يقفُ الزَّمانُ إزاءها
خضلَ الحياءِ ملازمَ الأسجاحِ

محفوفةٍ بمكارمٍ وصوارمٍ
تثني وتصرفُ غربَ كلِّ جماحِ[1]

أما المظفر الصنهاجي باديس بن حبوس ملك غرناطة فإنه يحظى بقصائد عديدة في مدحه، منها قصيدة عينية، يصفه فيها بالقائد اللامع والشهاب الساطع، والقمر الطالع، يقول:

القائدُ الجردَ العتاقَ كأنَّها
لججٌ زواخرُ أو عوارضُ لُمَّعُ

متوقِّدٌ في الحادثات إذا دجتْ
فكأنه فيها شهابٌ يسطعُ

علم هو القمرُ المباهي طالعًا
صنهاجةُ وهمُ النجومُ الطُّلَّعُ

متسربلين لكلِّ حربٍ مُرَّةٍ
باسًا يُقرِّعُ كلَّ من لا يقرعُ

فلو انهُمْ رفضوا الأسنَّة والقنا
قامت قُلوبُهُمُ بها والأذرُعُ[2]

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٤.

(٢) الذخيرة ق٢ م١ ص٢٥٥ وشعره.

وهو في مدحه يسير على الدرب الممهد، فالممدوح قائد شجاع وبطل متفرد، وهو يجمع إلى جانب البأس والذكاء الكرم والجود، يقول من قصيدة:

يلقى الوغى بأديم وجهٍ ضاحكٍ
صافي الأسرّة في العجاج الأكدرِ
بطل ترى الأبطال منهُ كالقطا
أشفقن من زجل الجناح مُصرصرِ
في سرجه زُحل وبهرامُ معا
وببُردتيه عطارد والمشتري
بأسًا يُخلّي الخيل حين يخوضُها
كالأيكة انقصفت بريحٍ صرصر
وذكاءُ فهمٍ كلّما استخبرتهُ
ألفيت أذكى مندلٍ في مجمر
في كُلِّ كفٍّ منهُ خمسُ أصابعٍ
لكنّها في الجود خمسةُ أبحُر[1]

وتلقى هذه المعاني في أغلب قصائده المدحية، ولكنك تحس بمعاني القوة التي يضفيها على البطل، من خلال قوة ألفاظه، وجزالة سبكه، وفخامة إيقاعه، واقرأ معي هذه الأبيات:

فتًى يخرُقُ الأغيال وهْي أسنّةٌ
ويقتنصُ الأبطال وهْي أسودُ
فليس لمختالٍ لديه مخيلةٌ
وليس لمرِّيدٍ عليه مُرُودُ
بعيدُ المدى ماضٍ يريك جلادةً
إذا لم يُطقْ حرَّ الجلاد جليدُ

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٨ وشعره.

يحـيـدُ عن القـول الكريه سمـاعُـهُ

وليس عن القـرن الكريه يحـيـدُ[1]

ومن أروع مدائحه قصيدته الميمية في مدح المأمون بن ذي النون ملك غرناطة، إذ أضفى عليه روائع المعاني وفائق الصفات، فالزمان به استقام، وعمَّ الأمن عموم رعيته لا يفزعها شيء بل هي آمنة مطمئنة كحمام الحرم، وقد تميز هذا الملك عن سائر الملوك كما تميزت أمّة محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الأمم، لقد طابت به الدنيا، وسرى طيبه يعبق، ولم يبق شيء إلا طاب به:

وطيِّب حـتى رضـاب الثـغـور

فـلا فم إلا وفـيـه شـبمْ[2]

يقول فيه:

ومـا زال يقـفـو زمـانٌ زمـانًا

فـإمَّـا بحـمـدٍ وإمَّـا بذمْ

ولكنَّ هـذا الزمـان اسـتـقـامَ

ولولا ابنُ ذي النُّونِ لم يسـتـقمْ

فـقـد سكنتْ عينُ دهـمـائـهِ

كـمـا سَكَنَ الفـعْلُ جـزمًـا بلمْ

رعـايا الملوك قطا البـيـد لكنْ

رعـيَّـةُ يحـيى حـمـامُ الحـرمْ

ج - الوصف:

حظيت الطبيعة بالنصيب الأوفى من شعر الوصف عند إدريس اليابسي، وفي حديثنا عن هذا الغرض في أغراض وموضوعات الشعر في جزر البليار عرضنا لبعض اللقطات من شعره في الوصف، ولا بأس في إكمال جوانب الصورة في هذا الحديث الخاص عن غرض الوصف في شعره.

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٩ وشعره.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٢.

ووصف الطبيعة عند شاعرنا يكاد يقتصر على مقطعات في وصف الياسمين، أو البنفسج والسوسن والخيري، ويعتمد في ذلك على أوصاف طريفة، وتشبيهات ظريفة، كقوله من قطعة:

وضاحكٍ كالفلـــق	عـن فلَـجٍ[1] في ورقِ
على حِفافيْ مِـرْوَدٍ[2]	مُذهـبٍ مُنـدلِـقِ
كمُنتَجٍ مـنْ غـرقِ	وخـارج مـن نَفـقِ
بين اصـفرارٍ فاقعٍ	على ابيضـاضٍ يَقَقِ
كأنّما كـلاهـمـا	فـي راحـةٍ أو طبقِ
بُـرادةٌ مـن ذهـبِ	فـي وَرَقٍ مـن وَرِقِ[3]

ولقد أجاد إجادة تامة في تشبيه القائم وسط السوسنة بالناجي من الغرق، أو الخارج من النفق ولكنه يعود بعد هذا التشخيص إلى التشبيهات الجامدة، وعلى الرغم من طرافتها إلا أنني أميل إلى ذلك التشخيص الذي بدأه.

وها هو ذا يعود إلى التشخيص الذي بدأه.

وها هو ذا يعود إلى التشخيص مرة أخرى في البنفسج الذي يستعير وريقاته المدببة من شعر كث، ولون نواره من نور الوجه، حيث يقول:

شـهـدتْ لنوّار البنفـسج السُنُّ
مـن لونـه الأحـوى ومـن إينـاعـهِ
بمُشـابـه الشَّـعْـرِ الأثيثِ أعـارهُ
قـمـرُ الجـبـينِ الصَّلتِ نورَ شـعـاعـهِ[4]

---

(١) الفلج: الفرجة بين الأسنان.

(٢) المرود: القائم وسط السوسنة.

(٣) البديع في وصف الربيع ص١٤٠ وشعره.

(٤) البديع في وصف الربيع ص٨٢.

وهو ينصب الياسمين أميرًا للأزهار والنواوير، يأمر فيطاع:

امـــيـــرُ النَّوْرِ يـامُـــرُني بشَـــرْبٍ

ولستُ أُطيقُ عــصــيـــان الأمــيـــرِ(١)

ومن جميل تشبيهه قوله في الخيري:

أهلاً بســـارٍ طيـــبُـــةُ لا ســـارب

اضـــحى هواهُ مُـــضـــرِّبا بضـــرائبِ

يا ناجم الخـــيـــريِّ جـــادك كلُّ ذي

ثغـــرٍ لجـــيـبِ الدُّجْنِ فـــوقكَ جـــائبِ

أعطيت انفـــاس الحـــبـــيـب مُـــعطَّرًا

وخُلقت من خـــيـــلانِ ثوب الكاتب(٢)

وإذا كان اليابسي يرسم صورة صادقة ورائعة من خلال فتنته بالأزاهير والورود، فإنه في المقطّعات التي سلمت من الضياع يُعبِّر في لمحات فريدة وساحرة عن وصف الرياض والطيور والليل والثريا والخيل.

ومن جميل وصفه قوله في الليل:

طرقـــتـــني والـدجى لبـــســت

خِـلَـعًـــا مـن جـلـدة الحـنـشِ

وكـــــانَّ الـنـجـم حـين بـدا

درهـمٌ فـي كـفٍّ مُـــــرتـعـش(٣)

ولعل من أقوى وصفه تلك الصورة التي وصف بها الخيل عاصفة هوجاء، والدهر غصنًا يميد به فعل الريح العاصف بالقضيب الطري:

خـــيل يميـــدُ الدهرُ عند هبـــوبهـــا

مـــيـدَ القـــضـــيب بعـــاصفٍ زعـــزاعِ

---

(٢) المصدر نفسه ص٩٧.

(٣) المصدر نفسه ص١١٥ -١١٦.

(٤) نفح الطيب ٤/٧٥.

فكأنَّ خُطْفًـا من نتـائج أعـوجٍ
تنقضُّ من فـرسـانهـا بسـبـاعِ[1]

وهي تنقض كعقبان الدجون على فريستها:

خـيـولٌ كـعُـقـبـان الدُّجـون وكلُّهـا
لكلِّ صـيـودٍ في العـجـاج صـيـود[2]

ومن ساخر وصفه قوله في لحية كثة بأنها تشبه السحابة الكثيفة، وتتصاعد دعوة المظلوم تحاول اختراقها فترتد عاجزة:

لـو أنَّهـا دون السـمـاءِ سـحـابةٌ
لم تخـتـرقـهـا دعـوةُ المظلومِ[3]

د- اللهو:

إذا كان شاعرنا قد فتح عينيه في جزر البليار، وترعرع في دانية، وملأ سمعه وبصره وكل حواسه بقرطبة الغراء، وغرناطة الجميلة، وإشبيلية الفاتنة، وطليطلة البديعة،وجال في تلك الطبيعة الأندلسية الندية التي قيل فيها:

«فكـلُّ مكـان بهـا جـنـة[4]».

وكل أرضها رياض ومتنزهات وقصور، تضج جنباتها بأغاريد الطيور، وتظللها الأشجار الوارفة، وتدفق من أرضها الينابيع والأنهار، ويعبق الجو بأريج العبير، لا شك أن أرضًا كهذه سيكون نهارُها فرحًا ولياليها أسمارًا.

وعشاق الطبيعة الشعراء يغتنمون هذه الفرص، أيما اغتنام، فيلهون، ويتواعدون للهو بين البساتين الغناء والبرك المزخرفة:

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٥٨.

(٣) المغرب ١/٤٠٠.

(٤) نفح الطيب ١/١٧٤ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

ومَـــا الـعـــيش إلا فُـــواقُ اغـــتـنامٍ

فـمــهـــمـــا تفـوقـتـــهُ فـــاغَـــتَـنِمْ[1]

واليابسي يسمع داعي اللهو فيصيح ملبيًا:

لبـــيك لبـــيك داعي اللهـــو من كـــثب

إلى مـــعـــاطفـة الأغـــصـــان في الكُثُبِ[2]

فإذا دعاه الهوى لبَّى:

دعـــاهُ الـهـــوى من ذي الأراك فلبَّـــاهُ

وغنَّـاهُ أيكـيُّ الحـــمـــامِ فـــأبكاهُ

وصـدَّق دعـوى الشـوق برهـانُ جـسـمـه

ومـــا كلُّ ذي دعـــوى تُصـــدَّقُ دعـــواهُ[3]

وهو يصف لنا مجلس الشرب، فيقول:

ومـــوســـدين على الأكفِّ رؤوســـهم

قـــد غـــالهُمْ نومُ الصـــبـــاحِ وغـــالني

مـــا زلتُ أسـقـيـهم وأشـربُ فضلهُمْ

حـــتى سكرتُ ونالهم مـــا نالني[4]

وإذا كانت مجالسهم تعقد تحت ظلال الأشجار، تحفهم الزهور والأنهار، وتصدح المزاهر بالأنغام والألحان، فلا بد من وصف الراح تدار بالراح، فتطير من صرفها الأرواح، ومن شعره الذي شرق وغرب، فتناقله الأدباء، وأعجب به البلغاء، قوله في وصف زجاجات الراح:

ثقلت زجـــاجـــات أتتنا فُـــرَّغـــا

حـــتى إذا مُلئتْ بصـــرف الرّاحِ

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤١.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٢ وشعره.

(٣) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٢.

(٤) الوافي بالوفيات ٢٢٧/٨.

خـــفَّت فكادت أن تطيـــر بما حـــوتْ

وكـــذا الجـــســـومُ تخفُّ بالأرواحِ[1]

والشمول في رأيه تميت الهموم وتحيي الهمم:

همـــامٌ لهُ شـــيـــمـــةٌ كـــالشَّـــمـــول

تُمـــيتُ الهـــمـــوم وتحـــيي الهـــمَمْ[2]

ويصفها في شكلها وأثرها:

وكـــأسٍ كـــرقـــراقِ الشـــرابِ كـــأنَّمـــا

لهـــا رعـــدةٌ عند المزاج عـــقـــودُ

هي العينُ عينُ الشمس تابى على القذى

فـتنفي القـذى عن نفـسـهـا وتذودُ[3]

هـ - الفخر:

يرد غرض الفخر في ثنايا قصيده، ولم نجد له قصائد أو مقطعات تقتصر على هذا الغرض إلا مقطعة واحدة.

والفخر عند اليابسي يتمثل في نقطتين هما: الفخر بالنفس والفخر بالشعر.

والفخر بالنفس يتحدث عن حزمه وقوته ومضائه وشجاعته، فهو يلقى الليالي في شوكها وقتادها، وهو الذي أيقظ الردى في العدى:

لقـــيتُ الليـــاليَ في شـــوكـــهـــا

فـــبُـــرح نحـــوي بصُمِّ الصُـــمْ

ونبَّـــهْتُ ســـوقَ الرَّدى في العـــدى

فـــقـــامـت ولولا يدي لم تَقُمْ[4]

---

(١) فوات الوفيات ١٦٢/١ وشعره.

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٢ وشعره.

(٣) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٩.

(٤) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٢ وشعره.

وهو القادر على اقتناص مهج الأسود، تشهد له الصوارم، بذلك:

فـــإن لـم أردْ ذاك اللمى العــــذب إنني
علـى مُــــهَج الأُسْــــدِ الـوِرادِ وَرُودُ
وإن صـــديتْ شـــوقًـــا إليك جـــوانحي
فـــصـــدٌ به من عـــارضـــيك صـــدودُ
فـحـــســـبيَ مِنْ شـــهـــديَّةٍ مـــاءُ صـــارمٍ
فلـولُ ظبـــــاهُ لـي بـذاك شـــــهـــــودُ
إذا سُلَّ في الهـــيـــجـــاءِ وهي دُجُنَّةٌ
تـألَّق فـــيـــهـــا للصـــبـَــاح عـــمـــودُ[1]

وقد خاض غمار الحياة وحلب أشطر الدهر، وتمرس بالتجاريب، علوائي الهوى، يتمتع بصفتين يحبهما الله ورسوله، صفتين إيمانيتين اقتبسهما من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم[2]﴾ فهو متواضع يخفض جناحه لأحبائه، أما على أعدائه فهو قامع لهم شديد عليهم، تراه يمشي المخيلة تحت ظلال السيوف، وهو يجلو لنا طرفًا من تجربته، ويظهر لنا قوة شكيمته، ويطلعنا على خصائص نفسه، في هذه القصيدة، البائية التي يقول منها:

مـــاذا أقـــولُ لدُنيـــا لو ظفـــرتُ بـهـــا
أدَّبْتُـــهـــا غـــضـــبًـــا للظرْف والأدبِ
تجلو الرياســـةَ في تـاجِ البـــهـــاءِ على
من لا يُـفَـــــــرِّقُ بـين الرأسِ والـذَّنبِ
شـــــجًى من أقـــــذية الأيَّـام برَّحَ بي
بل بالعـــــوالي وبالهنديَّة القُـــضُبِ
لكنَّـنـي علـوائـي الـهـــــوى مَـــــرِسٌ
حـلبـتُ أشطُـرَ دهـري أيَّمـــــا حَلَبِ

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ٣٥٨ وشعره.

(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

ألقى الأحبةَ مخفوض الجناح وقد
أختالُ تحت الرِّداء العضب ذي الشُّطبِ[1]

وعلى الرغم من هذه الدنيا التي تعطي من لا يستحق، وتثبت التاج فوق رؤوس خاوية لا تفرق بين الرأس والذنب، إلاَّ أن الشاعر يقر بنعم الله عليه، هذه النعم التي أثارت حاسديه، وقد صور لنا ذلك بأسلوب أخاذ، وتعبير نفاذ يقول:

إنِّي لأرْحَمُ حاسديَّ لفرطِ ما
ضمَّت صُدورُهمُ من الأوغارِ
نظروا صنيع اللّهِ بي فعيونُهُمْ
في جنَّةٍ وقلوبُهُمْ في نار
لا ذنبَ لي قدْ رُمتُ كتم فواضلي
فكأنَّما برقعتُها بنهار[2]

أما فخره بشعره فيعرض لنا في أثناء قصيدتين من قصائد المدح، فقصيدتُه سيارة سياحة، يتناقلها الركبان وتشدو بها الألسن، وهي كالغرر الطالعة والنجوم اللامعة، وتصديق ذلك يظهر من خلال حكم الملك عليها، وطربه لسماعها:

هشَّتْ لتسمعها بفضلك فاستمعْ
سيَّاحةً بثنائك السيَّاحِ
غُررا كطالعة الكواكبِ مَوْهِنًا
طمحَتْ إلى لُقياك كُلُّ طماحِ
فأتتك جانحةً إليكَ وإنَّما
وعُلاك تحكُمُ لي بفوز قداحي[3]

وشعره في رأيه يتفوق على شعر شاعرين كبيرين: أحدهما في العصر الجاهلي والآخر في العصر العباسي:

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٣.
(٢) شرح مقامات الحريري ١٣٧/١.
(٣) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٤.

وخُـــذْها تجـــرُّ إلى حـــسنهـــا

اتـهـــجُــــرُ غـــانيـــةُ أمْ تُلِمْ

لـو اعـــتـــرضتْ لزهيـــرِ البـــديعِ

ســـــلا عن بدائعــــه فـي هَرِمْ

ولَـوْ خَطَرَتْ بـحـــبـــيب بن أوسٍ

طوى كُلَّ مـا حـاكَ في المعـتـصمْ(١)

ونتساءل، لماذا اختار هذين الشاعرين: زهير بن أبي سُلمى وأبا تمام حبيب بن أوس الطائي؟ ألكونه يهتم بالبديع ويتأنق في الصنعة على طريقتيهما وأسلوبيهما؟

أم لشهرتيهما ومكانتيهما؟ مهما كان، فإن اليابسي يتأنق في شعره، ويجود في صنعته، وهو مع جودة الطبع، وتدفق العاطفة، فنان رسام، ذو موهبة شعرية متألقة.

و - أغراض أخرى:

إلى جانب هذه الأغراض الرئيسة، فقد اندرجت بعض الأغراض الفرعية في شعره كالهجاء والإخوانيات.

ويبدو لي أنه لم يعتد بالهجاء كغرض أساسي، وإنما كان يرد به على بعض من أساؤوا له، فقال يعيب إنسانًا:

نـــوالـــك مـــن مـــخِّ رأسِ الـــظـــلـــيـــمِ

وعـــــقلك من ذنبِ الثـــــعلبِ

وحـظُّك من كلِّ مـــعـنًى بـديـعٍ

كـــحظِّ النُّمـــيْـــريِّ مِنْ زَيْـنبِ(٢)

وذكر ابن بسام تعرض اليابسي لهجاء أبي جعفر بن عباس وزير زهير الصقلبي، على ما ذكره ابن شهيد في قوله: «وذكروا أن إدريس هجاه فأفحش(٣)».

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٤٣.

(٢) الجذوة ص١٧٠.

(٣) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٠٧.

أما إخوانياته فنجدها في تلك الدعوات وتلبيتها، كما مر في دعوة الوزير أبي عامر بن مسلمة له ولابن الأبار وإجابة إدريس على بطاقة الدعوة هذه.

التصوير في شعره:

إن الرسم بالكلمات، والقدرة الفائقة، على استجلاب المعاني المخترعة التي تميل إليها القلوب، وجودة التشبيه، والتصوير الأخاذ كل ذلك أعطى شعر اليابسي ذلك الرونق والعلوق بالنفس، وتلك الأناقة الفائقة التي تحس بها عند قراءة أشعاره.

وتعال معي لنجول في مرسم هذا الشاعر الفنان، ولننظر معًا، إلى هذه الصورة، في قوله:

والكأسُ تعرفُ كيف تأخذ ثارها

إنيَّ أملْتُ إناءها فأمالني[1]

إنه تصوير حركي أخاذ، فالشاعر يصور الكأس بشخص لا ينام عن ثأره، على طريقة الاستعارة المكنية، والحركة تظهر في هذا الصراع الدائر بينه وبينها، فهو يميلها تارة، وتميله أخرى إلى أن تصرعه.

وها هي ذي صورة أخرى:

كأنَّهُمُ والنَّوْرُ يَسْقُطُ فوقَهُمْ

مصابيحُ تهوي نحوهُنَّ فراشُ

إن هذه الحركة الخفية الجميلة التي نراها ونلمحها من خلال التشبيه[2] حركة رقيقة جميلة، وهي حركة أغصان الشجرة بفعل نسيم الربيع التي تؤدي إلى تساقط الأزاهير والنواوير عشوائيّاً فوق هذه الأجساد الممتدة تحت الأشجار والتي جعلها الشاعر كالمصابيح المنيرة، وقد استعان الشاعر بالأدوات البلاغية المتعددة، ومما يبهر هو ما أتى به من تشبيه صورة بصورة على طريقة التشبيه التمثيلي، فالفتيان

---

(١) فوات الوفيات ١/١٦١.

(٢) الوافي بالوفيات ٨/٣٢٨.

الجالسون تحت الدوحة مصابيح مضيئة، والنوار الساقط عليهم كالفراش، ولم يكتف بذلك بل أتى بجناس رائع بين الفَراش والفِراش.

وكلما توغلت في شعر اليابسي فإنك تلمح هذه الخاصية المتميزة، حيث التشبيه الأنيق والصورة المشعة، والمعنى غير المتوقع، ففي قوله:

وأين من المرتاد، أعــفـــرُ مــقـــمـــرٌ

نَفــورٌ كنومِ العـــاشـــقين شَـــرودُ[1]

فهو يشبه محبوبته في نفورها، كنوم العاشقين، ذلك النوم المتأبي النفور الشارد، فما إن يواتيه حتى يفارقه:

وانظر إلى هذا التشبيه وتلك الصورة التي كررها الشعراء كثيرًا، ألا وهو تشبيه المحبوبة بالشمس، فهل يمضي شاعرنا على نهجهم، ويسير على جادتهم – بتشبيهها بالشمس في علوها وارتفاعها؟ أو في ضوئها وشعاعها؟

لنقرأ هذه الأبيات الثلاثة التي ورد فيها تشبيه محبوبته بالشمس:

سَرَتْ في قميص الصُبحِ وهْو جسيدُ

فــأبلتْ قـــمـــيصَ اللَّيْلِ وهْو جـــديدُ

ولما اســتــمــدَّ الأُفقُ من نورِ وجــهــهــا

تقـــاصــــر باعُ الليل وهْو مــــديدُ

بشـــمسٍ يكادُ الوَهْمُ يُدمي أديمهــا

لهــا الليل تاجٌ والنجــومُ عــقـــودُ[2]

لا شك أنك تحس معي بأن هذا التشبيه مختلف المذاق، جديد النكهة، بعيد عن التقليدية فيه من الأناقة ما فيه من الرقة، وفيه من الحيوية ما فيه من الحركة، فهذه الموجات السارية في قميص الصبح أعطته الحياة والحركة، والنشاط والإشراق، وفي

---

(٢) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٨.

(١) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٨.

جانب آخر مضت تخرق ثوب الليل، وتمزق أستار الظلام على الرغم من جدتها، فانظر إلى هذه الحركة التي تفعل فعلين متضادين، حيث هي تهب في جانب، وتمنع في الجانب الآخر، ثم انظر إلى تلك الإطلالة، وذلك الهروب الذي عبر عنه بتقاصر باع الليل، فها هي ذي تتطاول، وها هو ذا يتقاصر، حركة تطاول وتقاصر، وإطلال وهروب، وعطاء ومنع.

ومع ما نحسه من قوة المحبوبة وقدرتها، فإن الشاعر يحاول أن يوقف هذا التصور في أفكارنا حتى لا نتابع تصورها في قوتها فيصيبنا شيء من عدم الرضا، لذا فإنه يجعلنا نمتص جرعة الإعجاب بها، وقبل أن يتحول هذا الإعجاب إلى تساؤل عن مدى هذه القوة والقدرة؟ وما فائدة محبوبة قوية كهذه لحبيبها؟ يحول مسارنا إلى انبهار آخر فهي على الرغم من سطوعها، وإشراقها وقدراتها في تمزيق ثوب الليل، وتطاولها عليه، وهروبه منها، فإنها رقيقة ناعمة يكاد الخاطر والوهم يدميان جسدها البض.

وما ذلك التشبيه الرائع صورة بصورة إلا تكملة لإطار الصورة العامة، فهي على الرغم من سطوعها كالشمس، إلا أن الليل تاج والنجوم عقود، ومع هذا الوصف المتفرد لمحبوبته فإن الشاعر يرينا في النهاية أن هذا هو رأيه في محبوبته ولكلٍّ فرادته.

وتعال معي إلى هذه الصورة الجديدة:

مضوا ونحور النبل من صبغ طعنهم
كما أُشْرِبَتْ ماءَ الحياةِ خدودُ(١)

فالشاعر لم يكتف بأن جعل للنبل نحورًا على طريقة الاستعارة المكنية، وإنما تحول بها من كونها نبالاً، فصيرها كواعب قد أشربت خدودها بحمرة الشباب.

ولننظر في صورة أخرى مألوفة، وهي غرق إنسان العين في ماء الدمع، فماذا يفعل اليابسي بهذه الصورة المألوفة؟ إنه يجعل إنسان العين شهيدًا، به من نزف الجراح من السلاح ما أترع الثياب، حيث يقول:

---

(٢) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٥٩.

كـأنَّ جـفـوني فـوقَ عـيني مِنَ أجلهـا

ثيـابٌ دوامٍ تحـتـهن شـهـيـدُ(١)

فالجفون التي قرحها الوجد، وأضناها السهر، ثياب مصبوغة بالدماء وقد غطت هذه الثياب الحمراء إنسان عينه فلم يظهر من خلالها.

وشاعرنا يجمع في أسلوبه دائمًا بين السلاسة والجزالة، والرقة والشدة، وصوره تمتاز بالجمع بين الدلال والحزم، والإقبال والعزم، فهو يرق ويعنف دون أن تهتز الصورة أو تتناقض.

وها هو ذا يستعير جدائل الحسان لأعراف الخيل، يقول:

لهـا من ذؤابات الحـسـانِ مـقـاودٌ

ومن لبـدِ الأُسـدِ الورَادِ لبـودُ(٢)

ما أجمل هذه الأعراف التي تتطاير مع الرياح في شدة كر هذه الخيول، فعلى الرغم من أن الصورة في الأصل حربية، إلا أنه ينقلنا إلى صورة أخرى، صورة العذارى يتسابقن والنسيم العليل يداعب شعورهن، ما أجملها من صورة! وما أروع هذا النقل في التصوير!

ولو سمع عبدالله بن مروان بهذا البيت لقرنه بجودة مناديل عبدة بن الطبيب(٣).

ومن جميل معانيه وصوره قوله:

لولا اضطرام البـأس فـيك لدى الوغى

لاخـضَّـر في يدك الوشـيح الذابل(٤)

---

(١) المصدر نفسه ق٣ م١ ص٣٥٨.

(٢) المصدر السابق ق٣ م١ ص٣٥٩.

(٣) سأل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان أصحابه: أي المناديل أفضل؟ فاختلفوا هل هي مناديل مصر أم اليمن، فقال: أفضل المناديل مناديل عبده بن الطبيب حيث جعل أعراف الخيل مناديل في قوله:

ثم قمنا إلى جرد مسومةٍ أعرافهن لأيدينا مناديل

انظر العقد الفريد ١/١١٣.

(٤) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٥٧.

إنه ذلك الجمع بين النار والماء، بين القوة والكرم، بين العزم واللين، بين الشدة والرحمة.

ومع تفرّد اليابسي، في كثير من معانيه وصوره بابتكارات وإضافات، فإننا نقول إن الخلط بين معاني الحب والحرب، والمزج بين الحب والطبيعة، والحرب والطبيعة، من خصائص الشعر الأندلسي العامة، ومع ذلك يبقى اليابسي نهرًا متفرد المجرى عذب الورود، وإن صب في النهاية في مصب بحر الشعر الأندلسي.

شعره ومكانته:

إن شاعرًا يقول فيه الحميدي: «شاعر جليل عالم ينتجع الملوك فينفق عليهم... وشعره كثير مجموع، ولم يكن بعد ابن دراج من يجري عندهم مجراه[1]» لشاعر كبير، فهو يجمع إلى موهبة الشعر الفخامة والعلم، والمكانة الرفيعة العالية التي تجعله ينفق على الملوك بضاعتهم، وتكسد بضاعة الشعراء الآخرين، ثم يبين لنا أنه من الشعراء المكثرين، الذين جمع شعرهم وتداوله الناس، وأخيرًا يقرنه بشاعر الأندلس الكبير ابن دراج القسطلي[2]، ذلك الشاعر الفحل الذي امتاز بغزارة الشعر مع نضج ثقافي، إلى جانب قدراته المتميزة في التحليل، المعنوي والوصف النفسي، وقد قيل في ابن دراج: «لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد، وقال مرة أخرى، لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأن حبيب والمتنبي[3]»، فإذا كان هذا شأن ابن دراج فإن مقارنة اليابسي به تدل على هذه المكانة العظيمة التي حازها شاعرنا.

ويذكر ابن بسام مكانة اليابسي بكثير من التقدير حيث يقول: «انبعث انبعاث السيل، وأدرك إدراك الليل، حتى تضاءلت له الهضاب عن قدره، وماجت الأرض ببحره وصار شعره سمر النادي، وتعلة الحادي، وتمثل الحاضر والبادي، وطفق يتردد على

---

(١) الجذوة ص١٧٠.

(٢) هو أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي من كبار شعراء الدولة العامرية في الأندلس، ولد سنة ٣٤٧هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ. انظر ترجمته في الجذوة رقم ١٨٦ والرايات ١٠٤ والذخيرة ق١ م١ ص٤٣ والمغرب ٢/٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب، وكان كلما قال قصيدة لم يضرب عليها حجابًا، ولا ضمنها كتابًا، حتى يأخذ بها مائة دينار، وقد سأله عباد في بعض رحله إليه، على كثرة بوائقه، وشكاسة أخلاقه، أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود، فقال له: إشارتي مفهومة، وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مهرها، وقد أخرجت من أشعاره، ما يشهد بسمو مقداره، ويعرب عن غرائب أخباره[1]».

ومن خلال هذا النص النقدي نستطيع أن نؤكد على تلك الحقائق التي ذكرناها آنفًا وتميز بها الشاعر، منها غزارة شعره، وسمو مقداره، وسيرورة معانيه المتداولة بين العامة والخاصة، ثم تلك الملحوظة الخاصة بقصيدته السينية التي قالها في آل حمود والتي يطالب المعتضد بن عباد بقصيدة يمدح فيها تكون على غرارها، فأين هذه القصيدة الرائعة التي يعجب بها ذلك الملك؟ لم نعثر عليها في مصادر ترجمته على الرغم من مكانتها، وهذه الملحوظة مع ملحوظة الحميدي عن شعره الكثير، تبين كم جار الزمان على شعر اليابسي، فأيبس غصنه الرطب.

ويعده ابن سعيد من أشهر شعراء الأندلس، ويذكر أنه طائر بجناح الاشتهار[2].

ويقول ابن سعيد: «أبدع شعره قوله:

ثقلت زجاجات أتتنا فرَّغًا ... حتى إذا مُلئتْ بصرف الراحِ

خفَّتْ فكادتْ أن تطير بما حوتْ ... وكذا الجسوم تخفُّ بالأرواح»[3]

ويرى المقري أن هذين البيتين من مشهور شعره بالمغرب والمشرق[4].

(1) الذخيرة ق٣ م١ ص٣٣٧.
(2) انظر الرايات ١٢٦ والمغرب ١/٤٠٠.
(3) المغرب ١/٤٠٠.
(4) نفح الطيب ٤/٧٥.

واستحسن الحميدي قوله في صفة الدرق:

إلى مـــوقـــحـــة الأبشـــار من درقٍ
يكاد منهـا صـفـا الفـولاذ ينفطرُ
مـــؤنثـــاتٍ ولكنْ كلَّمـا قـــرعت
تأنث الرُّمحُ والصـمـصـامـةُ الذكـرُ(١)

واستحسن له أبو عامر بن شهيد في التشبيه قوله:

فكأنَّ كلَّ كـمـامـةٍ من حـولهمْ
خِلبُ وكلُّ شـقـيـقـةٍ تامـور(٢)

☆☆☆☆

(١) الجذوة ص١٧٠ والدرق: ضرب من الترسة تتخذ من الجلود.

(٢) المصدر نفسه ص١٧٠ والخلب بكسر الخاء الظُّفر وحجاب بين القلب [وسواد البطن] [والخُلب] بضم الخاء لب النخل، والتامور: البريق، ودم القلب.

٢ - ابن العطار اليابسي(*)

اسمه ونسبه:

هو أبو بكر محمد بن العطار اليابسي شاعر مرموق أوجزت بعض كتب التراجم الأندلسية في الحديث عنه، ولم تحدد هذه المصادر الفترة التي عاشها، فلم تذكر متى ولد؟ ومتى توفي؟ ولكن إشارة ابن بسام في ترجمته إلى أنه كان من جملة من لقيه وأنشده شعره(١) تجعلنا نستطيع تقدير هذه الفترة، وخصوصًا أن شعره جله في مدح المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى ما ورد في المغرب من أنه كان في مدة ملوك الطوائف(٢)»، فهو إذن من شعراء المعتمد، وإذا كان المعتمد قد حكم من سنة ٤٦١هـ - ٤٨٤هـ حيث تمكنت قوات المرابطين من اقتحام إشبيلية وأسر المعتمد، وإذا كان هذا الشاعر يدل على تمكن في الصنعة، واقتدار في السبك، وإصابة الغرض، بحسن أداء، وجودة تشبيه، وسلامة عبارة، فإنه يكون قد استوى على عود الشعر في هذه الفترة، ولا شك أن ابن بسام لقيه بعد وفاة المعتمد، وابن بسام متوفى عام (٥٤٢هـ) بالتقدير نستطيع القول: إن ولادته كانت في حدود بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وعاش حتى نهاية الثلث الأول من القرن السادس الهجري.

وإذا لم تسعفنا هذه المصادر بأي إضاءة عن حياة هذا الشاعر وتنقلاته، فإن ابن بسام يعده من الطارئين على جزيرة الأندلس، إذ ترجم له في القسم الرابع الخاص بمن جاءوا إلى الأندلس، فقال: «ويابسة من الجزائر الشرقية وهي من الأندلس في سمت دانية، وهو من جملة من لقيته وأنشدني شعره، ولم أحفظ منه عند تحريري هذه النسخة إلا أبياتًا من قصيدة في المعتمد أولها:

(*) انظر ترجمته في الذخيرة ٣٧٦/١/٤ والمغرب ٤٧٠/٢ ونفح الطيب ١٠/٤ والمسالك ١١/ق٤٥٨.

(١) انظر الذخيرة ٢٧٦/١/٤.

(٢) انظر الذخيرة ٤٧٠/٢.

بحـــدّ عـــزمك نصَّلْتَ القنا السُّلُبـــا

قِـدْمًـا وأجَّـجْتَ في مـاء الظُّبـا لهـبـا[1]

أغراض شعره:

وشعر ابن العطار اليابسي يندرج في موضوعات ثلاثة: «المدح، والوصف، والجهاد».

أما المدح فلم نجد له قصائد في غير المعتمد وجلها نبض بصدق العاطفة وروعة التصوير، من ذلك قوله:

يا حــبَّــذا شُــهُبُ الذوابل مــا اعــتلى

من نورِ وَجْـــهِكَ فَـــوْقَـــهـــا لألاءُ

إلى أن يقول:

هيــهــات يُعْــجِــزُه العــدوُّ لو انَّه

فــوق اليــفــاع فــريدةٌ عــصــمــاءُ[2]

وإذا أقـــام على الرِّضـــا في بلـدةٍ

رُبَّ الـنبـــاتُ بـهـــا ومـــاجَ المـاءُ

فـهذه الأرض تهـتـز، ويربو النبـات فـيـهـا، ويموج الماء، وتزغـرد الخـضـرة، وكـأن الأرض تشارك الناس فرحهم بلقاء هذا القائد، وفي المعتمد يقول:

فـــالأرض تقلق مِنْ جــيشٍ قــفلتَ به

والجــوُّ يعــثــرُ فــيــهِ من قَنًا وظُبَـا

جــيشٌ إذا مـــا قـــتــامُ النَّقع جللهُ

كــانت سـيـوفُك نارًا والعــدا حطبــا

فـهذه الأرض تميد بهـذا الجيش الجرار، وهـذه السمـاء تتشـاجـر فيهـا الرمـاح وتتشـابك، وهذه السيـوف تتلظى في أيدي جنوده وتستـعر، إنهـا نار تتوقـد، والأعداء حطبها، وروعة البيان والتشبيه تتجلى في ذلك القمر الذي تحرسه شهب الأسنة:

---

(١) الذخيرة ٣٧٦/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

لأنتَ بدرُ سماءِ المُلكِ تحرسُهُ

شهبُ الأسنَّةِ عن إصغاءِ مُستَرقِ[1]

والوصف يختلط بغرض المدح، والقارئ لشعره يحس بقدرة الشاعر الوصفية التي لا تكتفي بالشكل الظاهري من مشبه به، أو ذكر ما يتضح للعيان، وما هو معروف بالمشاهدة، واسمع قوله في وصف السيوف حيث يقول:

والبيضُ سافرةُ الوجوه كأنَّما

لخدودهنَّ من اللقاءِ حياءُ

تشدو بهام المشركين فيعتري

أذنَ الهدى لغنائها إصغاءُ[2]

لقد سمعنا صليل السيوف وضربها الجماجم، وقرأنا التشبيهات الكثيرة في ذلك، ولكننا لم نسمعها تغني فتطرب أُذن الإسلام، وتصدع رأس الكفر في غير شعر ابن العطار اليابسي.

والخيول عنده بحور، وأي بحور هي؟؟

هي البحورُ ولكن في كواثبها

عند الكريهة منجاةٌ من الغرقِ

إذا تسعرت الهيجاءُ أخمدها

ما في معاطفها من ندوةِ العرقِ[3]

والجيش بحر أيضا:

والجيشُ مضطربُ البنود كأنَّهُ

تحت العواصف لجَّةٌ خضراءُ[4]

(١) المصدر السابق ٣٧٨/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

(٣) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

(٤) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

والسيف الصقيل لم يكتف بجمع الماء واللهب بين صفحتيه، وإنما هو جدول رقراق، هبت عليه الصبا فأبانت حده من إفرنده، وينتقل إلى مرحلة أعلى من الوصف والتشبيه فقد جعل لليالي الغراء، وهي ليالي النصر والفتح فمًا يفتر عن سمرة حديد السيف، يعلوه بياض الحد القاطع:

واجْلُ الظَّلامَ بوقَّادِ الفرندِ كأنْ
في صفحتيه جمعت الماءَ واللهبا
يروقُ مضطربًا ماءُ الصقال به
كأنَّهُ جدولٌ هَبَّتْ عليه صَبا
تفترُّ منهُ الليالي الغُرُّ عن لعسٍ
تخالُ إفرندهُ من فوقه شنبا(١)

أما الجهاد والدعوة إليه فيظهر من خلال هذين الغرضين واضحا عند شاعرنا، كيف لا وهو يرى العدو يعيث ببلاده فسادًا؟؟ كيف لا وهو يرى تجمع الأعداء للقضاء على الإسلام في معركة الزلاقة المشهورة؟ من هنا ينطلق الشاعر مدافعا عن دينه وكيانه ووجوده، فيصرخ بكل قواه وعاطفته:

فدُسْ - فُديتَ - بخيل اللهِ أندية
للشِّرْكِ تصطلمُ الأوثان والصُلُبا
واجْلُ الظلامَ بوقَّادِ الفرندِ كأنْ
في صفحتيه جمعت الماء واللُهبا
ولا تردُّ حديد الهند ذا وضح
حتى يُرى بنجيع الكُفر مُختضبا(٢)

ويظهر ذلك النغم الإسلامي والتوجه الإيماني من خلال هذه القصيدة المدحية في المعتمد، حيث يقول:

---

(١) المصدر السابق ٢٧٧/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٧/١/٤.

والبـيضُ سـافـرةُ الوجـوهِ كـأنّمـا

لخـدودهنَّ من اللـقـاء حـيـاءُ

تشـدو بـهـامِ المشـركين فـيـعـتـري

أذنَ الـهـدى لغنائـهـا إصـغـاءُ

والجـيشُ مـضطربُ البنودِ كـأنّهُ

تحت العـواصف لجّـةٌ خـضـراءُ

ثابرت في طلبِ العـدوِّ مـغـاورًا

حـتى اشـتكى التـأويبُ والإسـراءُ

فـصـدرت والاسـلامُ فـوق جـبـينه

وضحٌ تضـاءلَ عن سناهُ ذُكـاءُ

والكُفْـرُ مُنحَطِمِ الفـقـار بعُنقـه

خَـضَعٌ وفي أجـفـانه إغـضـاءُ

وتتبدى في هذه القطعة أغراضه الثلاثة، فمدح المعتمد بقوة جيشه ومثابرته في طلب العدو، ثم هذا النفس الإسلامي القوي، ثم هذا التصوير الجميل والوصف الرائع بتشخيص المعنوي فالإسلام وجهه يشرق بنور ساطع تتستر الشمس حياء منه.

والكفر يجر أذيال الخيبة، منحطم الفقار، خاضعًا ذليلاً منكس الرأسِ وأجفانه تغفي على الذل.

نكتفي بهذا القدر المتميز من شعر هذا الشاعر، ولعلنا قد استكملنا بعض جوانب القوة في شعره عند حديثنا عن أغراض الشعر في جزر البليار، وحتى لا يتكرر ما ورد هناك اقتطعت بعض أشعاره لورودها في موضعها في الأغراض.

✡✡✡✡

٣ - ابن طُنيز الميورقي(*)

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن طنيز الأنصاري الميورقي، ولد في ميورقة ولما شب رحل في طلب العلم إلى الشام والعراق، وجلس للإقراء والتعليم في عمان وبلاد الزنج، قال ياقوت في ترجمته «قدم دمشق، وسمع بها، وحكى عن أبي محمد بن عبدالبر النميري، وأبي الحسن علي بن عبدالغني القيرواني وغيرهم، روى عنه عبدالعزيز الكناني وهو من شيوخه، وأبو بكر الخطيب، وهبة الله بن عبدالوارث الشيرازي، وعمر بن عبدالكريم الدهستاني، وأبو محمد بن الأكفاني، وقال: إنه ثقة.

وكان عالمًا باللغة، وسافر من دمشق في آخر سنة ٤٦٣هـ «متوجهًا إلى بغداد ومنها إلى البصرة حيث وصلها سنة ٤٦٩ فسمع من أبي علي التستري كتاب السُّنن، وأقام عنده نحوًا من سنتين، ثم خرج إلى عمان بعد ذلك، ومر على مكة حاجًا عام ٤٧٣هـ ثم عاد إلى البصرة وتوفي بها أو ببغداد سنة ٤٧٧هـ وبعدها بسطور يقول: «ثم إنه مات من وقته، وذلك في سنة ٤٧٤هـ، والقفطي يذكر الرواية الأولى عن موته.

أما بروكلمان(١) فيذكر أنه توفي في كاظمة من ضواحي بغداد سنة ٤٧٥هـ – ١٠٩٢ نقلاً عن ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد.

(*) انظر ترجمته في معجم البلدان ٢٤٧/٥ وبغية الوعاة ٣٢٧ وذيل تاريخ بغداد ٨٠/١٧ إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٣٠/٢ وتاج العروس ٨٤/٤ وتاريخ ابن عساكر ٤٣٣/٢٨ وتلخيص ابن مكتوم ١٢٦ و(طُنَيْز) كزُبَيْر هكذا ضبطه صاحب تاج العروس ونقل عن ابن النجار أنه «طنر» بالطاء وتشديد النون والراء وفي معجم البلدان «طير».

(١) تاريخ الأدب العربي ١٢٣/٥.

فهو عالم باللغة والنحو عارف بعلوم القرآن والحديث وهو في الوقت نفسه شاعر، فكل من ترجم له ذكر أنه شاعر، ولكنهم جميعًا أوردوا له مقطعة واحدة هي قوله:

وسائلةٍ لتعرفَ كيف حالي
فقلت لها بحالٍ لا تسرُّ
دُفِعْتُ إلى زمانٍ ليس فيه
إذا فتشتُ عن أهليه - حُرُّ[1]

وذكر بروكلمان أن له أشعارًا مخطوطة في الأسكوريال[2] وذكر صاحب معجم المؤلفين أن من آثاره مجموعة شعر[3].

☼☼☼☼

(١) معجم الأدباء ٢٤٧/٥ وإنباه الرواة ٢٣٠/٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي ١٢٣/٥.
(٣) معجم المؤلفين ١٩/٧.

٤ - الحميدي الميورقي[1]

هو محمد بن فتوح بن عبدالله بن فتوح بن حميد بن يصل، أبو عبدالله بن أبي نصر الحميدي الميورقي، الحافظ المؤرخ الأديب الشاعر، ولد بميورقة قبل ٤٣٠هـ وتلقى العلم في الأندلس على كبار علمائها: كابن عبدالبر النمري القرطبي وابن حزم الظاهري، وسمع بمصر ودمشق وبغداد واستوطن أخيرًا ببغداد، وكتب بها الكثير، وروى عنه ابن الخطيب وابن ماكولا.

له العديد من المصنفات في مختلف التخصصات في الفقه والحديث والتاريخ والتراجم والأدب والشعر، ومن مصنفاته المذكورة: «تجريد الصحيحين للبخاري ومسلم والجمع بينهما»، و«تاريخ الأندلس» و«جذوة المقتبس» و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل» و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«ترسل مخاطبات الأصدقاء»، وكتاب «أدب الأصدقاء» وكتاب «تحية المشتاق في ذكر صوفية العراق»، و«المؤتلف والمختلف»، و«وفيات الشيوخ» و«والمتشاكه في أسماء الفواكه»، و«نوادر الشعر» و«تفسير غريب ما جاء في الصحيحين»، و«التذكرة» و«بلغة المستعجل أو تاريخ الاسلام» و«ديوان شعره».

وإذا كانت اتجاهات الحميدي تظهر من خلال هذه المؤلفات فإن الشعر كان من هذه الاتجاهات التي ظهرت لديه، فقد ذكر ابن شاكر وابن الدمياطي أن له ديوان شعر، وذكر ذلك الذهبي والصفدي.

وشعره الذي ورد في مصادر ترجمته يتجه اتجاهًا دينيًا خلقيا تهذيبيًا، فيه من الزهد ما فيه من الجد والعفة، وهو أميل إلى شعر الفقهاء والزهاد، من ذلك قوله:

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢٨٢/٤ - ٢٨٤ ومعجم الأدباء ٢٨٢/١٨ - ٢٨٦ والوافي بالوفيات ٣١٧/٤ - ٣١٨ والبغية رقم ٢٥٧ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٣٤/١٨ - ٣٦ والأعلام ٣٢٧/٦.

كـــــلامُ الـلّـهِ عـــــز وجلُ قـــــولـي

ومـــــا صـــــحَّتْ بـه الآثـارُ ديـنـي

ومـــا اتفق الجـــمـــيع عليـــه بدءًا

وعـــودًا فـــهـــو عن حقّ مُـــبـينِ

فَـــدَعْ مـــا صـــدٌ عـن هذا وهـذا

تكُنْ فـــيـــه على عـــيْنِ اليـــقين[1]

ويقول زاهدًا في لقاء الناس:

لـقـــاءُ النّاسِ ليس يُفـيـد شـيـئًــا

ســـوى الـهــذيان مـن قـــيلٍ وقـــالِ

فـــــاقلل من لـقـــــاء الـنّـاس إلاّ

لأخـــذ الـعلـم أو لـصـــلاح حـــالِ[2]

وبعد طول تجوال، ماذا قال؟:

ألـفتُ النُّوى حــتّى أَنِسْتُ بوحـــشـــتي

وصِـرتُ بهـــا لا بـالـصــبـابـة مُـولـعــا

فَلَمْ أُحْصِ كم رافـقتُ فـيـهـا مـرافـقًـا

ولم أُحْصِ كم يمَّمْتُ في الأرض مـوضـعـا

ومن بـعـد جـوب الأرض شـرقًـا ومـغـربًا

فـلا بُد لـي من أن أُوافيَ مـصـرعـا[3]

ويدعو أن يعيش الإنسان للعلم فبه يحيا ويظل يذكر بعد الفناء:

مـن لـم يـكُـنْ لـلْـعِـلـمِ عـنـد فـنـائِـه

أرجٌ فـــإنٌ بـقـــاءه كـــفـنـائـه

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٢٨٥.

(٢) الوافي بالوفيات ٤/٣١٨.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٢٨٦.

بالعلم يحـــيـــا المرء طول حـــيـــاته

وإذا انقـضى أحـــيــاهُ حُـــسْنُ ثنائه[1]

وقد شهد جميع من ترجم له بالتقوى والصلاح، فقال ياقوت: «لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم[2]» وتوفي في بغداد عام ٤٨٨هـ.

☆☆☆☆

(١) الوافي بالوفيات ٤/٣١٨.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٢٨٣

٥ - عياش بن حوافر(*)

هو أبو الحيا، أو أبو المحجي عياش بن حوافر، ولد في حدود (٥٩٠هـ) من عرب ميورقة، شاعر هَجَّاءٌ، قال عنه ابن الأبار: «كان أخبثهم لسانًا وأكثرهم افتتانًا[١]» وأورد له من هجائه قوله:

مــــا في بني طلحـــةٍ من يُرتجى لندىً

ولا يُخـــــافُ لـبـــــأس منـهُمُ أحـــــدُ

هجـــوتـهم حين عـــافَ الناسُ هَجْـــوَهُمُ

فلي عليـــهمْ بتنويهِ الهـــجـــاءِ يدُ[٢]

وقوله أيضًا:

بنو يَفْـــعُـــولَ إن كـــانوا قـــضـــاةً

فــــقــــد رَأوا الحــــرامَ لـهم حــــلالا

إذا أُعْطوا رِشًــا كـــانوا خِـــفـــافًـــا

وإن سُـــئِلوا الندى صـــاروا ثقـــالا[٣]

وله من النسيب المعجب ذلك المزج الرائع بين الغزل والحرب في قوله:

بـين القـلـوبِ وبـين الأعْـــــيُن النُّجُـلِ

حَـــرْبٌ تُشَبُّ بـغـــيـــر البِــيضِ والأَسَلِ

(*) انظر ترجمته في تحفة القادم ٢٤٦ والمقتضب ١٥٤ وبغية الوعاة ٢/٢٣٩ وانظر الوافي.

(١) تحفة القادم ٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٤٧.

أمّـا الـمِـلاَحُ فـحـدِّث عن مـلامـحـهمْ
في العـاشـقين وعن صِـفـيَن لا تسلِ
من كلِّ أحـورَ قـدْ أرْدَتْ لـواحظُـهُ
على غـرارتِـه من فـارسٍ بطلِ
عنُّوا لنـا بـرمـاحٍ من قـدودهـمُ
وأنجـدوهـا بـأسـيـافٍ من الـمُـقلِ
وابن الأمـيـرِ أمـيـرٌ في كـتـائبـهِ
يغـزو القلوبَ بأفـراسٍ من الغـزلِ

ومن جميل شعره قوله[1]:

يـا ربَّ لـيلٍ قـد تـعـاطينـا بـهِ
كـأسَ السُّـهـادِ نعلُّ مِنْهُ ونَنْهلُ
وكـأنما أفقُ السَّـمـاءِ خـمـيلـةٌ
والـزهـرُ زهـرٌ والمجـرَّةُ جـدولُ

وأخبر عنه ابن مسدي قال: كان عارفًا بكتاب سيبويه، رأيته بشاطبة ثم ببلاد شتى ويبدو أنه تنقل في بلاد الأندس.

✡✡✡✡

---

(١) بغية الوعاة ٢/٢٣٩ وهامش تحفة القادم ص٢٤٦.

٦ - ابن عبدالولي الميورقي(*)

لم تفد الترجمتان اللتان وردتا لابن عبدالولي الميورقي في إماطة اللثام عن وجه هذا الشاعر، فابن سعيد أورد له في كتاب «الغبقة في حلى جزيرة ميورقة» خبرًا في سطر واحد وثلاثة أبيات من الشعر، وفي ذلك قوله:

هل أمـــــانٌ من لحظكِ الفـــتَّـــانِ
وقـــوامٍ يميسُ كـــالخـــيـــزران
مُـــهـــجـــتي منك في جـــحـــيمٍ ولكـ
ـنْ جـــفـــوني قـــدْ مُـــتِّـــعَتْ في جِنَانِ
فَـــتَنَتني لواحظٌ ســـاحـــراتٌ
لَستُ أخـــشى مِنْ فِـــتْنةِ السلطانِ

ومن هذا الخبر نعلم كم ضاع من شعر هذا الشاعر ومن شعر جزر البليار، ونعلم أن غرض الموشحات قد انتقل إلى هذه الجزر، ولكن هذا العلم لا يفيدنا سوى حسرة تضطرم في الفؤاد على ما فقدناه من هذه الآداب.

أما الترجمة الأخرى التي أوردها المقري فلم تتجاوز الترجمة السابقة: إذ أنشد له الأبيات الثلاثة نفسها، وقال في مقدمتها: «وكان بميورقة جماعة أعلام وشعراء، ومن شعر ابن عبدالولي الميورقي.....» ثم يورد الأبيات.

وهذا الخبر الذي أورده المقري يؤكد المقولة السابقة بضياع الكثير والكثير من شعرنا ونثرنا في تلك البقاع فأين هم جماعة الأعلام والشعراء الميورقيين؟

✡✡✡✡

(١) انظر ترجمته في المغرب ٢/٤٦٨ ونفح الطيب ٤/٤٧١.

٧ - ابن عشير اليابسي(*)

هو أبومحمد عبدالله بن الحسن بن عشير اليابسي. من جزيرة يابسة، شاعر نحوي، ذكر القفطي أنه «قرأ بالأندلس على أبي الحسين بن محمد بن طراوة السبائي المالقي النحوي بالأندلس، وقال: لم أر مثله، وكان يعظمه جداً ورحل إلى الشرق وتصدر للإفادة بجامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو، وكان له شعر كثير.

دفن بمقبرة باب البحر بالإسكندرية، ووصى بأن يصلي عليه أبو طاهر السلفي فلم يمكنه ذلك لوحل ومطر كان في ذلك اليوم[1]» وذكر ياقوت وفاته فقال: «مات ليلة السبت في العشرين من محرم سنة ٦٢٥ هـ[2]».

✡✡✡✡

(*) انظر ترجمته في بغية الوعاة ٣٨/٢ ومعجم البلدان ٤٢٤/٥ وإنباه الرواة ١١٥/٢.

(١) إنباه الرواة ١١٥/٢.

(٢) معجم البلدان ٤٢٤/٥.

٨ - محمد بن إبراهيم العبدري الميورقي

أورد ترجمته ابن الشعار الموصلي في كتابه المخطوط الموسوم بـ«عقود الجمان في شعراء هذا الزمان»، في المجلد السابع، فقال: «محمد بن إبراهيم بن أمية بن خلف أبو عبدالله العبدري، من أهل ميورقة من بلاد الأندلس، شاب أشقر قصير، من حفاظ القرآن العزيز.

زعم أنه درس صدرًا من علم العربية، وأتقنه في حلب واستوطنها يسترزق من الوراقة والنسخ، وذكر أنه ولد سنة عشر وستماية ويقول الشعر، أنشدني لنفسه بحلب في سنة أربعين وستماية:

عج بالكئيب المستهام وسِرْ به
متيممًا نحو العقيق وسِرْبِهِ
وانشد فؤادًا ضلَّ فيه وقل لهم
ليس المتيم آمِنًا في سربه
واسفح بسفح الأبرقين وتربه
سحبَ الدموع على تَشَتُّتِ تِرْبِهِ
فلعلَّه يقضي لبانة نفسه
من قبل أن يقضي لمُرغم حِبِّهِ
يا مُدنفًا عبث السقام بجسمه
ومتيَّمًا لعب الهيام بلبهِ
وطوى السرور لبينهم يوم الندى
طيَّ الأديب اللوذعيِّ لكُتْبِهِ

وله أيضًا:

وهل يستطيع الواله الصَّبُّ سلوةً
وقد بان من معموله ثُمَّ ودَّعا

وأودعها بين الجوانح جذوةً
فضرَّمها داعي التَّفَرُّقِ إذ دعا

وقلقل أحشاء المُتيم لوعة
فأصبح مذعور الفؤاد مفزَّعا

يهيم إلى ندٍّ العذيبِ إذا سرى
نسيمٌ عليلٌ منهمُ فتضوَّعا

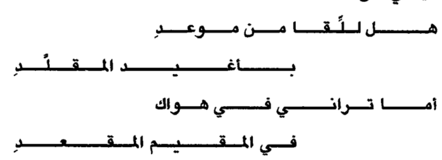
تمازجه أنفاسهم فكأنَّما
تحمَّل مسكًا إذفرًا فيه مُودعا»[1]

✡✡✡✡

(١) - ج٧/ق١١٤أ.

٩ - العماري الميورقي

هو محمد بن عمر العماري الميورقي، ولم أجد له ترجمة تعين على التعرف على هذا الشاعر، سوى أنه من شعراء القرن السابع الهجري، وقد ذكره ابن الشعار الموصلي في كتابه المخطوط، عقود الجمان، ولم يعرف به تعريفًا كاملاً، وأورد له قصيدة مدحية في مدح المؤيد، يبدؤها متغزلاً فيقول:


هـــل لـلِّـقـا مـــن مـــوعـــدِ
بـــاغـــيـــد المـــقـــلُـــدِ
أمـــا تـــرانـــي فـــي هـــواك
فـــي المـــقـــيـــم المـــقـــعـــدِ

وقد جمعت نفرة الظبي وبطش الأسد.

ثم ينتقل إلى المدح فيقول:

وليس لي منك حـمى إلاّ حـمى المؤيَّدِ

فقال لي لزامنا وابشر بنيل المقصدِ

إنَّ المؤيدَ الذي استنجدتَ خيرُ منجدِ

أشهرُ أهل الأرض في مكارمٍ وسؤددِ

أقدمُهُمْ في شرف الأصلِ وطيبِ المحتدِ

أطولُهُمْ يدًا ندًى أصـولَهُمْ في مشْهَدِ

أعـزُهُمْ جـارًا وأوفـاهم بـحـسن مـوعـدِ

أمـا سـمـعتَ فـضلهُ يروى بكُلِّ بلدِ

وأنَّهُ ينطق عن بحـر علومٍ مُـزْبدِ

أمـا سـمـعت مـدحـهُ في فم كُلِّ مُنشدِ

هو الكبـير قـدرُهُ في صـورة المقـتـصدِ

كم مـن يدٍ لـهُ علـى هذا الـورى كم مـن يدِ

دامت لـه النعـمـةُ والسـعـدُ دوام الأبدِ(١)

☆☆☆☆

(١) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان: لابن الشعار مخطوط ج٦ ص٧٣

١٠ - يحيى بن غانية[١]

الأمير أبو زكريا الميورقي صاحب ميورقة، ذكر ابن الشعار في ترجمته المختصرة قال: «كان مشهورًا بالبأس والشجاعة بطلاً من الأبطال، مقدامًا في الحروب جوادًا سخيا، أديبا بليغًا، شاعرًا فصيحًا، لم يقع إلي من شعره غير بيت مفرد من قصيدة، وهو:

حَفِيَتْ خُيْلُنا وعزَّ علينا

فجعلنا لها الخدودَ نِعالا[٢]

ويحيى هذا شغل الموحدين فترة من الزمن، وأقضَّ مضاجعهم، واستولى على كثير من ديارهم ومراكزهم، مثل: بجاية وقفصة وتونس، وذكر المراكشي أنه: «استقل بأفريقيا فترة، ولما كانت سنة ٦٠١ هـ تجهز أمير المؤمنين أبو عبدالله في جيوش عظيمة، وقصد بلاد أفريقيا، وقد كان الميورقي يحيى بن غانية قد استولى عليها، هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه، واشتغال أمير المؤمنين أبي يوسف بغزوه الروم بالأندلس»[٣]، وقد استطاع الناصر أبو عبدالله بن المنصور أبي يوسف أن يهزم يحيى في معركة ضخمة، فكانت نهاية بني غانية في سنة ٦٠٦ هـ[٤] وعمل في خدمة يحيى بن إسحاق

---

(١) انظر ترجمته في المعجب ١٧٩، الغصون اليانعة ٩٠ وابن خلدون ١٩٥/٦ والإحاطة ٣١١/١-٣١٢ والاستقصاء ١٦٣/١ وعقود الجمان ٩/؟ ، والبيان المغرب ٢١٤/٣ وتحفة القادم ١٠٢ وعصر المرابطين والموحدين ٢٥١/٢ والأعلام ١٣٧/٨.

(٢) عقود الجمان ج٩/ق؟.

(٣) المعجب ٢٧٥.

(٤) انظر الإحاطة ٣١١/١.

ابن غانية مجموعة ضخمة من الأدباء، والشعراء نذكر منهم على سبيل المثال: أبا محمد عبدالبر ابن فرسان[١]، وأبا عبدالله محمد بن عبدالملك[٢] ومالك بن محمد بن عبدالملك ابن سعيد[٣]، وأبا العلاء عبدالحق بن خلف بن مفرج بن الجنان[٤]، وأبا بكر محمد بن عيسى ابن عبدالملك بن عيسى بن قزمان الأصغر[٥] والفقيه الكاتب أبا بكر محمد بن يحيى الشلطيش المعروف بابن القابلة[٦] وغيرهم كثير.

ولولا أن بني غانية ويحيى هذا قد خرجوا إلى أفريقيا وانشغلوا بها، لكان ذكرهم والتركيز عليهم في أدب البليار ضرورياً، لذلك نجد معظم الشعر والنثر الذي يدور حولهم، إنما يدور خارج أطر البليار، ومع ذلك فقد أشرنا في هوامشنا إلى مواضع هؤلاء الشعراء والكتاب للفائدة، وهلك يحيى شريدًا في تلمسان سنة ٦٣١ هـ وبوفاته انتهت دولة بني غانية.

✡✡✡✡

---

(١) شاعر كان من رجالات وقته خدم يحيى بن غانية وتوفي قبله سنة ٦١١هـ. انظر ترجمته في المغرب ١٤٢/٢ وتحفة القادم ١٦٤.

(٢) كان مقدمًا عند يحيى بن غانية توفي سنة ٥٨٩هـ انظر ترجمته في المغرب ١٦٢/٢.

(٣) انظر ترجمته في المغرب ١٧١/٢.

(٤) انظر ترجمته في المغرب ٣٨١/٢.

(٥) انظر ترجمته في المغرب ١٠٠/١.

(٦) انظر ترجمته في المغرب ٣٥٢/١.



الفصل الخامس

الشعراء الوافدون على البليار

إن وفود شعراء الأندلس على جزر البليار يعود في ظاهره لأسباب ثلاثة:

الأول: فتنة البربر واستيلاؤهم على قرطبة عام ٤٠٢هـ حيث شرد العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، وتفرقوا في الأمصار، فكانت البليار وجهة الكثير منهم.

الثاني: سقوط المعتمد بن عباد، ونهاية مملكة إشبيلية، باستيلاء المرابطين عليها، مما أدى إلى انفراط عقد الشعراء الذي كان ينتظم في إشبيلية حول المعتمد، فغادر عدد من الشعراء، أمثال: ابن البني، وابن اللبانة، وابن حمديس، وأبي العرب الصقلي إلى ميورقة.

الثالث: سقوط إشبيلية في يد الإسبان، حيث لم يبق أمامهم بعد تدهور الموقف في الأندلس سوى جزيرة منورقة، تلك الإمارة التي كان يحكمها ابن حكم القرشي، وتمتعت تحت حكمه بالاستقلال والاستقرار، وقد وصف هذا الحاكم بأنه كهف الغرباء وملاذ كل طريد، فأقبل عليه الشعراء من كل مكان في الأندلس وأفريقيا، ينهلون من عوارفه، ويأوون إلى ظله، وتحت جناحه أحسُّوا بشيء من الأمن والاطمئنان الذي افتقدوه في بلادهم.

وسأتتبع الشعراء الوافدين في مرحلتين:

أ - الشعراء الوافدون إلى ميورقة وبالذات إلى بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان من عام (٤٨٦-٥٠٨هـ) أي إلى بداية السقوط الأول لميورقة، وهؤلاء الشعراء هم: أبو جعفر بن البني وابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي.

ب - الشعراء الوافدون إلى منورقة، وإلى بلاط الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي القرشي، الذي حكم جزيرة منورقة من عام ٦٣٠ هـ إلى حدود عام ٦٨٠هـ، أي ما يقارب الخمسين عامًا.

والشعراء الوافدون إلى بلاطه هم: أبو القاسم بن يامن، أبو المطرف بن عميرة، وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأبو بكر بن العوام الإشبيلي وكثيِّر الأديب.

✡✡✡✡

١ - أبو جعفر بن البِني(*)

هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البِني(١) الأبدي(٢) اليعمري.

شاعر مجون وهجاء، وصف بأنه «خليع العذار، قليل المحاشمة في اللهو والاعتذار، لا يبالي أي مذهبٍ ذهب، ولا يفكر في من عذر أو عتب، وله أهاج أرغمت المعاطس، وبدائع أخرت المُنافس وأخذت المَنافس(٣).

كان كثير الأسفار، ينتقل من وطن إلى وطن، ومن دار إلى دار، لا يستكنُّ على حال، ولا يستقرُّ له قرار.

وفي تصوير حالته يحدثنا الشاعر الأندلسي أبو الصلت أمية حيث أجابه على قصيدة خاطبه بها أبو جعفر، فيقول:

مجدكُ عُلويٌّ يا جعفرُ
والشُّهْبُ لا تعرفُ سُكنى القرارْ
أنست بالبينِ وطولِ السُّرى
فالنَّاسُ أهلُك والأرضُ دارْ

(*) انظر ترجمته في المغرب ٣٥٧/٢ والمطرب ١١٨ ورايات المبرزين ١٢٨ والمعجب ٢٣٥ والقلائد ٤٦٨ والمطمح ٣٦٩ والبغية ١٨٢ واللباب ١٤٨/١ ومعجم البلدان ج١ ق٢ ص٨٨ والتكملة ٢٤/١ والوافي بالوفيات ٣٤٢/٦ والذيل والتكملة س١ ق١ ص٢٧٣ ونفح الطيب ٤٨٧/٣ والخريدة ٢٧٩/١ وفيها أبو جعفر عبدالوالي، وقد اختلط على صاحب الخريدة فأبوجعفر أحمد بن عبدالوالي قد أحرقه السيد الكنبيوطر في بلنسية، وقد نبه ابن الأبار في التكملة ٢٤ إلى ذلك. وكذلك حصل اللبس في الرايات.

(١) البنيّ: بكسر الباء وتشديد النون نسبة إلى قرية بنَّة كما ذكر ابن سعيد في المغرب ٣٥٧/٢.

(٢) بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وبعدها دال مهملة، نسبة إلى بلدة بالأندلس من كورة جيّان بناها عبدالرحمن ابن الحكم وجددها ابنه محمد.

(٣) الذخيرة ٢٨٠/١ والمطمح ٣٦٩.

إن ســـرت كُنتَ الشـــمس أوْ لم تســـرْ

فـــأنتَ كـــالقُطبِ عليـــه المدارْ

ويبدو أنه كان يضطر أحيانًا للظهور بغير مظهره، وعلى غير حقيقته، فيتنسك طلبا للمال، أو تقرُّبًا لوال، أو خوفًا من حاسد، وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان: «تنسك مجونًا وفتكًا، وتمسك باسم التقى وقد هتكه هتكا(١)».

أغراض شعره:

شُهر بالهجاء شهرة ذائعة، قال ابن الزبير في كتاب الجنان: «وله أهاج جرَّع بها صابًا(٢)»، ومع ذلك، فقد أثنى على شعره ابن الزبير وعدَّ لهُ «بدائع أخرت المنافس، وأخذت المنافس(٣)» ويصفه الفتح بأنه: «رافعُ راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعهُ وأظهر بدائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البُرود(٤)».

والمطلع على ما أثبت له من مقطعات في مصادر ترجمته يتأكد بأن «له ما يُرتشف ريقا، ويشرب تحقيقا(٥)».

وشعره الذي بين أيدينا من المرقص المطرب وأكثره في ميدان الغزل والمدح، أما ما ذُكر من تجريعه الصاب لمن تعرض له بالهجاء والعتاب، فلم نجد له ذكرًا.

ولعل الذين ترجموا له تحرجوا من إثبات هجائه، إذ يذكر ابن الأبار بعض الشعراء الذين تحرج من الترجمة لهم لكونهم هجائين.

---

(١) المطمح ٣٦٩.

(٢) الخريدة ١/٢٨٠.

(٣) المطمح ٣٦٩.

(٤) المطمح ٣٦٩.

(٥) المصدر السابق ٣٧٠.

ومن شعره الذي يقطر عذوبة، قوله يتغزل:

من لي بغُرة فاتنٍ يختالُ في
حُلل الجمال إذا بدا وحليِّهِ
لو شِمْتُ في وضح النَّهارِ شُعاعها
ما عاد جُنحُ الليل بعد مُضيِّه
شرقت لآلي الحُسنِ حتى خلّصتْ
ذهبيّةً في الخدِّ من فضيِّهِ
في صفحتيه من الجمال أزاهرٌ
غُذيت بوسميِّ الحيا ووليِّهِ
سَلّتْ محاسِنُهُ لقتل مُحبّهِ
من سمر عينيه حُسام سميِّه

ومن ذائع شعره مقطعة في غلام اسمه علي، يقول فيها:

كيف لا يزدادُ قلبي | من جوى الشوق خبالا
وإذا قُلتُ عليٌّ | بهر النَّاس جمالا[1]
هو كالغُصن وكالبدر | قوامًا واعتدالا
أشرق البدرُ كمالاً | وانثنى الغُصنُ اختيالا
إنَّ من رام سُلُوِّي | عنهُ قد رام محالا
لستُ أسلُو عن هواهُ | كان رُشدًا أو ضلالا
قُلْ لمن قصَّر فيه | عذل نفسي أو أطالا
دُون أنْ تُدرك هذا | تسلُبُ الأُفق الهلالا[2]

وله تشبيهات رائعة واستعارات ذائعة، والتشبيه لديه يقوم على أساس طريف، فإذا كنا نسمع أن المشبه هو عين المشبه به أو كأنه هو، أو أنه استعار وجه الشبه على وجه العارية، فالمشبه عند أبي جعفر يغتصب وجه الشبه اغتصابًا من المشبه به، كقوله:

---

(١) المصدر نفسه ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق ٣٧٠ – ٣٧١.

وكــــأنّمـــا رشــــأ الحــــمى لــمّــا بدا

لك في مُــضلّعــةِ الجــديد المُــعْلَمِ

غَــصَبَ العِــمَــامُ قــسـيَّــةُ فــأراكــهــا

من حُــسنِ مــعطفِــهِ قــويمَ الأســهُمِ[1]

فإذا كان رشأ الحمى يغصب الحمام أو الغمام قسيه، فإن محبوبته قد تباعدها عنه، تغصب الثريا ذلك البعد والنأي، فيقول مشبهًا بعدها ببعد الثريا:

غَــصَــبْتِ الثُّــريا في البــعــاد مكانَهــا

وأوْدعتِ في عـــينيَّ صــــادق نوئهـــا[2]

وفي كُلّ حــــالٍ لم تزالي بـخــــيلــةً

فكيف أعــرتِ الشــمس حُلّةَ ضــوئهــا

ويبدو أن ميورقة كانت إحدى محطاته التي آوى إليها في تنقلاته وأسفاره الكثيرة، فنزل في كنف ناصر الدولة بن مبشر، وعلى ما يظهر من أخباره أنها لم تسرّ به ولم يسر بها، وفي ذلك يقول الفتح: «وكنت بميورقة وقد حلها متسما بالعبادة، وهو أسرى إلى الفجور من خيال أبي عبادة.. وكانت له رابطة لم يكن للوازمها مرتبطا ولا بسكناها مغتبطًا[3]»، فميورقة لم تحقق له مآربه، إذا اضطر إلى التنسك الذي قيده عن اللهو وغلّ مجونه، إلى جانب ما وصل إلى علم ناصر الدولة من حاله، فكان افتضاح أمره باعثًا للخوف في نفسه، وكاد يفقد مهجته مرتين، مرة عندما طرده ناصر الدولة من ميورقة، فركب مركبًا هبت عليه رياح كادت تغرقه واضطرته إلى العودة إلى ميورقة مما جعل ناصر الدولة يفكر في قتله، ويؤكد ذلك الفتح حيث ذكر ذلك في خبره، قال: «ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر، وتردد على سمعه انتهاكه وتكرر، أخرجه

---

(١) المصدر السابق ٣٧٤ والخريدة ١/٢٨٠ – ٢٨١.

(٢) الخريدة ١/٢٨١.

(٣) المطمح ٣٧١.

من بلده ونفاه، وطمس رسم فسوقه وعفاه، فأقلع إلى المشرق وهو جار، فلما صار من ميورقة على ثلاث مجار، نشأت له ريح صرفته عن وجهته إلى فقد مهجته، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة استباحته وإبراء الدين منه وإراحته، ثم آثر صفحه[1]».

ولقد كانت هذه العودة الاضطرارية مؤلمة له من جانبين:

الأول: تنكر أصحابه له وعدم وفادتهم عليه والسؤال عنه، لسوء سيرته، وعدم الجرأة في مخالفة الوالي الغاضب عليه.

فقال يخاطب أصحابه عاتبًا ومذكرًا جميل عيشه معهم، ثم معلنًا حبه لهم:

أحـــبـــتنَا الألى عـــتـــبُـــوا علينا
فـــأقـــصَـــونا وقـــد أزف الوداعُ
لقـــد كُنتُمْ لنا جـــذلاً وأنسًـــا
فـــهل في العـــيشِ بعـــدكُمُ انتـــفـــاعُ
أقـــولُ وقـــد صـــدرنا بعـــد يومٍ
أشـــوقٌ بالســـفـــينة أم نزاعُ
إذا طارت بنا حـــامت عـليكُمْ
كـــأنّ قلوبنا فـــيـــهـــا شـــراعُ[2]

ونحن لا نستطيع أن نستخلص من أشعاره التي وردت في مصادر ترجمته شيئًا يتعلق بميورقة سوى هذه المقطعة الأخيرة، ولعل له أشعارًا لم تصل إلينا، فيها حديث عن هذه المرحلة غير الموفقة، فالفتح يذكر أن له الكثير من الأهاجي التي جرع بها من هجاهم صابًا[3]، ونتساءل أين راية القريض التي رفعها كما يذكر الفتح؟ وأين هي تلك البدائع التي تزري بنظم العقود؟

(١) المصدر نفسه ٣٧٢ - ٣٧٣.
(٢) المصدر السابق ٣٧٣ ونفح الطيب ٤٨٧/٣.
(٣) انظر المطمح ص٣٦٩.

وإذا كان من سوابق حلبة عصره وغرر دهره كما يقول ابن سعيد، وإذا كان مطبوع النظم نبيله، واضح نهجه في الإجادة وسبيله[1]، فلم لم يعط حقه؟

ألكونه شاعر مجون وهجاء؟ أم لسبب آخر؟

لا ندري، ولكن هذه المقطعات اليسيرة التي وردت من شعره تدل على قدرة متميزة، وجودة متحيزة.

٭٭٭٭

---

(٣) المغرب ٢/٣٥٧ - ٣٥٨.

٢ - ابن اللبانة الداني[١]

اسمه ونسبه:

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، عرف بابن اللبانة[٢]، من أهل دانية[٣]، أحد كبار الشعراء الأندلسيين، عاش متنقلاً يمدح بشعره ملوك الطوائف، واختص باثنين منهما هما: المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب ميورقة، حيث اتصلت علاقته الحميمة بالمعتمد، وتواصلت بعد أسره وسجنه في أغمات، ولما يئس توجه إلى ميورقة، وظل في كنف مبشر حتى قضى أجله.

وابن اللبانة الذي رضع لبان دانية ذلك الثغر الأندلسي الذي شهر بمكانته الثقافية، كان متمكنًا من الصناعتين: صناعة الشعر وصناعة النثر، فإلى جانب مجموع شعره وموشحاته، فله ثلاثة كتب مشهورة هي:

«نظم السلوك في وعظ الملوك، ومناقل الفتنة، وسقيط الدرر ولقيط الزهر»، وللأسف فلم يصلنا واحد من هذه الثلاثة، وإن وصلنا بعض قطع من هذه الكتب لا تكاد تروي ظمأ.

ولست بصدد التوسع في الحديث عن ابن اللبانة، فذلك له مكانه الخاص من كتابنا المخطوط «ابن اللبانة الداني، حياته وأدبه»، وإنما سأعرض لما يتعلق ببحثنا هذا من شعر ابن اللبانة ذلك الطائر المغرد الذي ظل يغرد على أغصان شجر الأندلس

---

(١) انظر ترجمته في القلائد ٧٧٦ - ٧٩٠، الذخيرة ق٣ م٢ ص٦٦٦ - ٧٠٢، البغية رقم ٣١٢ ص١٠٩ - ١١٠، المختار من شعر شعراء الأندلس في مواضع متفرقة، الخريدة ١/١٠٧ - ١٣٩، المعجب ص١٤٧ - ١٦٣، المطرب ص١٧٨، التكملة ١/٤١٠، المغرب ٢/٤٠٩، رايات المبرزين ١٢٠، سير أعلام النبلاء ١٢، شذرات الذهب ٤/٢٠، فوات الوفيات ٤/٢٧، الوافي بالوفيات ٤/٢٩٧، نفح الطيب ٤/٢٥٦.

(٢) نسبة لأمه التي كانت تبيع اللبن لإعالته.

(٣) نسبة إلى دانية وهي مدينة تقع على ساحل البحر الأبيض في شرق الأندلس.

الرطيب، وينتقل من غصن إلى غصن، ويتردد «على ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس تردد القمر في المنازل،، وحلٌ من ملوكها محل الحلي من صدور العقائل...[1]».

وإذا كنا قد ألمحنا إلى علاقة شاعرنا بناصر الدولة عند حديثنا عن بلاطه، فلعلنا هنا نستطيع أن نوضح هذه العلاقة بدءًا وعرضًا وختامًا، كيف بدأت؟ وكيف سارت؟ وإلامَ انتهت؟

وإذا كانت شمس المعتمد بن عباد قد أفلت بغروبه عن إشبيلية إلى المغرب أسيرًا في أغمات، لا حول له ولا قوة، فماذا يصنع شاعر أحبه لا يملك غير الكلمة؟ لا بد أنه الوفاء. ولقد كان ابن اللبانة وفيًا، فبكائياته التي أرسلها لوعة وحزنًا على ما آل إليه مصير مليكه ورصيفه في الشعر والنسب - فكلاهما شاعر وكلاهما ينتهي نسبهما إلى لخم - ظلت دليلاً ناصعًا على هذا الوفاء النادر.

ومع ذلك فالرحلة إلى المغرب كلفت ابن اللبانة ما لا يطيق: من رؤية المأساة، والغربة، وقلة ذات اليد، ودليل ذلك أن المعتمد الأسير أشفق عليه، وبعث إليه بأموال قليلة ومعها أبيات من الشعر يقول فيها:

إليك النزر من كفِّ الأسيرِ
وإن تقنع فكُن عين الشكورِ
تقبل ما يذوبُ لهُ حياءً
وإن عَذَرَتْهُ حالاتُ الفقيرِ[2]

فردها ابن اللبانة، وأجاب عن أبياته من أبيات يقول منها:

رويدك سوف تسعدني سرورا
إذا عاد ارتقاؤك للسَّرير
وسوف تُحِلُّنِي رُتبَ المعالي
غداة تحلُّ في تلك القصور[3]

(١) الذخيرة ق٣ م٢ ص٦٦٧.

(٢) المختار من شعر شعراء الأندلس ص٢٥.

(٣) المصدر نفسه.

وأتبعها أبياتا أخرى يقول منها:

أيهـــا الماجـــدُ الســـمـــيـــدعُ عـــذْرا

صـــــرفـيَ الـبـــــرُّ إنما كـــــان برًّا

حــــــاش للّه أنْ أجـــــيـح كــــريمًا

يتـــشكىَّ فــــقـــرًا وكم ســـدَّ فـــقـــرا

وكـــــفــــــاني كـــــلامك الرطب نيـــــلاً

كـــــــيـف ألـقـى دُرّاً واطـلُـبُ تِبْــــــرا

لـم تمُت إنَّـمـــــــا المكـارمُ مــــــاتتْ

لا ســـــقـى اللّهُ بـعـــــدك الأرض قطرا(١)

ولهذا فقد ساءت أحوال ابن اللبانة، وأحسَّ بالفراغ وعانى من الفقر، وأسقط في يده عندما انتهى ملوك الطوائف بسيطرة المرابطين على الأندلس.

وإذا كانت دانية مسقط رأسه، وعلى بعد يسير منها تقبع مملكة شبه مستقلة في جزيرة ميورقة، فلماذا لا يتوجه إليها؟ عله يجد في كنف أميرها شيئًا مما وجده عند المعتمد، وتعود تبتسم له الدنيا بعد تجهم.

انتقاله إلى ميورقة:

ويحزم أمره، ويعزم على ركوب البحر والتوجه إلى تلك الجزيرة، ويصف الشاعر هذه الرحلة المخيفة، والبحر في تلك الفترة مخيف حقّاً، والانتقال على ظهره غير آمن، فمن بين الأمواج قد تخرج على حين غرة سفن القراصنة، أو مراكب الأعداء، ومن هنا نحس صعوبة هذه الرحلة، وإذا كان لا بد من ركوب الصعب، فعلى الشاعر أن يركبه وهو يقول:

وبحـــر سـوى بحـــر الـهـوى قـد ركـبـتُـهُ

لأمـــر كـــلا الـبـــحـرين مــركـبُـه صـــعبُ

---

(١) المصدر السابق ص٢٦ وشعره ص٤٤.

لهُ لُـجَجٌ خُـضـرٌ كـمـا اخـضـرت الرُّبى
إلى أُخـر بيض كـمـا ابـيـضت الكُثْبُ

غـريبٌ على جنبي غـرابٌ نـهـوضُـهُ
بقـادمـتيْ ورقـاء مطلبُـهـا شـعبُ

هوى بين عـصف الريح والموج مـثلمـا
هوى بين أضـلاع المُـعَنّى به قلبُ

كـأني قـذًى في مُـقلةٍ وهو ناظرٌ
بهـا والمجـاذيفُ التي حـولهـا هُدْبُ

ولم يُحس بالأمن والطمأنينة حتى لاحت له ميورقة:

ولما رأت عـيني جِنانَ «مُـيُـورُقٍ»
أمنتُ وحـسْبُ المرء بُغْـيَـتَـه حـسْبُ[1]

ولعل هذا الإحساس بالأمن والطمأنينة والحصول على بغيته لم يدم طويلاً.

فالقارئ لشعر ابن اللبانة يجد في بداية أمره ونزوله على «مُبشر» فيه مثل هذا الشعور، إلا أنه لا يلبث أن يحس بخمود الجذوة، وإذا كان الدافع لمجيئه ما ذكرناه، فإن لديه من الدوافع والأسباب الكثيرة التي أصبحت تدعوه إلى الرحيل عن جناب ميورقة وحمى ناصر الدولة، ويذكر ابن بسام من هذه الأسباب أنه، «سُعي به إلى ناصر الدولة وبُغِي ونُبذ حقُّ نباهته وأُلغي، فلم يرع انقطاعهُ، وجازى إحسانهُ وإبداعه...[2]».

ويبدو أن السعاة والوشاة قد نجحوا في تأليب ناصر الدولة، ففسدت هذه العلاقة بعد صفاء، وتعكرت بعد نقاء، ويتعجل ابن اللبانة الخروج قبل أن تفصم عرى هذه المودة وينقطع ما تبقى من حبالها، وينبتُّ ما اتصل من أسبابها فيصرخ راجيًا ومؤملاً إطلاق سراحه:

---

(١) الأبيات من قصيدة في شعره ص١٧ - ١٨ في مدح ناصر الدولة، مطلعها:
بكت عند توديعي فما علم الركبُ   اذاك سقيطُ الطلِّ امْ لؤلؤٌ رطبُ

(٢) الذخيرة ق٣ م٢ ص٦٨٢.

عـــــسى رافـــــةٌ في ســــــراحٍ كـــــريمٍ
أبـلُّ ببـــــــــرد نـداهُ الـغـلـيــــــــــلا[1]

موضوعات شعره في ميورقة:

إذا كـان أكثـر من نصف شـعـره الذي أبقـتـه عـوادي الدهـر هو في مـدح ناصـر الدولة، فـلا بد من أن تتـعـدد الموضـوعـات والأغراض التي بثـهـا في هـذه المدائح، وإذا رحنا نحصرها فإننا نستطيع أن نقول إنها وقعت في الآتي:

«المدح، والوصف، والغزل، والغربة والشكوى».

وسنتتبع هذه الموضـوعـات بإيجـاز لأننا سنعـيـد الحـديث عنهـا في فـصل «موضوعات الشعر في جزر البليار».

١ - المدح:

إذا كان ابن اللبانة شاعر المعتمد لوفائه، فإنه يعدُّ شاعر ناصر الدولة مبشر بن سليمـان لكثرة ما وجدنا له فيـه من قصـائد المدح، إذ بلغت أكثـر من نصف شـعـره المجمـوع على الرغم من أن بعضـهـا قد جـاء مبـتورًا. فـأول قصـيدة تطالعنا في هذا المجموع في مدح ناصر الدولة ولم يثبت منها إلا مقدمتها الغزلية، وكذلك القصيدة رقم ٣٩، والقصيدة رقم ٨٣.

أما أول قصيدة قالها في مدحه فلعلها تلك البائية التي مطلعها:

بكتْ عند توديعي فـــمـــــا علم الركبُ
أذاك ســــــقـــــــيطُ الطَّلِّ امْ لُؤلُؤٌ رطبُ

وفي هذه القصيدة يصف الرحلة إلى ميورقة وما عاناه من ركوب البحر، ويذكر لقاءه بمبشر، ولأنها تمتاز بالحرارة والحماسة على خلاف ما جاء بعد ذلك من قصائد حيث فتور الإحساس والعاطفة.

(١) المصدر السابق ص٦٨٤.

ومن هذه القصيدة يقول في مدحه:

وقلتُ المكانُ الرحبُ أين؟ فـقـيل لي:
ذرى ناصر العلياء أجمعه رحبُ

براحته بحرٌ محيطٌ مُسخَّرٌ
يُفادُ الغنى فيه ولا يُذعرُ الركبُ

حوى قصبات السبق عفوًا ولو سعى
لها البرقُ خطفًا جاد من دونها يكبو

ويرتاحُ عند الحمدِ حتَّى كأنَّه
- وحاشاه - نشوان يَلَذُّ لهُ الشربُ[1]

وله فيه:

وقبلتي ناصر شرع العلا
فوجهه وجه الهدى في البطاحْ

الديمة الوطفاء يوم الندى
والأسدُ الباسل يوم الكفاح

مُوطأ الأكناف رطب الجنى
مقدم السبق مُعلّى القداح[2]

ومن جميل قوله فيه وقد أبلَّ من مرضه:

شكى لشكواك حتى الشمسُ والقمرُ
وبات درُّ الدراري الزهر ينتشرُ

وراحتِ الريح لا يذكو لها عبق
وأصبح الروض لا يندى به زهرُ

وقلَّص الظل في فصل الربيع لنا
فكادت الأرض بالرمضاء تستعرُ

---

(١) شعر ابن اللبانة ص١٨.

(٢) المصدر نفسه ص٣٠.

والماءُ غاض لنا غيضًا فما نبعتْ

عينٌ ولا سال في بطحائها نهرُ

والسُّحبُ صاحبها ذعرٌ فما نشأتْ

ولا استهلّ له فوق الربى مطرُ

إلى أن يقول:

يومان غبت فغاب الأنسُ أجمعه

وأيّ أُنس إذا ما غبت ينتظرُ

يا ناصر الملك إنّ الملك وجهُ عُلًى

وليس غيرُك فيه السمعُ والبصرُ

إبلال جسمك أهدانا بليلَ صَبًا

فعاد عهد الصبا واستبشر البشرُ[1]

من خلال قصائد المديح في ناصر الدولة ما الذي نستطيع استخلاصه؟

أ - لعل الصور التقليدية التي وشاها ابن اللبانة بصوره ومقابلاته ومزجه بين الأغراض أول ما يطالعنا في قصائد المدح هذه فالكرم الصورة التقليدية تنبثُّ في هذه القصائد فهو:

براحته بحرٌ محيط مُسخرٌ

يُفاد الغنى فيه ولا يذعرُ الرَّكْبُ[2]

فمن يفد عليه ففي نعمائه يستقر:

من رام عن مورده مصدرًا

قالت له نعماؤه لا براح[3]

---

(١) شعره ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) شعره ص١٨.

(٣) شعره ص٢١.

ونواحيه كلها خصب:

خصيب نواحي الفضل يضحك كلُّه

عن المكرمات السبط والحسب الجعدُ[1]

ولعلنا لا نستطيع الفصل بين الكرم والشجاعة، فابن اللبانة يجمع هاتين الصفتين، ومن الصعوبة بمكان أن نستخلص واحدة من الأخرى لولع ابن اللبانة بالجمع بين الصفات، والمقارنة التي يشتد الشاعر في طلبها، فهو يجمع بين كرمه وقوته في آن معًا فيقول:

مكارمه مرعى إلى جنب معقلٍ

أرود إذا أضحى وآوي إذا أمسى[2]

فهو:

الديمة الوطفاء يوم النَّدى

والأسدُ الباسلُ يوم الكفاح

ولم يكتف بجمع صفتي الكرم والشجاعة، وإنما يجمع أيضًا الصفات الخَلْقية والخُلقية المعنوية والمادية، حيث يقول:

يطالعُ عن صُبْحٍ وينهلُ عن حيا

ويخطف عن برقٍ ويعصف عن رعد[3]

ولعل ما قلناه يظهر من خلال هذين البيتين:

متباعدُ الطرفين جودٌ غافلٌ

عمَّا يحلُّ به وعزمٌ مُطرقٌ

بأسٌ كما جمد الحديدُ وراءهُ

كرمٌ يسيلُ كما يسيلُ الزئبقُ[4]

---

(١) شعره ص٣٧.

(٢) شعره ص٥٧.

(٣) شعره ص ٢٧.

(٤) شعره ص٧١.

ثم يظهر بوضوح ويسفر عن وجهه في قوله:

ضـــدان فـــيـــه لمعـــتـــدٍ ولمُـــعـــتفٍ
السـيـفُ يجـمـعُ والعطاءُ يُفـرّقُ[1]

ب - المقارنة:

من جميل شعر ابن اللبانة تلك المقارنات التي ميزت شعره من شعر غيره، وهي من سمات شعره التي غطت على الكثير من أغراضه وإن اتضح ظهورها في غرض المدح ولننظر إلى هذين البحرين، البحر الحقيقي والبحر المجازي:

وبحـرٍ سوى بحـر الـهوى قـد ركبـتـه
لأمـرٍ كـلا الـبـحـرين مـركـبـه صـعبُ

لهُ لجُجٌ خُـضـرٌ كـمـا اخـضـرّت الربى
إلى أُخـرٍ بيضٍ كـمـا ابيـضت الكُثْبُ

ويستمر في هذه المقارنة الشائقة بينهما فيقول:

سـألتُ أخـاهُ الـبـحـر عنهُ فـقـال لي
شـقـيـقيَ إلاَّ أنهُ البـاردُ الـعـذبُ

لنـا ديمتـا مـاء ورملٍ فـديمتي
تماسك أحـيـانًا وديمتـه سكبُ

إذا نـشـأتْ بـرِّيَـةٌ فـلـهُ الـنَّـدى
وإن نشـأتْ بحـريَّةٌ فليَ السُّحْبُ

ولم يتوقف عند مقارنته بالبحر لكنه يقارنه بالربيع:

قـدِمْتَ ربيـعًـا والربيعُ كـأنما
تأخـر وثْرًا إذ تقـدّمْـتَـهُ شـفْـعـا

على نسق وافـيْـتُـمـا ووفـيـتـمـا
فكُنتَ حـيًـا سكْبًا وكـان حـيًـا مـعـا[2]

---

(1) شعره ص ١٨ - ١٩.

(2) شعره ص٦١.

وما أجمل هذه المقارنة بين المادح والممدوح حيث يقول:

وإنـــي وإيـــاه لـمـزنٌ وروضـــــــــــــةٌ

يبـاكـرني سـقـيـا وأزكـو له غـرسـا[1]

ومقارنته لممدوحه بالسحاب والورد والأسد والشمس والصبح، تجدها في ثنايا قصائد المدح، ولعل أروع هذه المقارنات التي شهر بها شاعرنا هذه المقارنة اللطيفة حيث مزج غرض الغزل بالمدح وقارن بين صفات محبوبته وصفات ممدوحه فجاء – حقا – بالأنيق الرقيق والمطرب المعجب، فصفات محبوبته المادية والمعنوية يقارنها بصفات وعطايا وأفعال الممدوح، فيقول:

وضـحـتْ وقـد فـضـحـتْ ضـيـاءَ النَّيِّـرِ

فكأنَّمـا التـحـفت ببـشـر مُـبـشِّـرِ

وتبـسـمتْ عن جـوهرٍ فـحـسـبـتـه

مـا قلدته مـحـامـدي من جـوهر

وتكلَّمتْ فكأن طِيبَ حـديثـهـا

مُـتَّـعتُ منهُ بطيب مِـسْكٍ إذفـر

هزَّتْ بنغـمـة لفظهـا نفـسي كـمـا

هـزَّتْ بذكـراه أعـالي المنبـر

أذنبتُ واسـتـغـفـرتُـهـا فـجـرتْ على

عـاداته في المذنب المسـتـغـفـر

جـادتْ علـيَّ بـوصْلـهـا فكأنَّهُ

جـدوى يديه على الـمُـقل الـمُـقـتـرِ

ولثـمتُ فـاها فـاعـتـقَـدْتُ بأنني

من كـفِّـه سَـوَّغْتُ لثم الخنصـر

سـمـحتْ بتـعنيـفي فـقلت صنيـعـةٌ

سـمـحتْ عـلاه بهـا فلم تتـعـذَّر

(١) شعره ص٥٧.

نهدٌ كقسوة قلبه في معركٍ
وحشًا كلينِ طباعه في محضرِ

ومعاطفٍ تحت الذوائب خلتُها
تحت الخوافق ما لهُ من سمهري

حَسُنَتْ امامي في خمارٍ مثل ما
حسُن الكميُّ أمامهُ في مغفر

وتوشحتْ فكأنهُ في جَوْشَنٍ
قد قام عنبره مقام العَيْثَر

غمزتْ ببعض قِسيِّه مِن حاجبٍ
ورنتْ ببعض سهامه من محجر

أَوْمَتْ بمصقول اللحاظ فخلتُهُ
يومي بمصقول الصَّفيحة مُشهرِ

فكأنَّ أنملَها سيوفُ مُبَشِّرٍ
وقد اكتستْ علقَ النَّجيعِ الأحمرِ[1]

وننهي هذه المقارنات بهذا الحشد الهائل الذي جمعه ابن اللبانة في قصيدة واحدة متكئًا على أداة التشبيه كأن في المشبه والمشبه به، فيقول:

صفا فلو انَّ الشمسَ تعطي شعاعهُ
لما احتجبتْ في ليلِ أربدَ أقتمِ

ورقَّ فلولا أنَّ فيه جزالةً
من البأس لاستنشقتهُ في التنسُّمِ

كأنَّ سجاياهُ ربيعٌ مُفَوَّفٌ
تفتَّح عن زهرٍ نضيرٍ منعم

كأنَّ تخاطيط الحياة بخده
حواشي رداءٍ مُذْهَبِ النَّسج مُعْلَمِ

(١) شعره ص ٥٣ – ٥٥.

كـــأنَّ سنـا مــــرآه في جـــود كـــفِّـــهِ
سنـا الشـمس.. في حـبـا الـغـيث ينـهـمي

كــــــــــأنَّ الــذي فـي نــوره من تــلألــؤ
شــــقـــيقُ الذي في ناره من تضــــرُّمِ

كـــأنَّ تواقـــيع الرِّضـــا بعـــدَ سُــخطِهِ
مـــــواقعُ مُــــزنٍ في عـــــواقب صــــيلم

كـــأنَّ مـــــذاقـــــيـــــه لـيـــانًا وشـــدَّةً
حــــــلاوةُ شــــــهـــــدٍ في مــــرارة علقمِ

كـــــأنَّ لدى هيـــــبـــــاتـه وهبـــــاتـه
جنى جنة مـــحـــفــوفـــةٍ بجـــهنَّمِ

كـــأنَّ ثبـــوت الراســـيـــات ثبـــوتهُ
إذا خَفَّ من خـــوف الرّدى كلُّ مـــحـــجم

كــــــأنَّ أديمَ الأرضِ راحـــــةُ كـــــفِّـــــهِ
وفي بسطهـــا قـــبضٌ على كلِّ مُـــجـــرِمِ[1]

ج - المبالغة:

المبالغة المقبولة عند البلاغيين من البديع المعنوي[2]، فالمبالغة منها المقبول ومنها المردود عند علماء البلاغة وعندنا، فالوصف الذي يصل حد المستحيل يخرج عن حد القبول، ولست هنا بصدد مناقشة هذا الموضوع البلاغي وبيان أنواعه، ولكني أحس أن الوصول بالمبالغة إلى حد الغلو والتطرف ناتج عن إحساس بالضعف الشديد، فهذا الصوت المرتفع ينبعث من ذلك الخائف المتفرد، فالمبالغة الخارجة عن الحد تغطية لحالة، وتستر على قضية وإبعاد للشبهة، وكأني بابن اللبانة الذي شهد ضياع مملكة ابن عباد، وهو يشهد هذه الحروب المتصلة مع الإفرنج، يتسلح بالمبالغة ويأنس إليها، ولعل ظهورها في شعره المتأخر في مدح [ناصر] الدولة يفسر لنا هذه الظاهرة، من ذلك قوله:

---

(١) شعره ص٩٦.

(٢) معجم البلاغة العربية ص٨٩.

وعنهُ أفــيــضــوا إنَّهُ مــشــعــرُ العُلى
وحــولـيـه طوفـوا إنَّهُ كـعـبـةُ الـقـصـدِ[1]

ولم يكتف بأن جعله مشعرًا أو كعبةً، حتى جعل الرزق يبعث على يديه، والقدر يجري على حكمه:

ملكٌ غــدا الرزق مــبــعــوثًا على يده
وظل يـجــري على أحكامـــه الـقـــدرُ[2]

وهذا الملك المحاصر في جزيرة ميورقة:

لـو رام رومـــةَ جـــاءه أربـابُـهـــا
والبِــيضُ أغــلالٌ لـهُمْ وســلاسلُ
ولَوِ الجــبــالُ يـهــزها ليَــهُــدَّها
عــادتْ أعــاليــهــا وهنَّ أســافلُ[3]

وأخيرًا فقد ربط إسلام الناس بتسليمهم لناصر الدولة:

ومــن لــم يُـسَـلِّـمْ فـي الـديـانـة والـدُّنـا
إلى نـاصـــرِ الأنصـــار ليس بمُسْلِمِ[4]

٢ - الغزل:

يبدو أن الفترة الأخيرة من حياة ابن اللبانة لم تكن تتسع لغزل حقيقي، فتقدمه في السن، وسقوط المعتمد، وغربته في جزر البليار أخفتت هذا الصوت في صدره، لذلك جاء نبض الغزل ضعيفًا، فاتر العاطفة، تقليدي الصورة والأسلوب، إن دبت فيه بعض مظاهر الحياة فهي مظاهر مصنوعة، كما يظهر ذلك من قوله:

بكت عند توديعي فــمـــا علم الركْبُ
اذاك ســــقـــــيطُ الطّلِّ ام لُؤلُؤٌ رطْبُ

---

(١) شعره، ص ٣٧.
(٢) شعره، ص ٤٩.
(٣) شعره، ص ٨٢.
(٤) شعره، ص ٩٦.

وتـابعـــهـــا ســـربٌ وإنّي لـمُـــخـطِئٌ
نجـــومُ الـدياجـي لا يُقـــال لهـــا ســـربُ

لـئن وقـــفتْ شـــمسُ الـنـهـــارِ لـيـــوشع
لقـد وقـفت شـمس الـهـوى لـيَ والشـهبُ

عـــقـــيلة بيت المجـــد لـم ترهـا الدُّجى
ولا لمحـتــهـا الـشـمسُ وهي لـهـا تربُ

وإذا ما رحنا نقلب قصائده التي قالها أثناء إقامته في ميورقة، فإننا لا نجد سوى هذا الغزل التقليدي الذي يمهد به لمدح مبشر، أما أن يفرد قصائد أو كمقطعات خاصة بالغزل فذلك ما لم نظفر به في مجموع شعره الذي بين أيدينا، ونحس أن العهد لم يعد يصلح لذلك، والشاعر يعترف بأن ذلك عهد بعيد وأنه في إجازة من الحب والشوق:

عـــاوده الشـــوق وكـــان اســـتـــراحْ
وانـبـــــرت الـطـيــــــرُ تـغـني فـنـاحْ

ذكّـــرهُ عـــهـــد الصِّـــبـــا ســـاجعٌ
مـــدَّ جـنـاحًـــا والـتـــوى في جـنـاح

إلى أن يقول:

أعـطـافُــــه تـشـــــبــــــه أعـطـاف مَنْ
راحَ فـــؤادي مـــــعــــهُ حـــيث راحْ

ويمدُّ يده ليتحسس الحقيقة وإذا بها طيف خيال:

وزارنــي طـيـفُ خـــــيــــــالٍ لــهـم
فـــالحف الـلـيـل رداء الـصـــــبـــاحْ

بـــتُّ بـــه تحـــت ظـــلال الـــــمُـــنـــى
أشـــــتمُّ ريـحـــــانًـا واســــتـفُ راحْ

ونتساءل عن السبب الذي جعله يزوَرُّ عن واقعه حيث يصف المِلاَح التي حضرت بين يدي ناصر الدولة، ويمتطي الخيال يحادث طيفه، فيجيبنا:

مـــــا بـقـــــيـتْ فيَّ ســـــــوى نـظـرةٍ

واقـــــعـــــةٍ باطنُـهـــــا من صـــــلاحْ[1]

ولعل الجديد الذي أضافه في هذا الغرض هو ذلك المزج الرائع بين الغزل والمدح في مقارنة بديعة، تظهر هذه الصنعة المتأنقة التي غلبت على شعر ابن اللبانة، كما يظهر في ذلك من قصيدته في مدح ناصر الدولة التي مرت آنفًا في المقارنات ومطلعها:

وضــحتْ وقــد فـضـحتْ ضـيـاء النَّيِّـر

فكأنَّمـــا التـحـفتْ ببـشـرِ مُـبـشِّـرِ[2]

٣ - الغربة والشكوى

من أجود شعر ابن اللبانة وصفه لحالته النفسية، ومعاناته بعد تحوله إلى ميورقة، فأنت تحس فيه صدق التعبير دون تكلف وتعمل، ويطالعك في تصوير هذه الحالة من خلال مقدمات قصائده، فأنت تستطيع التعرف على حالته النفسية بمجرد أن تصافح البيت الأول من القصيدة.

وإذا كان ابن اللبانة قد أحس بشيء من الرضا والتعويض في رحاب مبشر أول الأمر، حتى كانا كما وصف نفسه مع الوزير أبي القاسم:

وإنِّــي وإيَّــاهُ لمــزنٌ وروضـــــــــــــةٌ

يبـــاكـرني ســقـيًـا وأزكــو له غـرسـا

صـــفـا بيننا من خـــالص الود جـــوهرٌ

غلبنا به في نور جـــوهرها الشـمـســا

ومـــــــا أنـا إلاَّ من عـــــــلاه مكوَّنٌ

غــدوتُ لهُ نوعًــا وأصــبحَ لي جنســا[3]

---

(١) شعره ص٢٩ - ٣٠.

(٢) شعره ص٥٣.

(٣) شعره ص٥٧.

فإن صفاء هذه العلاقة لم يدم «وسُعِيَ به إلى ناصر الدولة وبُغي، فلم يرع انقطاعه، ولا جوزي إحسانه وإبداعه، وهُجِرَ هَجْرَ الجرب، وأقام مقام الحائر المضطرب»[1] وأحس بالدنيا تحاربه وبالغربة تضغط على عنقه:

رمـــــــاني الـدهـر مـن كلِّ الـنـواحـي
فـــــانبت في مـــــقـــــاتليَ النِّبـــــالاَ
وصــــيَّـــرني غـــــريبًـــا في مكانٍ
به الغــــرباءُ تكتـــسب العـــيـــالا

وأحس بالجرح الغائر في قلبه، هذا القلب الذي صفا لمبشر يعاقب بلا ذنب؟ وينجح الوشاة في صرف الأمير عن الشاعر، ويتذكر صديقه السابق ووزير ناصر الدولة الحالي، ليهرع إليه علَّه يكشف عنه هذه الغمة، ويعيد البشر إلى تلك العلاقة التي غاض ماؤها مع مبشر، وفي ذلك يقول الفتح: «وكان بينه وبين وزيره أبي القاسم ذمام وائتلاف، ومعاطاة سلاف، وراحات والتها بكر وروحات، راح السرور عليها وابتكر، ووداد أشبه عصر الشباب.. فلما وصل ميورقة تجدد دارسه، وعادت أجامًا مكانسه، فكان أبو بكر يظن أن تلك الموات تنفقه وإن كسد، وتخلصه ولو حصل في لهوات الأسد... فلما تغير له ناصر وتنكر، ورأى من قعود أبي القاسم عنه ما أنكر، هبَّ من غفلته، واحتال في نقلته، فلاذ بالفرار.. وجعل يستنزله ويستعطفه، ويداريه من هناك ويستلطفه ليمُنَّ بإعادته وصرفه إلى عادته، بكل مقال يسل سخائم الأحقاد»[2] من ذلك قوله في الوزير أبي القاسم هذا:

نســـيــــمُك حـــتَّـــام لا ينبـــري
وطيـــفُك حـــتَّـــام لا يعــــتـــري
اعـــيــــذُكَ منْ عــــرَضٍ أن يكونَ
وأنـت الـذي كـنـت مـن جـــــــوهـرِ

ثم يذكره بتلك العلاقة القديمة في الأندلس التي تساقيا فيها كؤوس المحبة ورحيق الشوق، وصافي المودة:

---

(١) قلائد العقيان ٣/٧٨٣.

(٢) قلائد العقيان ٣/٧٨٥ – ٧٨٦ وانظر الخبر في الذخيرة ق٣ م٢ ص٦٨٤.

أتـذكـــــرُ أيّامـنـا بـالحـــــمـى

وأيـامـنـا بـذوي الأعـــــــصـــــــرِ[1]

ومن قصيدة أخرى يقول مذكرًا:

صـــفـا بيننا من خــالص الود جــوهرٌ

غلبنا به في نور جــوهره الشــمـســا[2]

وبعد أن يذكره، يستعطفه:

ألا رأفــــــــةٌ مـن وفـيٍّ صــــــــفـيٍّ

ألا عَـطْـفَـــــــةٌ مـن سَـنِيٍّ سَـــــــريٍّ[3]

ويناديه بالتصريح بعد التلميح، لإقالة عثرته والأخذ بيده:

أبا القـاسم اشـرب قـهـوة العـز وانتـقل

ثنائي ومن فضل الكؤوس اسقني كـأسا

وخُـذ بيـدي من عــثـرةٍ قـصُـرت يدي

وكنتُ أخـــا بأسٍ فلم تُبق لي بأســا[4]

ولكن الوزير أبا القـاسم لم يعـره اهتـمـامًـا، وصم أذنيـه عن نداه، فـأسـقط في يد الشاعر، وأصابه سهم الدهر:

رمــــــى زُحـــــلٌ فــــــيَّ أظـفــارَهُ

وحـلَّ يـدًا عـنِّـيَ المشـــــــتـــــــري[5]

ومن قصائده التي تصور حالته النفسية المزرية التي عانى منها لدرجة شعر معها بالضياع، قصيدته العينية التي أظهرت قلقه وشدة خوفه من عواقب القطيعة بينه وبين

---

(١) القلائد ج٣ ص٧٨٦.

(٢) شعره ص٥٧ والقلائد ٣/٧٨٧.

(٣) قلائد العقيان ٣/٧٨٦.

(٤) المصدر نفسه ٣/٣٨٧.

(٥) المصدر نفسه ٣/٧٨٦.

الأمير، هذا الخوف قد استطار بلبه وجعل قلبه كالشعاع، فأرسل هذه القصيدة إلى بعض إخوانه، وقد نوى الهرب والانفصال:

أقــــولُ تحـــــيــــــةً وَهْيَ الـوداعُ
خِــداعًـــا لي ومـــا يُغني الخِـــداعُ

أُعَلِّلُ بالــمُنى قلبًـــا شَـــعــــاعًـــا
ولن يتـــعـلَّل القلبُ الشَّــــعــــاع

واتركُ جِـــيـــرَةً جـــاروا واشـــدو:
«أضـــاعـــوني وأيَّ فـــتًى أضـــاعـــوا»

إذا لــــمْ يُـــرْعَ لـــــي أدبٌ وبـــأسٌ
فـــلا طال الحُــســـامُ ولا اليــــراعُ

لقـــد باعـــتْنِيَ العليـــاءُ بخْـــسًـــا
وعـــهـــدي بالذخـــائر لا تُبـــاعُ

اجَـــــفَــــــتْني فلم يَنْبُتْ ربيعٌ
وحطَّتْني فلم يثْـــبُتْ يفـــاعُ

ومكَّنَتِ العـــدى مني فـــعـــاثت
بلحـمي ضِعْفَ مـا عـاث السبـاعُ(١)

ويتودد إلى الأمير ناصر الدولة ويستأذنه في السماح له بمغادرة ميورقة، وفي هذه المقطعة يكرر وصف حاله، فيقول:

عــــسى رأفــــةٌ في ســـراحٍ كــــريمٍ
ابـلُّ بـبـــــرد نداهُ الـغـلـيــــــلا

وعــــلِّــــي أُراحُ مــــن الـطـــالـــبـين
فـــــأسكُنُ للأمن ظلاً ظليــــــلا

ومـنْ بـلَّـهُ الـغـــــيـثُ في بطـن وادٍ
وبـات فــــلا يامَـنُ السُـــــيُـــولا

---

(١) المصدر السابق ٣/٧٨٨.

لقد أوقدوا لِيَ نيرانهمْ

فصيرني اللهُ فيها الخليلا

أَقِرُّ بنفسي وإن أصبحت

ميورقةُ مِصْرًا وجدواكَ نِيلا[1]

ثم يحزم أمره، ويودع ناصر الدولة معاتبًا:

سلامٌ على المجد يندى بليلا

كنشر الرُّبى بُكرةً وأصيلا

سلامٌ وكنتُ أقول: الوداع

ولكن أُدرِّجُ قلبي قليلا

أخافُ عليه انصداع الصفاة

كفى أن يكون زُجاجًا عليلا

جُرحتُ لديك وكنتُ البرئ

كما يجرحُ اللحظُ خداً أسيلا

اتتْ ذلةٌ منك محبوبةٌ

فلم أرض بالعزِّ منها بديلا

تلقيتُ منها سواد الخُطوب

فأشبه عنديَ طرفًا كحيلا[2]

ومع شدة ما لاقاه، ومع اعترافه بخوفه وضعفه إلا أنه يعيد سبب ذلك لكونه جوهرًا وأن الحاجة إليه ماسة:

سيشتاقُني المَلْكُ مهما أراد

لباس نسيجٍ من المفخر

ولو أنَّ كُلَّ حصاةٍ تزينُ

لما جُعل الفضلُ للجوهرِ[3]

(١) المصدر نفسه ٣/٧٨٤.

(٢) المصدر نفسه ٣/٧٨٩.

(٣) المصدر نفسه ٣/٧٨٦.

وإذا كان الدهر ينال من القوي، فذلك شأنه معه:

ولو لم أكُن مــــاضِيَ الشَّـــفْــــرَتَيْنِ

لما فَلَّنِي الدَّهرُ سـيْـفًـا صـقـيــلا[1]

وَفَلَّ حده، وَوَهِيَ غَرْبه، وانطفأ أمله، وغابت شمس ابن اللبانة وحيدًا غريبًا يائسًا، وهو يعلل الآمال بانفراج الأحوال، ودفن في ميورقة إلى جانب شاعر غريب آخر هو ابن العرب الصقلي في عام ٥٠٧هـ.

☆☆☆☆

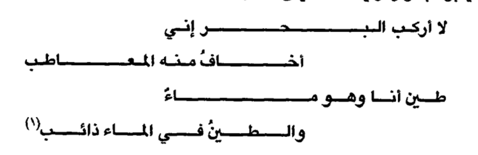
(١) المصدر نفسه ٣/٧٨٩.

٣ - ابن حمديس الصقلي[1]

اسمه ونسبه:

هو عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد، ولد في سرقوسة إحدى مدن صقلية سنة (٤٤٧هـ- ١٠٥٥م) وفيها تلقى تعليمه وثقافته، وبدت تظهر مخايل الشاعرية عليه في مقتبل سنه، وما إن استوى على عوده، حتى بدأت ضربات النورمان تشتد من حول صقلية، وكانت سرقوسة ذلك الميناء على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية يتعرض هو الآخر لهذه الهجمات، ويبدو من خلال شعره أنه شارك في صد هذه الهجمات، ولكنه وفي لحظة يأس يقرر الهجرة، ومغادرة مسقط رأسه، وذلك في حدود عام ٤٧١هـ، ولكن إلى أين؟

ويستقر رأيه على الأندلس، وعلى مملكة إشبيلية التي كان قد سمع عن نهضتها الأدبية، وسمع عن ذلك التجمع الضخم لأرباب الكلمة في الأندلس: كابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة، والحصري وابن عبدالصمد، وعبدالجليل بن وهبون، إلى آخر هذه القائمة من هذه الكوكبة التي كانت تتحلق حول الملك الشاعر والشاعر الملك المعتمد بن عباد، فيعبر البحر وهو يخشاه، أليس القائل:



لا أركب البحر إني
أخافُ منه المعاطب
طين أنا وهو ماءٌ
والطينُ في الماء ذائب[1]

(١) انظر ترجمته في الذخيرة ق٤ م١ ص٣٢٠ والخريدة ٢/١٩٤ ووفيات الأعيان ورايات المبرزين ١٤٩، ابن حمديس حياته من شعره، والأدب العربي في صقلية.

(٢) ديوان ابن حمديس ٥٣٣ – ٥٣٤.

ولكن إذا كان لا بد مما ليس منه بد، فليركب البحر، وييمم وجهه شطر المعتمد، ويبدو أنه واجه بعض الصد في البداية، لدرجة طلب معها من المعتمد أن يوقع له بالإمساك أو التسريح: يقول:

أتتني على بُعد النوى منك دعوةٌ
قطعتُ لها بالعزم نجْدًا وصحصحا
ويحتالُ من أهلِ القريضِ مُصرِّفٌ
يُهادي القوافي في امتداحك قرُحا
وكان عليه الحقُّ ليلاً يجوبُه
إليك فلما لاح وجهُك أصبحا
رفعتُ وأصحابي إلى ما يُجدُّه
علاك فوقِّعْ ممسكًا أو مُسرِّحَا[1]

فوقَّع له، بل تُمْسكُ بمعروف ووصلَه، وتبدأ علاقته بالمعتمد، ويلقَى الحُظوة التامة التي جعلت المعتمد يُثني عليه، فيقول:

وأنت ابن حمديس الذي كنت مُهدِياً
لنا السِّحرَ إذْ لم يأتِ في زمن السِّحْرِ[2]

ويحس بصفاء الأيام، ويعاوده الشوق إلى المرح والطرب، كيف لا وهو في حمى المعتمد؟ كيف لا وهذه الدنيا تقبل عليه من كل جانب، وها هو ذا الشاعر المكرم المقدم عند ملك إشبيلية؟

ولكن هذا الصفاء يظل ينغصُهُ ذلك الشوق إلى الوطن، وتلك الغربة المريرة التي تكدر عليه حلاوة أيامه، إلا أنه يحاول على شدة انشغاله بمصير وطنه أن يتناسى ذلك ولو للحظات، فهذا المعتمد يكاد يعوضه بكرمه وما أعطاه من مكانة، وقد خطر له أن ذلك قد

---

(١) المصدر نفسه ١١٠ – ١١١.

(٢) المصدر السابق ٢٧٠.

تحقق وأن أيامه تصفو وتروق، ولكن هذه اللحظات التي أحسها كانت كغيوم الصيف ما لبثت أن انقشعت بخلع المعتمد عن عرشه، وأخذه أسيرًا الى أغمات وما أن انطلقت مراكب الأسير حتى هرول ابن حمديس يتبعه إلى المغرب، ويظهر أن المغرب لم ترحب به كما رحبت به الأندلس من قبل، فيتجول فيها قليلاً وهو يحتسي مرارتين: مرارة الغربة الجديدة، ومرارة سجن المعتمد، ويؤثر الانتقال إلى ميورقة، عله يجد في كنف ناصر الدولة مبشر ما لقيه في ظلال المعتمد، ولكن جزر البليار لم تكن أفضل حالاً من مثيلاتها من دول الطوائف، ويبدو أن انشغال مبشر بالدفاع عن مملكته، والتصدي للإفرنج لم يمكناه من تقدير هذه الهجرة الشعرية لكبار شعراء الأندلس إليه، لذلك وجدنا بعضهم يندمون على قدومهم إلى ميورقة، لأنهم لم يجدوا ما يعوضهم عن ركوب المخاطر بالتوجه إلى هذه الجزيرة، كابن البني وابن اللبانة وغيرهما.

ونحن هنا بصدد الحديث عن شعر ابن حمديس المتعلق فقط بميورقة لأن ذلك هو شرط البحث، أما شعر ابن حمديس في صقلية وغيرها ومكانته فتستطيع العودة إليه في كتابنا الأدب العربي في صقلية.

ويثور تساؤل عن الزمن الذي توجه فيه ابن حمديس إلى ميورقة، وهل هي وفادة واحدة أم أنها تكررت؟ ليس بين أيدينا ما يعين على تحديد تاريخ بعينه لسفر ابن حمديس، ولكن إذا كان مبشر بن سليمان قد تسلم حكم الجزيرة عام (٤٨٦هـ) واستمر حتى عام ٥٠٨هـ فإن الوفادة ستكون بين هذين الرقمين، وإذا كان المعتمد قد نفي إلى أغمات عام ٤٨٤هـ وتوفي بها سنة ٤٨٨هـ، فمن المعقول أن يكون قد توجه إليها بعد هذا التاريخ مباشرة، ونحن نعجب من هذه الوفادة التي وفدها شاعرنا على أمير ميورقة، ونتساءل مع الدكتور سعد شلبي «رجل ينزل على أمير، ويمدحه بقصيدة ليس فيها من مدحه إلا خمسة أبيات، والباقي في وصف خيله[1]».

---

(١) ابن حمديس حياته من شعره ص٢٠٢ – ٢٠٤.

أتكون هذه القصيدة هي القصيدة الأولى؟ أم سبقها قصائد في هذه الزيارة أو في زيارات أخرى سبقتها؟ لا نستطيع أن نجزم بشيء، سوى أن هذه القصيدة تؤكد لنا أن ابن حمديس لم يشعر بالرضا عن هذا المقام، فتركه غير آسف، وعاد إلى بلاط تميم بن المعز، واتصل أيضا ببني زيري وبني علناس وغيرهم، أما قصيدته اليتيمة التي وردت في ديوانه، فقد أوردنا بعضًا منها في «الشعر في بلاط ناصر الدولة»، ولا بأس من اقتطاف بعض أبياتها، يبدؤها بقوله:

جـــاءتك أولادُ الـوجـــيـــه ولاحقِ

فـــأرتك في الخلق ابتـــداع الخـــالقِ

نيـنـانُ أمـــواهٍ، وفـــتخُ ســـبـــاسبٍ

وظبـــاءُ آجـــامٍ وعُـــصمُ شـــواهق

إلى أن يقول:

غُـــرٌ مـــحـــجلةٌ تكامل خلقُـــهـــا

بمُجـــانس من حُـــسنهـــا ومُطابقِ

وكـــأنَّمـــا حـــيِّتْ عُـــلاك وجـــوهُهـــا

فـــأسَـــالَ فـــيـــهِ الصُّـــبحُ بِيضَ طرائق

وبعد هذا البيت المنفرد بالتحية للأمير من وجوه الخيل، يستمر يصف الخيل وصفًا فيه من التقليدية ما فيه من الجدة والروعة، فيصف عتقها وأصالتها، ونجابتها وكرها وفرها، ولونها إلى أن يصل إلى قوله:

قُـــــدْهـا تـخـبُّ بـكلِّ ذمـــــرٍ أبـلـهٍ

بـخـــــداع أبطـال الوقـــائع حـــاذقِ

وإذا اثرن بنقـــعـــهنَّ ســـحـــائبًـــا

صَـبَّتْ على الأعـــداء صـــوبَ صـــواعقِ

أصبحت في السادات ناصر دولةٍ
تصفُ العلا [في] عدل كل مناطق(*)
بطلاً يطولُ بذكره في سلمه
كصياله بحسامه في المأزق
مترحِّلاً نحو المعالي ساكنًا
بالجيش في ظلِّ اللواءِ الخافق
شدت عزائمُهُ مهالكهُ كما
شُدتْ فرازينُ بعقد بيادق

ويعود إلى أفريقية لسبب ما، ويظل بها يمدح بني علناس، وبني زيري وبني خراسان، حتى تثقل خطاه، ويستقر ببجاية حيث الشيخوخة وفقد البصر، وانطفاء الشاعرية، ثم انطفاء الحياة سنة ٥٢٧هـ.

ومن تمام الحديث عن الشعراء الوافدين ذكر مواطنه ورصيفه أبي العرب الصقلي ذلك الشاعر الفذ، الذي لجأ إلى ميورقة بعد خروجه من الأندلس، ولقد ذكرناه عرضًا في حديثنا عن الشعر في بلاط مبشر، ولما لم نجد له شعرًا في ميورقة، فقد اكتفينا بذكره هناك، والتنويه به هنا.

☆☆☆☆

ب - الوافدون إلى منورقة:

إذا كان ابن اللبانة وابن حمديس وأبو العرب الصقلي وابن البني وغيرهم قد توجهوا إلى ميورقة، في عهد أميرها ناصر الدولة مبشر بن سليمان، فقد وجدنا منورقة في عهد رئيسها أبي عثمان سعيد بن الحكم هدف الشعراء الوافدين من أمثال أبي بكر ابن العوام الإشبيلي، وأبي القاسم أحمد بن يامن، وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي وكُثَيِّر الأديب، وأبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي.

(*) أدخلنا على الشطر الثاني تعديلاً ليستقيم وزنه في بحر الكامل (أصله كما ورد في الكتاب «تصف العلا عدل مناطق» وهو مختل). المراجع.

١ - ابن يامن

هو الشاعر الفقيه الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن، من أهل جزيرة شقر، اشتغل بالكتابة، فعمل كاتبًا لأبي الحسين بن علي رئيس شاطبة، مجيد في الشعر، محسن في النثر، أثنى عليه ابن سعيد، فقال: «وهو عندي أظرف من عاشرته بالمغرب من أهل الأدب، وأخف روحًا من كل من درج في المنادمة ودب، رجل كثير الاحتمال، سريع النادرة في أنواع المقال هزلاً أو جداً، وذماً أو حمدًا، وله في طريق الكتابة غاية الإصابة[١]».

وشعره في غير صاحب منورقة يتراوح بين مدح الحكام والأمراء كصاحب بجاية والمنتصر بالله أمير المؤمنين، وبين مراسلة الإخوان ومجالسة الخلان، إذ كانت مجالس الأنس تجمعه بأحبائه، فيشترك معهم في قول المقطعات والقصائد، فيصفون، ويذيلون، ويماتنون[٢]، لدرجة اشتراكهم في القصيدة الواحدة، وهذا من الألفة الأدبية والروحية، من ذلك تذييله لبيت أبي عبدالله بن أبي الحسين في دخول ضوء البدر من النافذة:

تجلّى فلمّا أبصر الحُسنَ باهرًا
تقسَّمَ من فرطِ الحياء نجُوما

فقال ابن يامن مذيلاً:

ومجلس إيناسٍ كأنّ كؤوسهُ
غدت لشياطين النُّجوم رجوما

تخال نداماه أزاهر روضةٍ
سقاها ندى ربُّ المحلّ سجوما

ألمّ بها بدرُ الدُّجنّةِ واغلاً
وأمّلَ في وقت الهجود هجودا

---

(١) اختصار القدح ٥٢.

(٢) المماتنة: هو أن يقول أحدهم نصف بيت ثم يكمل الآخر النصف الثاني.

فـــأهدى لأجـــفـــان الـشـــراجب[1] نوره
وقـــصـَّــر عنهُ هيـــبـــةً ووجـــومـــا[2]

وما يهمنا هو شعره في الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم صاحب منورقة، الذي يدل على هذه العلاقة الصميمة، وتلك المحبة العارمة التي جمعتهما، وجعلت الشاعر يمضي فترة من أجمل فترات حياته في صحبة الرئيس أبي عثمان، هذه الصحبة التي خلَّفت لنا عدداً من القصائد الرائعة في مدحه والثناء عليه، وظل صفاء هذه العلاقة حبل ود ممتدًا متصلاً حتى بعد خروجه من منورقة، إذ بقيت هذه العلاقة في تلك المراسلات الشعرية التي بعثها إلى منورقة، والرئيس ابن الحكم يتابعه في صلاته، ويصله بعطاياه، على الرغم من البعد والفراق.

وقد مرت بنا بعض أشعاره المدحية في حديثنا عن بلاط الرئيس سعيد بن الحكم، ونعرض هنا لطائفة أخرى تظهر عظيم المصافاة التي جمعتهما، يقول وقد مدحه بقصيدتين:

يـا ســـيِّـــدًا قـــد هـمـــا نـداءً
فـــأخـــجل الـوابلَ الـسَّـــجُـــومـــا
أهــديــتــــــــــه مـــن بـنـاتِ فـكـري
بـكـرين قـــد ســـرتـا هـجـــومـــا
فـــســـاق مـــهـــريـهـــمـــا وســـقَّى
نـهـريـهــمـــا غـيـــثــه سُـجـــومـــا
جلَّل إلفـــيـــهـــمـــا نثـــارًا
ألفَى نظيـــمًـــا ســـرى الـوجـــومـــا
فـــقلت لما طلـعـن شـــهـــبًـــا
تـقـــذف حـــسَّـــادهـا رجـــومـــا
شـــمـــســـان قـــد زُفَّـــتـــا لـبـــدرٍ
لا غـــرو أن تـنـتـــجـــا نُجـــومـــا[3]

(١) الشراجب: النوافذ.
(٢) اختصار القدح ٥٣.
(٣) اختصار القدح ٥٧.

وإذا كان سعيد بن حكم مقلة منورقة كما قال ابن يامن، ولم تبد الدنيا مثيلا له فإنه يتتبع مدحه، ويهديه القصيدة تلو القصيدة، فيقول من أخرى مهنئًا بحلوله قصرًا جديدًا:

بالسعد واليُمنِ والتأييد في العمل
والنَّصْرِ والفتح والأنجاح في الأملِ

حلولك القبَّةَ الزهراءَ نَيِّرَةً
كالشمس حلَّت أوان السعد بالحمل

في ساعة اليُمن في اليوم الأغرِّ من
الشهر المبارك عام الفتح والجزل

وفي زمان أمانٍ واختيار مُنًى
وفي شبابٍ من الإقبال مقتبلِ

بيتٌ رفعتَ على التقوى قواعده
وشِيدْتَ أركانهُ بالعلم والعملِ[1]

وقال يهنئه وقد أبلَّ من مرضه:

يا غُدوة السبت ما جَلَّيْتَ من كُربِ
يا غُدوة السبتِ ما أحْيَيْتَ من طربِ

لئن غدا السبتُ عيدًا لليهودِ لقدْ
غدا لنا أوجبَ الأعياد للقُربِ

أما به مرُّ إمرارُ الزمانِ وقد
أجنى ضروبَ مُنًى أحلى من الضَّرَبِ[2]

مرأى سعيد العلا دامت سعادتُه
كلُّ الأماني وأقصى منتهى الأدبِ

ولثمُ راحته من بعد راحته
جلاءُ ما جلَّلتْ شكواهُ من كُربِ

---

(١) المصدر نفسه ٥٦.

(٢) الضرب: العسل الأبيض الغليظ.

فـاللَّهُ يُبـقـيـه مـحـفـوظًا لـعـصـمـتـه
مـؤيَّدًا أمــرُهُ في الـعُـجْمِ والعــرَبِ[1]

ويبدو أن إقامته في منورقة قد طالت، واشتاق العودة للأهل فاستأذن الرئيس في السماح له بالعودة إلى وطنه، فقال مستأذنا:

يا رئيسـا لاح أنْـفًا ... فـي بنـي عبد منافِ
ما تـرى يا بـهجــةَ ... المدح ويا فخر القوافي
في سُلافٍ تشبه العودَ ... وورد كـالسُّـلافِ
ونـديمٍ ذي اعـتـقـاد ... لــوداد وتصـافي
إن تكن تسمح بالإذن ... فشملي ذو ائتلافِ[2]

ويسمح له، ويستعد ابن يامن للسفر، ولكن جاريَهُ أو مُرتبه الشهري يتأخر، فيستجعله قائلاً:

يــا قابض الثناءِ من ... حـقـائـب وسُفرِ[3]
الـعبــدُ يشكو سَرَفًا ... مـن لازمات سـفرِ[4]
ولا يـكــن راتــبهُ ... محـرمًا فـي صفرِ[5]

إنها تذكرة لطيفة، ومداعبة بالألفاظ خفيفة، ويأخذ جاري صفر، ويغادر منورقة، ولكن على البعد ظل سعيد بن حكم شامخًا كجزيرته، متمثلاً في قلوب أحبابه، ويحن ابن يامن فيكتب إليه:

لك الفـضلُ مـولاي في كلِّ حـالٍ
ولـم يـزلِ الفـضلُ وقـفًـا عليكْ
بعـثتَ الحـيـاةَ ببعْث السـلامِ
وقـبلُ بعـثت الحـيـا من يديكْ
وإن لـم أُطـق ردَّ مــا يـنـبـغـي
فـهـذا فـؤاديَ مُـهـدًى إليك[6]

---

(١) اختصار القدح ٥٦.
(٢) المصدر نفسه ٥٩.
(٣) سُفر: جمع سفرة بالضم، وهي جلد مستدير يضع فيه المسافر طعامه.
(٤) سفْر: أي خالية.
(٥) اختصار القدح ٥٨.
(٦) المصدر نفسه ٥٨.

٢ - أبو عبدالله الجياني[١]

هو أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني الجياني شاعر كاتب حافظ، من جيان بالأندلس، شارك في الأمور السياسية، وتولى القضاء، وارتفعت مرتبته عند أبي عبدالله ابن الأحمر فولاه خطة السيف والقلم، ويبدو أنه عمل سفيرًا متنقلاً يحمل الرسائل إلى حكام الممالك، ويبدو أنه في إحدى هذه السفارات عرج على منورقة، فوصله صاحبها أبو عثمان سعيد بن الحكم، وتوطدت على إثر هذا اللقاء علاقة أصفى من ماء المزن في النقاء، فقال يمدحه:

تُغني الكتائب بيضٌ من قواضبه
مغلولةٌ وتشي أقلامُه الكُتُبا
فقد أعدَّ حُساماً للجلاد به
وللجدال لساناً مثله ذربا
في كفِّهِ قلمٌ ماضٍ يُريك به
أغنى من القُضب الهنديَّة القضبا
يمضي بما شاء من نفعٍ ومن ضررٍ
في كلِّ خطبٍ لهُ حدُّ الحسامِ نبا
يحكي شباهُ خضيبًا بالمداد شبا
مهندٍ بالدم المسفوك قد خُضبا
كأنَّ آثاره في الطرس رائقةً
آثارُ غيثٍ يغادي الروض منسكبا[٢]

(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ٢٢ - ٢٧.

(٢) اختصار القدح ٢٢ - ٢٣.

ويبدو أنه بعد أن ورد على منورقة، غادرها إلى الأندلس، ومن هنا بدأت المكاتبات بينه وبين ابن الحكم، وهذا ما يدل عليه خطابه الذي يقول فيه:

يا رئيساً أرْسَى بحارَ عُلاهُ
فوق هضْبٍ من الفخارِ منيفِ

قد عداني عن الخطابِ اشتغالٌ
بأمورٍ من كيد دهرٍ عنيفِ

كلَّ يومٍ يسومني فوقَ طوقي
ما تليدي يعيا به وطريفي

مع نفسٍ تروم أعلى المراقي
وزمانٍ نكْدٍ وجدٍّ طفيفِ

ووِدادي لكم شهيدي عليه
من حوى طرسُه نظامَ حروفِ

مُخلص الودِّ فيكمُ ابن هَمُشْكٍ
خيرُ خِلٍّ وصاحبٍ وأليفِ[1]

يظل حبل الود متصلاً، ويظل البحر ينقل الرسائل المتبادلة بينهما.

✡✡✡✡

---

(١) المصدر نفسه ص٢٥.

٣ - ابن سهل الإسرائيلي[١]

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي، شاعر كاتب، شهر بالغزل، كان على اليهودية ثم أسلم، وقد شك بعض معاصريه في إسلامه، وأنه كان يتظاهر بالإسلام ويخفي اليهودية، قال ابن سعيد يستخبره عن حقيقة إسلامه عندما سمع منه قوله:

فوالله ما في الأرض مجلس راحةٍ
بغير حلى الراح التي سكبت صبري
سالفُها إلْفَ العتيق كتابَه
ولا أشتهي وِرْدًا سواها لدى الحشر

«ولما وصل، أظهرت استحسان خطابه، مع سرعة جوابه، ثم أنكرت عليه منزع بيته الأخير، ولدغته من الملام بيسير، فقال: أليس في الجنة نهر الخمر؟ قلت: بلى. فقال: ذلك حسبي لا أبتغي به بدلاً، ولا أريد لبنًا ولا عسلاً. فقلت: بحرمة ما بيننا ألاَ ما أزلت عني شك الناس فيكم، وصدقتني هل أنتم على دين أسلافكم أو دين المسلمين؟ فقال: للناس ما ظهر، ولله مَا استتر، وبعد، فهذا خلاف ما نحن فيه، فأضربت عن مناقشته، ولم أقف له على ما أثبته أو أنفيه[٢]».

وقد أرجع بعضهم كثرة تغزله بغلام اسمه موسى إلى قضية رمزية يتشوق فيها إلى اليهودية التي خرج منها.

(١) انظر ترجمته في المغرب ٢٦٤/١ واختصار القدح ٧٣ ورايات المبرزين ٥١، فوات الوفيات ٢٣/١، مسالك الأبصار ٤٧٣/١١، الشذرات لابن العماد ٢٤٥/٥، نفح الطيب في مواضع متفرقة.

(٢) اختصار القدح ٧٣.

والشاعر إشبيلي الأصل، انتقل إلى سبتة، ومدح أبا علي بن خلاص الذي أرسله مع ولده إلى المستنصر ملك تونس، فركبا البحر وغرقا معًا، ولما بلغت المستنصر وفاة ابن سهل في البحر قال: «عاد الدرُّ إلى وطنه[1]»، وكانت وفاته سنة ٦٤٩هـ.

أثنى عليه ابن سعيد، فقال: «كان من عجائب الزمان في ذكائه، على صغر سنه، يحفظ الأبيات الكثيرة على سمعه[2]».

وقال: «لا يوازيه أحد من أهل عصره[3]».

ومن جميل شعره قوله في وصف نهر:

للَّهِ نهرٌ ما رأيتُ جماله

إلاَّ ذكرتُ لديه نهرَ الكوثرِ

والشمسُ قد ألقت عليها رداءها

فتراهُ يرفُلُ في قميص أصفر[4]

وما يهمنا من شعره، هو ذلك الشعر الذي قاله في صاحب منورقة سعيد بن الحكم، فالشاعر توجه إلى منورقة بعد سقوط إشبيلية، ومن شعره في أميرها قوله:

يخِفُّ بِشْرًا إذا انهلت أنامِلُه

والسُّحب توصفُ إذْ تنهلُ بالثِّقلِ

أغرُّ يكتمُ من جودٍ عوارفه

ويشهر البيض بأسًا شُهرةَ المثلِ

فينشر الحمدُ ما أخفاه من منن

ويكتمُ الضربُ بيض الهند في القُللِ

يأوي لعليَاهُ محميٌّ ومضطَّهدٌ

كالماء فيه ورودُ الليث والحمل

---

(١) الأعلام ٤٣/١.

(٢) المغرب ٢٦٩/١.

(٣) اختصار القدح ٧٣.

(٤) المصدر نفسه ٧٧.

ويشـتـهي نيله مُـثْـرٍ وذو عـدمٍ
كـالرّاحِ تصلح للصـاحي وللثّـمِلِ
ذو عـزمـةٍ كـالتـمـاع البـرقِ واقـدةٍ
تجيء من نصـره بالعـارض الهطل
لولا السـعـودُ التي نيطت بهِـمَّـتِـهِ
لَكُنْتُ أنسـبـهـا بُعْـدًا إلى زُحَلِ[1]

وقال يمدحه:

يا مَنْ عـيـونُ المعـالي عنه قـد نظرت
شَزْرًا وحجَّ لسـاني السـيف إذ نصمـا[2]
دانت لك الرومُ دين العـابدين فـهل
غـدا حـسـامُك في أصنامـهم صنمـا
وثلّثـوه فـقـالوا النور مـؤتلفًـا
والماء مطردًا والخـمـر مـضطرمـا
أضـحت أياديك في أعناقـهم ربقًـا
وظنُّهـا الناسُ في أيديهم نعـمـا[3]

☆☆☆☆

(١) المصدر السابق ٨١ – ٨٢.

(٢) حجّ: غلب.

(٣) اختصار القدح ٨٢.

٤ - ابن عميرة المخزومي[١]

هو أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي صاحب تاريخ ميورقة، من أهل جزيرة شقر بالأندلس، ولد سنة ٥٨٠هـ وتوفي سنة ٦٥٨هـ، كاتب أديب مؤرخ شاعر ناثر رحالة، جاب الأندلس وجزرها، ثم انتقل إلى تونس وارتقى بحضرتها حتى صار مشرفًا في مجلس الخلافة المستنصرية، أثنى عليه ابن سعيد، ووصفه بقوله:

«شيخ كتاب زماننا، وإمام أدباء أواننا، مع ما له من التفنن في علوم الشرائع، وما ساد له نظمًا ونثرًا من اللطائف والبدائع[٢]» وتحدث عن رحلاته وتنقلاته فقال: «جاز إلى بر العدوة، فكان له بها تميز وحظوة، إذ يسبقه حيث سار من شهير اسمه رائد، فلا يزال ناجح المصادر والموارد، وتصرف في قضاء مكناسة وسلا، ثم انصرف عن المغرب الأقصى وسلا، وحل مدينة بجاية، وكان له منها ما تقتضيه معرفته والدراية، ثم تمم الرحلة إلى محط الرحال، وكعبة الآمال، الحضرة العلية تونس – كلأها الله – فتصرف في القضاء بجهاتها، والسعادة تلحظه بطرف عنايتها، إلى أن صار من المشرفين في مجلس الخلافة المستنصرية[٣]».

ولا شك أنه زار جزر البليار، وألف فيها تاريخ ميورقة الذي نحا فيه منحى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي[٤]، ويبدو أنه زار صاحب منورقة ابن الحكم، وقال فيه:

وجدنا سعيدًا سعدُه قد قضى به
على الرغم ربُّ النجم قبل المنجِّم

(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ٤٢ – ٥٢ ونفح الطيب ٣١٣/١ – ٣٢١، والإحاطة ١٧٣/١.
(٢) اختصار القدح ٤٢.
(٣) المصدر السابق ٤٢ .
(٤) انظر الإحاطة ١٧٨/١.

فـــــقُل حــــــاتمُ إن لُذت مـنـهُ بـمـطـعـمٍ

وإن تُذْكَـــرِ الأنســـابُ تـلْق ابن مُطعم[1]

تـأخُـــرُهُ - واللّهِ - يُبـــقـــيــه حُـــجَّـــةً

على من يقـولُ الفـضلُ للمـــتـــقـــدم[2]

ومن شعره يخاطب صاحب منورقة بعد مغادرتها، ويذكر صلة القرابة بينهما:

فـــدتْكَ أبا عـــثـــمـــانَ أنفـــسُنا التـي

أعـنَّةُ ذاك الفـــضلِ قـــادت عِـــرابَـهـــا[3]

وعـنديَ يا ابنَ العـمِّ فـــيـــهـــا أليَّـــةٌ[4]

عـــرفتُ يقـــينا برُها وصـــوابـهـــا

بـأنَّ المعـــالي لو جُـــمـــعـن مـــســـائلاً

على الحـصر فيـهـا كنت أنت جـوابهـا[5]

ويذكر ابن سعيد أن «له موشحات تطرب قبل التلحين، ورسائل حاز بها الإمامة بين العصريين[6]»، ونجده يشارك بشعره في المدح والمراسلة ومجالس الأدب كعادة أهل عصره، وهو في ذلك ظاهر المكانة، رفيع المنزلة، من لطائفه التي تسرُّ، وتُعلَنُ ولا تُسرُّ، قوله: «وقد مدح صاحب بلنسية زيادة بن مردينش بقصيد، فلم تخرج له جائزة، وحضر حجام فكانت صنعته للإحسان جائزة:

أرى مـن جــــــاء بـالموسى مُـــــوَسَّى

وراحـــــــة مـن أراح المدحَ صــــــفـــــرا

فـــأنجـحَ ســـعـيُ ذا إذ قصَّ شَـــعْـــرًا

وأخـــفق ســـعـيُ ذا إذ قصَّ شِـــعْـــرا

---

(١) ابن مطعم: هو عدي بن مطعم من أشراف قريش.

(٢) اختصار القدح ص٤٩.

(٣) العراب: الخيل العربية الأصيلة.

(٤) ألية: اليمين والقسم.

(٥) اختصار القدح ٤٩.

(٦) المصدر نفسه ٤٥.

فانظر جمال هذه المقابلة وذاك الجناس.

ومن رائع قوله في سقوط الأندلس بأيدي الأسبان قوله في تصوير حال المسلمين:

زدنا على النائين عن أوطانهم
وإن اشتركنا في الصبابة والجوى

إنا وجدناهُم قد استسقوا لها
من بعد أن شطَّت بهم عنها النَّوى

ويصُدُّنا عن ذاك في أوطاننا
مع حُبِّها الشِّركُ الذي فيها ثوى

حسناءُ طاعتُها استقامتْ بعدنا
لعدُوِّنا، أفيستقيمُ لها الهوى؟

قال المقري: «وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها، العالية في مبناها، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى – دمرهم الله – على تلك الديار، وثبوت قدمهم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حبه لها الذي لا يشك فيه ولا يرتاب، واشتماله على المحاسن التي هي بغية الرائد ونجعة المنتاب[1]».

وقد صدق بعض علماء المغرب في وصفه والثناء عليه، فهو: «قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء... ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها[2]، وتوفي سنة ٦٥٦هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين، ودفن في تونس[3].

☆☆☆☆

(١) نفح الطيب ٣١٠/١.

(٢) المصدر نفسه ٣١٣/١.

(٣) انظر الإحاطة ١٨٠/١.

٥ - ابن العوام الإشبيلي(١)

هو أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، طبيب، تعلق بالأدب كما يقول ابن سعيد، ولم يكن فيه ضعيف السبب، كان مستهترًا جدًا، ولوعًا بالملذات واللهو، ويورد ابن سعيد طرفًا من أخباره الماجنة وأحواله المتردية في الولع بشرب الراح، وكان قد وصل به الإدمان إلى أن يطرد من حارة ويرمى بالقاذورات والحجارة، وكم من مرة وجد فيها ملقى في الطريق لا يعقل ولا يبالي.

ولما سقطت إشبيلية سقوطها الأخير بيد الأسبان، انتقل إلى منورقة، يتفيأ ظلال إحسان «أميرها الرئيس ابن الحكم، وكان ابن الحكم يشتد في إثر شاربي الخمر، ووصل به الحد إلى قتل من يشرب الخمر، فلما أحسَّ الشاعر بشدة الحاجة إليها بعث إلى الرئيس ابن الحكم يمدحه، ويُكنّي عن شدة شوقه إلى معاقرة الراح، فقال:

أيا مِسْكَةَ دارِين ... ورَيحانَ الرياحينِ
ومأوى كلِّ مُضطرٍ ... لدُنياه وللدِّينِ
عُبَيْدُكُمُ أتى في خِطْـ ... ـبةِ بنتِ الزراجينِ(٢)

ويذكر ابن سعيد أنه «مات هنالك إثر ذلك، بلغني أنه شرب مع قوم من أبنائها، فجرى معهم على عادته بإشبيلية مع أدبائها، فزلق في ما لا يسلكونه لسانه، وارتخى بحيث لا يجرون عنانه، فضربه أحدهم بجرة الخمر على رأسه ضربة قضت عليه(٣)» وبذلك يكون ثالث شاعر وافد بعد أبي العرب الصقلي وابن اللبانة يوسد في ثرى ميورقة.

✡✡✡✡

(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) ابنة الزراجين: أي الخمر والأبيات في اختصار القدح ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه ١٨٠.

٦ - كُثَيِّر الأديب[١]

هو أبو الربيع سليمان عيسى الملقب بكثيِّر والمنسوب بالعلياوي من شعراء الأندلس، ومن أدبائها الذين لم يرتعوا في لهو أو يولعوا بمدام، لكنه تميز بحدة في اللسان، وشكاسة في الأخلاق، يقول عنه ابن سعيد: «من العلياء بغرب الأندلس، رأيته بإشبيلية ومالقة، وكنت أتجنب مجالسته، لأنها تجلب مشارته[*]، لحدة كانت فيه، وشكاسة إنْ خلاَّها فما تُخلِّيه[٢]».

وعلى الرغم من هذه الحدة التي لم يحمدها له ابن سعيد، إلا أنه لم ينجرف في تيار اللاهين كغيره من شعراء الأندلس، وفي ذلك يقول:

ليس المدامةُ مما أستريح بهِ
ولا مجاوبةُ الأوتار والنَّغمِ
وإنما لذَّتي كُتْبٌ أطالعُها
وصارمي أبدا في نُصرتي قلمي

تنقل في البلاد على ما تذكر كتب التراجم فهو يطوف ببلاد الأندلس من إشبيلية إلى مالقة، وينتقل إلى المغرب، ويستقر في بجاية ويبدو أن سلاطة لسانه وحدة أخلاقه ظلت تلازمه، فجلبت له المكروه، والشر، وبلغ والي بجاية أنه ينال من عرضه فعذبه ونفاه، ويبدو لي أن سفره إلى منورقة كان نفيًا إجباريًا، واستقر هناك بمنورقة حتى توفي سنة ٦٣٦هـ.

✡✡✡✡

(١) انظر ترجمته في القدح ص١٨٩ والمغرب ٣٩٨/١ والرايات ٥٨ ونفح الطيب ٥٦٦/٣.
(٢) الاختصار القدح.
(*) هكذا في الأصل ولعلها: مشاركته. «المراجع».

الفصل السادس

النثــــر فــــي البليــــار

إذا كان الشعر مقدمًا على غيره من الأنواع الأدبية، وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا بعض هذا الشعر لأسباب كامنة فيه وأسباب أخرى، فإننا لا نكاد نجد ما يوضح لنا صورة النثر في هذه الجزر بأشكاله وخصائصه وسماته.

ونحن نعتقد أن النثر بأشكاله المختلفة قد وجد، والمؤلفات التي عرضنا لها في حديثنا عن النهضة الأدبية والعلمية في هذه الجزر لتؤكد على وجوده.

ويؤكده أيضًا ما حظيت به من الأدباء والشعراء وكُتَّاب الدواوين، وما مثلته من ملتقى للوافدين، فلا بد من أن يكون للنثر مكان رحب في هذه المنتديات واللقاءات والمؤلفات، وقد ذكر ابن بسام في ترجمته لأبي الوليد الباجي عن مناظرة بينه وبين القاضي المالكي أبي محمد عبدالوهاب بن نصر في ميورقة، فقال: «وقد ناظره بميورقة، ففل من غربه، وسبب إحراق كتبه[1]».

وأول ما يواجهنا هو النثر التأليفي، ولا شك أن هذا يتجلى في كل تلك المؤلفات ذات الصبغة الأدبية ككتاب «روح الشعر» لمحمد بن جلاب الفهري، واختصاره لأبي عثمان سعيد بن أحمد الأندلسي بعنوان «لمح السحر من روح الشعر» وما ألفه الحميدي من كتب الأدب مثل: تسهيل السبيل إلى علم الترسيل، والمتشاكه في أسماء الفواكه، والذهب المسبوك في وعظ الملوك، وكتابه التراجمي «جذوة المقتبس»، وتاريخ ميورقة لابن عميرة، وغير ذلك من المؤلفات ولكن عدم وصول الكثير من هذه المؤلفات يقف بنا عند حد تهميش الحديث عن هذا الشكل النثري.

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٩٦.

ولعلنا نتبلغ اليسير من خلال كتاب جذوة المقتبس للحميدي، الذي يؤكد لنا المؤلف في مقدمته وتراجمه للشعراء والأدباء على اتجاه الحميدي الأدبي «ولقد تمكن بحسه المرهف من اختيار نصوص شعرية وأدبية ذات لون خاص، يحس معها القارئ بشفافية المؤلف وذوقه في الاختيار(١)»، ومن خلال مقدمة الكتاب نحس بذلك الأسلوب الهادئ الذي يميل إلى الازدواج، من ذلك قوله في أول المقدمة: «بحمد الله نبتدئ ونختتم، وبتأييده إلى كل مراد نتقدم، وبالصلاة على رسوله المصطفى نتبرك، وبالسلام عليه نرجو أن يسهل علينا المسلك(٢)».

أما من خلال ترجماته للشعراء والأدباء، فإننا لا نجد تلك المبالغات والإشارات، وذلك السجع وتلك المحسنات والزخرف الموجود في المطمح أو القلائد أو الذخيرة، وإنما نجد الخبر والرواية والمعلومات تقدم بطريقة منهجية وأسلوب علمي.

وهو ما نجده في تلك الأخبار المتقطعة من تاريخ ميورقة لابن عميرة التي أورد بعضًا منه المقري في نفح الطيب(٣).

وأظهر نوع من الأنواع النثرية استطعنا استخلاصه من فم الزمن هو الرسائل.

وظهر في هذه الجزر أشهر كتاب الرسائل الوزير القاضي أحمد بن رشيق الكاتب الذي ولي أمر الجزر لمجاهد، قال عنه الحميدي: «وطلب الأدب فبرز فيه وبسق في صناعة الرسائل... وله رسائل مجموعة متداولة، منها: الرسالة إلى أبي عمران موسى بن عيسى الفاسي، وأبي بكر بن عبدالرحمن فقيهي القيروان في الإصلاح بينهما(٤) وكذلك الكاتب أبو محمد بن عبدالبر بن الفقيه العالم ابن عبدالبر القرطبي، وقد تولى كتابة الديوان لمجاهد، وترقى في زمن ابنه علي حتى أصبح رئيسًا لكتاب الدواوين(٥).

---

(١) مقدمة الجذوة ن.

(٢) الجذوة ص١.

(٣) انظر النفح ٤/٤٦٩.

(٤) الجذوة ص١٢٣.

(٥) انظر حديثنا عنه في بلاط مجاهد الأدبي.

وكما ذكرنا، فإن الحديث عن أدب هذه الجزر يظل متصلاً بدانية حتى سقوط الأخيرة في يد ابن هود، وانتهاء ملك علي بن مجاهد، ليتحول بعد ذلك حديثًا خالصًا ومستقلاً عنها ولها.

وكما جاز ذلك على الشعر فإنه يجوز أيضًا على النثر، ولذلك لا نستطيع أن ننتزع تلك الرسائل التي اختصت بمجاهد أو ابنه علي ونزعم أنها من أدب البليار، كما لا نستطيع أن نزعم العكس ونجعلها خالصة لدانية، وإذا كان الوضع مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا في هذه الفترة فلا بأس من ذكر بعض هذه الرسائل، والإشارة إلى مواضع البعض الآخر.

ولعل أشهر رسالة وجهت إلى مجاهد العامري أمير دانية والجزر، تلك الرسالة التي أثنى عليها الجميع وعدوها أول رسالة في هذا المضمار، تلك هي رسالة السيف والقلم لأبي حفص بن برد الأصغر، ولما كان مجاهد أمير البيان والسنان، فقد وجه إليه ابن برد الأصغر هذه الرسالة الحوارية الرائعة، التي تنم عن تلك القدرة الفائقة لهذا الكاتب الشاعر، وقد جعلها في مقدمة وعرض وخاتمة، وأمضى الحوار في اتجاهات ثلاثة: الافتخار بالخصال، ثم المعارضة والجدال، وأخيرًا الاتفاق والإقبال.

ففي المقدمة يقول:

«أما بعد، حمدًا لله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابق من جوادين سبقا في حلبة، وقضيبين نُسقا في تربة، والتحاسدُ من نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق».

إلى أن يقول: «وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد، من بات يسري إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب.... جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا، وادعى كل واحد منهما أن الفوز لِقَدَحِهِ.... وأنَّ الوَرْيَ لِقَدْحِهِ.

«وحين كشف الجدال قناعه، ومدَّ الخصام ذراعه... قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال».

فماذا قالا؟

قال القلم: «ها، الله أكبر! أيُّها المُسَائلُ بدءًا يعقل لسانك، ويحير جنانك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق، والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله، مقسمًا به لرسوله، فقال: ﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾، وقال ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾، لجلَّ من مقسم، وعز من قسم، فما تراني؟ وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره، لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته».

فماذا قال السيف؟ وكيف كانت إجابته؟

قال السيف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسر ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يحسن، إن عاتِقًا حمل نجادي لسعيد، وان عضدًا بات وسادي لسديد، وإن فتى اتخذني دليله لمهديّ، وإن امرءًا صيرني رسيله لمفدي، يشق الدجى مني بمصباحٍ، ويقابل كل باب بمفتاحٍ، أفصح والبطل قد خرس، وأبتسم والأجل قد عبس».

ويظل التحاور، ويستمر الجدال، ويشتد الخصام حتى يصل إلى ذروة الاتهام. وإذا بهما يتبادران، وطال تراوضهما... تبادرا إلى السلم يعقدان لواءها، وإلى المؤالفة يردان ماءها» ثم يختم رسالته منوهًا بذكر السيف والقلم، وحامل لوائيهما مجاهد العامري، فيقول:

قد آن للسَّيفِ ألاَّ يفضُلَ القلما
مُذْ سُخِّرا لفتى حاز العُلى بهما
إن يُجتنى المجدُ غضًا من كمائمه
فإنَّما يُجتنى من بعضِ غرسهما
ما جاريا أملاً فوافيا أمدًا
إلاَّ وكانت خصال السَّبْقِ بينهما

سقاهما الدّهرُ من تشتيته جُرعًا
وللّيالي صروفٌ تقطع الرّحما

حتى إذا نام طرْفُ الجهلِ وانتبهت
عينُ النُّهى قَرَعَا سنّيهما ندما

راحا بكفٍّ أبي الجيش التي خلقت
غمامةً كلُّ حين تمطرُ النِّعما

فعاد حبلُهُما المُنبتُّ مُنعقدًا
وراح شملُهما المنفضُّ ملتئما

يا أيُّها الملك السامي بهمّتِهِ
إلى سماءِ علاً قد أعيتِ الهِمما

لولا طلابي غريب المدح فيكَ لَمَا
وصفتُ قبل عُلاك السيف والقلما

وإنمًا كانَ تعريضًا كَشَفْتُ بهِ
من البلاغة وجهًا كان مُلتثما

وإذا كانت هذه الرسالة قطعة إنشائية وصفية حوارية، فإننا نجد بعض المراسلات الظريفة التي تأتي على شاكلة الوساطة والتعريف، من ذلك تلك الرسالة التي كتبها أبو محمد بن عبدالرحمن مجاهد إلى المظفر ببطليموس، يحدثه فيها عن الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي، يقول منها «والفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي غذي نعمتك، ونشأة دولتك، هو من أحاد عصره في علمه، وأفراد دهره في فهمه، وما حصل أحد من علماء الأندلس متفقهًا على مثل حظه وقسمه، وقد تقدم له بالمشرق صيت وذكر، وحصل بجزيرتنا، ولك فيه جمال، وفخر»[١].

وعلى شاكلة هذه الرسالة رسالتان للرئيس الأجل أبي عبدالرحمن محمد بن طاهر[٢] كتبهما إلى ناصر الدولة صاحب ميورقة وتتضمن تلك الشفاعات أو الوساطات، فالأولى

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٩٦ – ٩٧.

(٢) قال عنه: «به بُدئ البيان وخُتم، ولديه ثبت الإحسان وارتسم، وعنه افترق الزمان وابتسم» انظرترجمته في الخريدة ٣٦٦/٣ والقلائد ١٧٠/١.

تعريف بالوزير الكاتب أبي جعفر بن البني، والأخرى في ذي الوزارتين أبي الحسن العامري، يتوسط لهما عند صاحب ميورقة، وهاك نموذجًا لواحدة منهما:

«أطال الله بقاء الأمير منيفًا حرمه، رفيعا علمه، إن الذي بينته الدنيا من مناقبك العليا، فتجلت منه أقاصيها، وتكللت به نواصيها، لجاذب نحوك أحرارها، وجالب إلى ظلك أعيانها وأخيارها، بقلوب تملكها هواها، وحركها نهاها وهذا الوزير الكاتب أبو جعفر بن البني عبدك الآمل، صممت به إلى ذراك همم عوال، كأنها للرماح عوال، يحملها السفين والعزم الناهد المكين، وريح جد ما تلين، إلى حلي من البيان يتقلدها، يكاد السحر يحسدها، وخلائق محمودة كأنها الخلوق، تنفح مسكًا وتشوق، وإن للوشي ما خط، وربما أزرى به إذا حط، والخُبْرُ يغنيه عن الخَبَر، ويعلمه بالعين لا بالأثر، لا زلت كلفًا بالإحسان، منصفًا من الزمان إن شاء الله تعالى[1]».

والرسالة الأخرى على غرارها، والملاحظ في هذا النوع من رسائل الشفاعات، قصر الرسائل الأخوية، وهو على الرغم من أنه مرسل إلى الأمير أو الوالي، فإننا نحس من خلال قراءتنا لهذه الرسائل بعلاقة مدادها الوداد، وألفاظها من مادة القلب والفؤاد.

فرسالة الوزير الكاتب أبي عبدالله محمد بن مسلم[2] التي خاطب بها أغلب والي ميورقة لمجاهد وابنه علي، من هذا النوع المدل بأخوته، المظهر لصداقته ومودته، والدليل على ذلك طولها المفرط، وكأنها تقرير أو مذكرات، يتحدث بها كاتبها عن كل حركة وسكنة فعلها منذ فراق الأمير، وهو يبدأ بقوله:

«إن أغْبَبْتُ على بعد الديار مكاتبتك، وأقللت مع شحط المزار مخاطبتك، فإني أخاطبك بلسان وداد، وأناجيك فؤادًا لفؤاد...» حتى ينتهي إلى دعوته ليقص عليه خبره ويحدثه من شأنه وما جرى له فيقول: «ولي منذ أجول البلاد، وأجوب الصخر بالواد، ما يزيد على عشر حجج... لم ألق إلاّ يومًا يجعل الولدان شيبا، والجبال كثيبًا مهيلا، وإن شئت أن

(١) الخريدة ٣/٣٦٦ – ٣٦٧ وانظر الرسالتين في القلائد ١/١٧٩ – ١٨٠.

(٢) قال عنه صاحب الذخيرة: «آية الزمن، ونهاية الفطنة واللسن، نفث بالسحر واغترف من البحر» انظر ترجمته في الذخيرة ق٣ م١ ص٤٢٧ والمغرب ٢/٤٠٥.

أقُصُص عليك من نبأي قصصا، وأضرب لك من بعض أسفاري مثلا، ففرغ لي ذهنك، واصغ إليَّ أذنك، حتى تسمع من أحوال صديقك ما يلفح ويثلج، ويغم ثم يبهج، فقد أودعت كتابي هذا نبذًا مما لقيته في سفري، وما كان من خبري[1]».

ويبدأ حديثه عن كل من لاقاه، وما عاناه في تجواله إلى ملوك الطوائف في أكثر من عشرين صفحة مختصرة، لأن ابن بسام حذف سائرها لطولها، واقتضب من فصولها هذه الصفحات العشرين.

ولعل خير من أشاع هذا النوع من الرسائل الأخوية هو الرئيس أبو عثمان سعيد ابن حكم القرشي أمير منورقة، فكان يراسل أصدقاءه من العلماء والأدباء والشعراء في مختلف البقاع والأصقاع، وترد عليه رقاعهم محملة بخالص الود ودوام العهد، ونقتصر على نموذجين لابن حكم القرشي، كتب بهما من جزيرة ميورقة إلى العالم الأديب ابن سعيد جوابًا، يقول: «أمتع الله بك أيها الولي الكريم، الوفي الصميم، الشريف أبًا، المنيف حسبًا، وصنع لك، وبلغك أملك، يخصك بالسلام الطيب كثنائك، الصيب كوفائك، مجللك بالحق الواجب، ومُحَلِّلُك من الود بين الترائب سعيد بن حكم[2]... الخ».

وفي الأخرى يجيبه عن رسالته قائلاً: «ووصل الكتاب المفيد، المجاد المجيد، المسمى بالطالع السعيد، في محاسن أعلام الكرام بني سعيد، فأسديتم لعمرو الله يدا، وأهديتم ما مثله يُهدَى وبه يُهتدى، ولم يزل من يدي حين وقفت عليه، حتى قلت:

إنّ كتابَ الطالع السَّعيدِ
في وصف أعلام بني سعيدِ
أحسن من ورد نَدٍ نضيدِ
ومن حُلًى فوق طُلاً للغيدِ
جاب لنا من أُفُق بعيدِ
أمواجَ بحرٍ وفجاج بيدِ

---

(١) انظر ما جاء في فصول الرسالة في الذخيرة ق٣ م١ ص٤٢٧ – ٤٤٨.

(٢) اختصار القدح ٢٩.

فنحنُ مُنذُ عـــادنا في عـــيــدِ
مـــا لا يرى عليـــه من مـــزيدِ[1]

ومن رائع الرسائل تلك الرسائل الداعية إلى الجهاد، المحرضة على لقاء العدو، من ذلك رسالة الفقيه القاضي أبي محمد عبدالحق بن عطية[2] لأمير المرابطين يدعوه فيها إلى تحرير جزيرة ميورقة من أيدي الأعداء، عندما سقطت السقوط الأول على يد خايمي الأول وفيه يقول: «وإني – أقر الله عينك – لأتردد وقد قصر عن تململي السليم، وأتجلد وفي نفسي المقعد المقيم، بهذا الصادم الهادم، والنبأ القاصم الذي أطفأ نور الحياة، وأخبأه، وأوجب أن ينادي كل مؤمن، واحر قلباه! أمر ميورقة – رأب الله بصرفها – صدع الجزيرة، وجبر بجبرها من جناح الإسلام كسيره..».

وفي هذه الرسالة وصف يمزق القلوب لما آل إليه أمر الإسلام في هذه الجزيرة، حيث يقول: «فيا لله لما كان فيها من إعلان توحيد عاد همسًا، ويوم إيمان آض أمسًا، وبارقة كفر طلعت شمسًا، وصباح شرع أظلم بدياجي الشرك، وأمسى....».

ثم يصور ما فعله الأعداء بالمسلمين من قتل وسلب ونهب، واعتداء على الحرمات، فيقول:

«ونجوم أصبح حرمها منتهبا، وفرقتها يد الغلبة أيدي سبا، ولخفرات أذال الشرك صباها، ولأخوة عفر منهم القتل سواعد وجباها، ومزقهم السيف كل ممزق، فلله أرحام هناك تشقق، رحمهم الله ماتوا كراما، ولقاهم نضرة وسلامًا، وختم لنا بعدهم بأحمد الخواتم، وأسندنا من أمره إلى عاصم[3]».

والملاحظ على هذه الرسائل أن أسلوبها يميل أحيانًا إلى السجع، ولكنه يحافظ على الازدواج، ومعانيها تنهل من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتتمثل أمثال العرب وأخبارهم وتتزين بأقوالهم وأشعارهم، كما أنها في غالبيتها تلخص شعرًا حيث يوجز

---

(١) المصدر نفسه ١٠٤.

(٢) هو القاضي عبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي، غرناطي، من الفقهاء الحفاظ توفي سنة ٥٤١هـ انظر ترجمته في القلائد ٣/٦٥٥.

(٣) القلائد ٣/٦٦٧.

الكاتب في نهاية رسالته أبياتًا شعرية تلخص الهدف أو الغرض من هذه الرسالة، كما تحفل بضروب المحسنات البديعية من جناس وطباق، ولزوم مالا يلزم، والصور الفنية ترصعها من كل جانب بقدرة تنميق وروعة زخرفة.

وننتهي بغرض أخير من أغراض النثر وهو النثر الوصفي، حيث نجد بعض الكتاب يصفون على طريقة الألغاز بعض الموصوفات: كنوع من أنواع الفاكهة أو أي أداة من أدوات الطبيعة: كالليل والنهار والسحاب، أو الأدوات المستعملة: كالقنديل أو الشمعة إلى غير ذلك، وسأقتصر على نموذج واحد لابن حكم القرشي يصف فيه الفنار وهو الذي يحمل فيه القنديل، يقول ملغزًا:

ما مصقول له رواء، محمول كأنه لواء، معمول على نسب كلها سواء، وما له معقول ففؤاده هواء، قد نظم نظما، وما ضم إلا عودًا وعظما، يساير الظلام ويسامر، ويناقي الصباح وينافر، ويصادي[١] الرياح الهوج ويصادر، ومن لم يرد به الليل الدجوجيٌّ أعيت عليه المصادر، أحرف هجائه أربعة، وعلى نير سمائه أرفعه، إن أغرت على أوله أنرت[٢]، أو بتكت آخره فتكت[٣] وإن ألقيت ثاني أحرفه ألفيت ما بعض الطوافين هامز لألفه[٤] ولا أعرض منه للثالث القائم، فإن مصحف الباقي بعده سبب المناوح والمآتم[٥]، أما تعجبون لهجره الضياء ثم يثمره، ولوَصْلِهِ الظلام وهو يزجره، يرخي على النور فضل الذيل، ويعين على ناشئة الليل[٦]».

ولعل أسلوب هذا الغرض يلتقي مع ما سبقه في الاحتفال بالسجع والازدواج، والإتيان بالمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، وانظر إلى قوله: «يساير الظلام ويسامر، ويناقي الصباح وينافر، ويصادي الرياح ويصادر...».

وعلى الرغم من هذا الأسلوب السائد في الأندلس، والذي سرى إلى جزر البليار فإنا نحس بجمال الصنعة، والقدرة عليها، وروعة الأساليب ودقتها.

---

(١) يصادي: يمنع.

(٢) أي حذفت الفاء وهو اول الحروف، فتبقى كلمة (نار).

(٣) بتكت: قطعت، يريد حذف (الراء) فيبقى (فنا).

(٤) أي حذفت النون فتبقى كلمة فار.

(٥) يريد تصحيف الراء إلى همزة فتصبح الكلمة (فناء).

(٦) اختصار القدح ٣٦.

خاتمة

إن هذه الدراسة التي تبدأ مع خيوط إشراقة شمس الفتح الإسلامي للأندلس، والتوجه إلى جزر البليار والاهتمام الفعلي بها منذ عام (٨٤هـ)، وحتى سقوط آخر هذه الجزر في يد الإفرنج عام (٦٨٦هـ) لهي دراسة شاقة، فستة قرون من البحث تضني الباحث وتجور على البحث.

ومع أن الدراسة الأدبية تركز على الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثالث والقرن السابع، وهي الفترة التي ظهر فيها الأدب العربي في هذه الجزر ظهورًا قوياً، وبخاصة بعد ظهور مجاهد العامري ومن ثم استقلالها عن الأندلس، فإن تتبع الإشارات التاريخية يبدأ مع نهاية القرن الهجري الأول.

وإذا كانت الصعوبة تظهر من خلال هذا الزمن الطويل، فإنها تظهر بوضوح من خلال أمر آخر، وهو غموض أخبار هذه الجزر، وعدم احتفال الكاتبين والمؤرخين بأمرها، فكانت الشذرات المتفرقة عن أخبارها تمثل في جمعها لب الصعوبة ومرها، وقد تذلل كل ذلك بحمد الله وعونه، فقد صحبت جزر البليار، منذ أن صحبت جزيرة صقلية، فمنذ عام ١٩٧٥م، وأنا أحضر للدكتوراه في الأدب العربي في صقلية كانت جزر البليار تجذبني وتشد انتباهي، وظل هذا الحلم والأمل يراودني كلما انتهيت من أحد بحوثي ويدعوني للتفرغ لهذا البحث، وكنت في أثناء أبحاثي ودراستي كلما مررت على معلومة أو خبر حول البليار وأدبها أقوم بتسجيل ذلك، فتجمع لدي على مدى أعوام حصيلة طيبة، فوجدت أن الوقت قد حان للتفرغ لها، وتم ذلك ولكن بعد طول معاناة وصبر وتنقير في مختلف المصادر والمراجع وظهر – ولله الحمد والمنة – كتاب «الأدب العربي في جزر البليار» لأول مرة.

ولعل من ضرورات البحث إلقاء الضوء من الناحية الجغرافية والتاريخية على هذه الجزر كي تساعدنا في سيرنا للتعرف على هذه الجزر المجهولة، وقد تكفلت الدراسة بذلك.

ومن ثم توجهت لكشف اللثام عن الوجه الأدبي والثقافي لهذه الجزر فاستطعت حصر أعداد العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفات، وكان ذلك يقتضي استعراض عشرات المصادر لالتقاط مثل هذه الإشارات.

وقمت بعد ذلك بفتح بلاطات الشعر التي أغلقها تراكم الأيام، وأحكم رتاجها النسيان، فأبنت عن هذا النشاط الأدبي الذي ازدهر بفضل تشجيع أمراء تلك الجزر، فتمثلت لنا هذه البلاطات في صورة راقية.

ورحت أستعرض أغراض الشعر وخصائصه، وأتحدث عن شعراء البليار والوافدين، وأتممت بالحديث عن النثر، وكان ذلك يتطلب العودة إلى كثير من المصادر المخطوطة، وهذا ما صنعته بالضبط فقد عدت إلى كتابين هامين هما: المسالك لابن فضل الله العمري، وعقود الجمان لابن الشعار، واستطعت أن أستخلص منهما أشعارًا وتراجم لبعض الشعراء من أمثال: العماري الميورقي ومحمد بن ابراهيم العبدري الميورقي، وإسحاق بن غانية، فالكتاب إلى جانب التأليف فيه جانب من التحقيق.

والكتاب في النهاية يظهر لنا أثرًا جديدًا من آثار أمجادنا في الأندلس ظل مركوزًا حتى أتيح له أن يظهر في هذا الكتاب الذي ضم بين دفتيه الكثير مما يتعلق بأمر هذه الجزر وأدبها.

وإذا كانت الدعوة إلى حشد الإمكانيات لبناء الوعي الأدبي عن طريق ترسيخ دعائمه، وتقوية أسسه، فإلى هذه الغاية قصدنا، ولتحقيقها سعينا وجهدنا.

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

****

المصادر والمراجع

- ابن حمديس حياته من شعره. د. سعد إسماعيل شلبي - مكتبة غريب، القاهرة ١٩٧٧م.

- آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت.

- الإحاطة في أخبار غرناطة. ابن الخطيب - تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- اختصار القدح المعلي في التاريخ المحلي ابن سعيد - اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل - تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠ - ١٩٨٠م.

- الأدب العربي في صقلية. د. عبدالرزاق حسين، دار البيرق، عمان ١٤١١ - ١٩٩٠م.

- أزهار الرياض في أخبار عياض. شهاب الدين المقري - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، عبدالباقي بن عبدالمجيد اليمان تحقيق د. عبدالمجيد دياب - مركز الملك فيصل للبحوث ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- الأعلام. خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت.

- أعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية. ابن الخطيب - تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف -، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٦م.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة.. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٧٦م.

بدائع البدائع علي بن ظافر الأزدي – بولاق ١٢٧٨هـ.

– البديع في وصف الربيع – أبوالوليد إسماعيل الحميري، الإشبيلي – تحقيق د.عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني للطباعة، الطبعة الأولى، جدة – ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الثانية – دار بيروت ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.

– بغية الملتمس. الضَّبي: أحمد بن يحيى بن عميرة، دار الكاتب العربي. القاهرة ١٩٦٧م.

– بهجة المَجالس وأنس المُجالس. ابن عبدالبر القرطبي – تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية – بيروت.

– البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذاري المراكشي – تحقيق ومراجعة ج س وليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة – بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

– تاج العروس. الإمام الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

– تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان.. نقله إلى العربية د. رمضان عبدالتواب، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

– تاريخ الأدب الأندلسي. د. إحسان عباس، دار الثقافة – الطبعة الثانية – بيروت ١٩٧١.

– التاريخ الأندلسي. دعبدالرحمن علي الحجي، دار القلم، الطبعة الثالثة، دمشق ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

– تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس)، د. أحمد مختار العبادي ود. السيد عبدالعزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية.

– تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

- تاريخ علماء الأندلس. ابن الفرضي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.
- تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب. أبومحمد عبدالله الترجمان الميورقي تحقيق عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- تحفة القادم. ابن الأبار القضاعي، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦ م.
- التكملة لكتاب الصلة. ابن الأبار تحقيق عزة العطار الحسيني، القاهرة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. الحميري، الدار المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٦٦م.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الأمير شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥هـ.
- الحلة السيراء . ابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣م.
- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس. العماد الأصفهاني. تحقيق آذرتاش آذرتوش وآخرين، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. محمد عبدالله عنان - القسم الأول.. الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠م.
- ديوان ابن حمديس. تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت - ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- ديوان ابن زيدون. دار صادر، بيروت.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. ابن عبدالملك المراكشي، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٥م.

- رايات المبرزين وغايات المميزين. ابن سعيد الأندلسي تحقيق د. النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- رحلة التيجاني. تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، تونس ١٩٥٨م.

- الروض المعطار في خبر الأقطار. محمد بن عبدالمنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي- تحقيق د. عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦هـ / ١٩٦٧م.

- سير أعلام النبلاء. الإمام شمس الدين الذهبي- تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

- شرح مقامات الحريري للشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للنشر.

- شعر ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- شعر إدريس اليابسي. جمع وتحقيق د. عبدالرزاق حسين، مخطوط في مكتبتي.

- الصلة. ابن بشكوال- الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

- صورة الأرض. ابن حوقل - منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

- طبقات الأمم. صاعد اللغوي - بيروت ١٩١٢م.

- عصر المرابطين والموحدين بالأندلس. محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م القاهرة.

- عقود الجمان في شعراء هذا الزمان. ابن الشعار الموصلي (مخطوط مكتبة أسعد أفندي رقم ٢٣٢٣، ٢٣٣٠).

- عنوان الدراية للغبريني، تحقيق عادل نويهض، بيروت ١٩٦٩م.

- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان للفتح بن خاقان، تحقيق د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء.. الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

- كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق د. إحسان عباس دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م - ١٤٠٦هـ.

- اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين الأثير الجزري، دار صادر، بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠م.

- مجاهد العامري، تأليف كليليا سارنللي تشركوا، طبع لجنة البيان العربي الطبعة الأولى، القاهرة١٩٦١م .

- مجلة العربي تصدر عن وزارة الإعلام بالكويت.

- المختار من شعر شعراء الأندلس. ابن منجب الصيرفي، تحقيق د. عبدالرزاق حسين، دار البشير، عمان الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

- مختارات من الشعر المغربي والأندلسي، تحقيق إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ).

- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد. ابن الدمياطي، دار الكتاب العربي، بيروت.

- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان. تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. لعبدالواحد المراكشي- تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

- معجم الأدباء لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- معجم البلاغة العربي. د. بدوي طبانة، دار المنارة - جدة دار الرفاعي - الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر.

- معجم الصدفي لابن الأبار- دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- المُغْرِبْ في حلى المغرب. ابن سعيد المغربي - تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.

- المقتبس في أخبار بلد الأندلس. ابن حيان القرطبي - تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس. ابن حيان القرطبي- تحقيق د. محمود علي مكي دار الكتاب العربي، بيروت،١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- المقتضب لابن الأبار. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية ودور أخرى - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري. تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

- نكت الهيمان في نكت العميان. صلاح الدين الصفدي - تحقيق د. أحمد زكي القاهرة ١٣٢٩هـ- ١٩١١م.

- الوافي بالوفيات . صلاح الدين الصفدي. باعتناء هلموت ريتر وآخرين...

- وفيات الأعيان. ابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٩٦٨م.

****

المحتــوى

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

****

طباعة شركة سيتي جرافيك - الكويت
هاتف : 4717768/9 - فاكس : 4717698





الناشر

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الكويت 2004